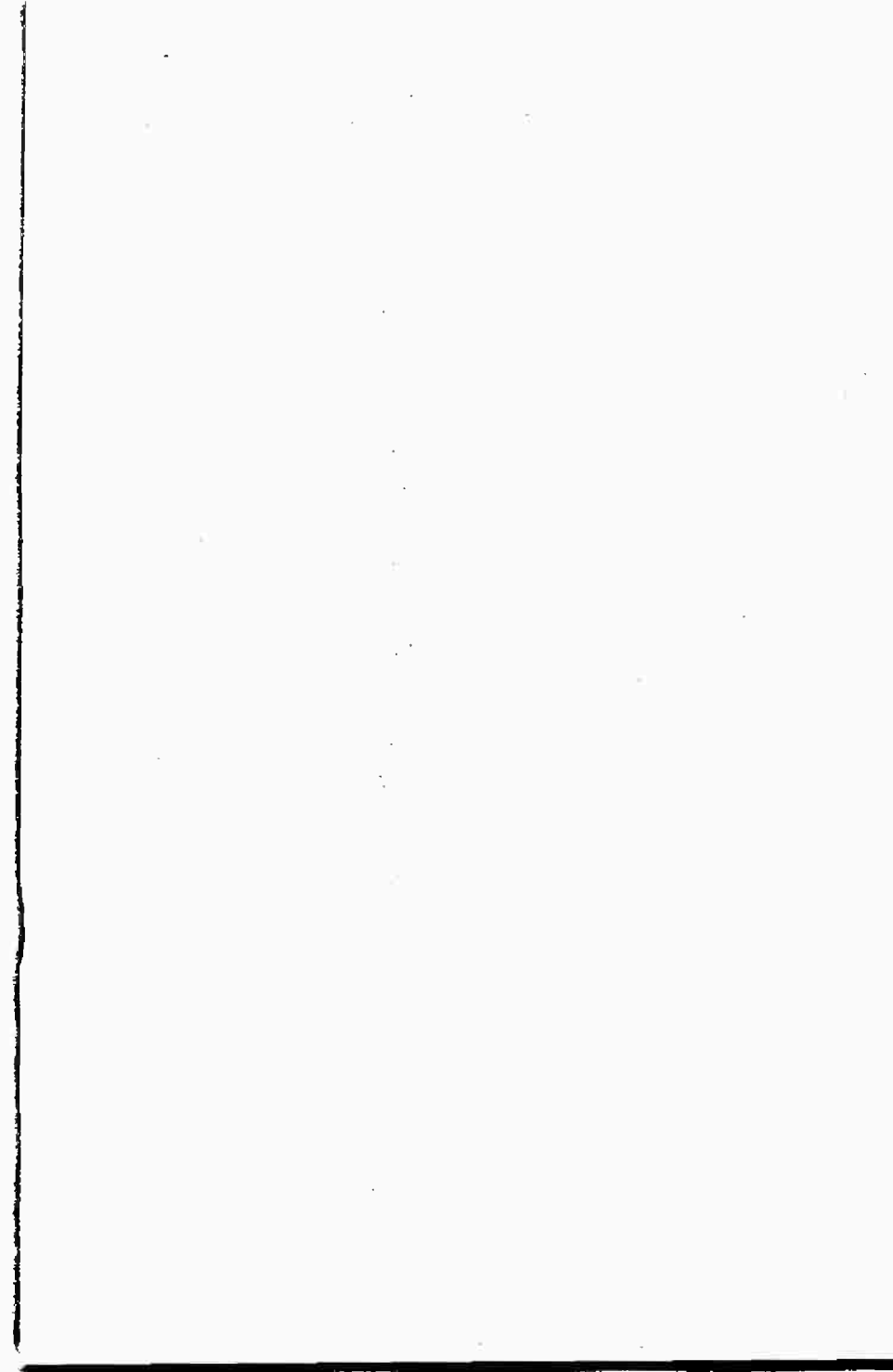


ابراهيم عبد القادر المازني



دار المعارف



الاهراء

إلى ابني الصغيرين

رضي عبدالقادر المازني الذي أوفى على السادسة
وعبد الحميد عبدالقادر المازني الذي شارف الرابعة
اعترافاً

بفضلهما عليّ

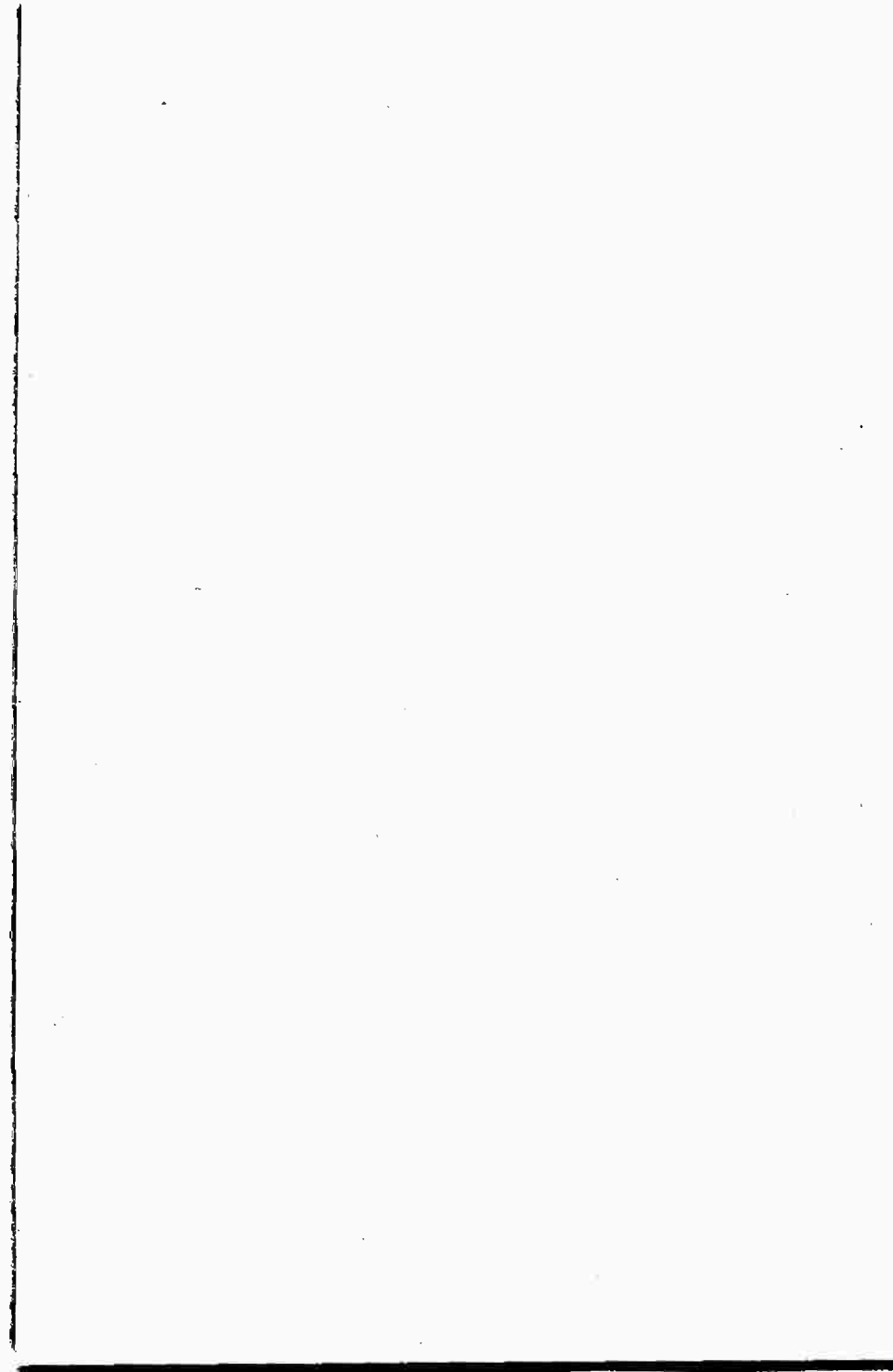
وشكراً

لمعوتهما لي

قلولا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين .

د ابراهيم عبدالقادر المازني .

أبريل سنة ١٩٣٥



فاتحة

فى حياة المصريين - على العموم - من اللين والبلادة اكثر مما ينبقى
وهم - على الجملة - اطلب للترف والرخاء السمين والراحة ، منهم
للقوة والبأس والتجريب ، ولهم صبر على القاقة اذا رقت حالهم فى
بلادهم ، لكنهم لا صبر لهم على المغامرة ولا اقبال منهم على الخطأ ،
وقد يضطرون الى ذلك فيتجلدن ولكن نفوسهم لا تنزع بهم الى
معاينة التجريب ، خيالهم لا ينطلق بهم وراء فتنه ومغرياته ، ولست
أعلم أن مصرىا سكن صحراء هليوبوليس قبل أن تفكر فى
استغلالها الشركة الاجنبية التى عمرتها ، بل لقد احتاجت الشركة
بعد أن أقامت فيها العمائر ومدت اليها الترام ، أن تجتذب اليها
المصريين بالمسلاهي فبنت لهم « لونا بارك » وكظتها بصنوف من
الالعب هى بالاطفال أولى ، والى مداركهم أقرب ، ومع ذلك كله
كان الافرنج أسرع الى سكنها ، وقد نشأت ضواحي القاهرة -
كغيرها من المدن المصريه - بالامتداد والزحف بعد الاكتظاظ ، لا
لأن مصرىا آثر الخروج من المدينة فذهب يرتاد أطرافها واستقر
حيث راقه المنظر ، أو أغراه الموقع ، باحتمالاته ، ثم تبعه غيره
تحذوه الروح عينها أو يدفعه التقليد هكذا حتى اتسعت الضاحية
واتصلت بالمدينة - كلا لم يحدث من هذا شئ وانما نشأت
الضواحي ، كما أسلفت ، بالانتشار الطبيعى والامتداد العادى الذى
لا خيال فيه ولا بعد نظر

ويتعلم المرء منائم يقعد ينتظر الوظيفة ولا يستغرب هو أو أحد
سواء أنه لا يخطر له أن يلتمس رزقه من طريق آخر ، فاذا اعترضت
على هذا وقلت له ان فى الدنيا مضطربا واسعا شالك « وماذا أصنع؟ »
كأنه غير مكلف أن يفكر ولا مطالب بأن يستثمر مواهبه ومعارفه
وقواه ، وما أكثر الاباء الذين يصدون أبناءهم عن ألعاب معينة لان
فيها مخاطرة ، بل عن المشى مسافات طويلة لانه متعب . وقد كانت
التجارة - الى زمن قريب جدا - ولا تزال الى حد ما ، عملا لا يليق
بالاشراف وأدعياء الوجاهة . والقلاح المصرى يقضبه أحيانا أن تقول

له انه فلاح ويعد ذلك سبة ويرى فيه اتهاما له بأنه غير منجور - اى لا يحسن أساليب الحضر أو الكلام بالإشارة والحركة ولا يتقن مراسيمهم وعاداتهم - وتلك بقية من أثر الحكم التركى لمصر .
قال لى مرة صديق وهو يشير الى رجل أنيق الثياب كان جالسا قبالتنا :

« أن هذا الرجل الذى تراه فتنخدع ليس سوى سائق سيارة ، يسوقها براكبيها الى حيث يريدون ويمد يده اليهم ليقبض الأجر ويظل يتلکا انتظارا « للبقشيش » ومع ذلك ينقلب بعد أن يفرغ من عمله كما تراه الآن . أليس مظهره خادعا ؟ »

وأحسست من لهجته الزراية والنفور من أن يجرؤ هذا الذى ليس سوى صاحب سيارة أو سائقها ، أن يجلس حيث هو ، فقلت له :
« أقسم لك انى لا استنكف أن أكون مثله . بل أنا اذا ضاقت بى الصحافة أوضقت أنا بها ذرعا لا تردد أن أشتغل بما هو أقل من ذلك ولا أرى هذا بمنعنى أن أكون كاتباً أو أدبياً أو شخصا له احترامه على العموم ، ولا أعرف يومئذ لك أو لغيرك حقا فى الزرايه أو السخرية . ومع ذلك الا يمد المحامى أو الطبيب أو الموظف بل الوزير يده ليقبض مرتبه كما يمدّها هذا السائق للراكب ؟ فما فرق ما بين العاملين ؟ ولماذا استحق أحدهما منك الامتهان والاخر التكریم ؟ »

ولما قامت الثورة المصرية واضطربت الامور رأيتنى بلا عمل ، فقلت استريح قليلا واستجم للمقبل من الايام الى أن تقر الفسورة وتنتظم الاحوال فذهبت الى الاسكندرية وفى مأمولى أن لا اعدم هناك عملا - وكان لى فيها اخوان - فلقينى صديق كان يومئذ حميما - فسألنى ماذا أصنع فقصصت عليه حكايتى ونكبتى بالثورة - فقد أغلقت المدرسة التى كنت أديرها - فقال بلهجه المذهول « لست أفهمك . انى موظف ولى مال مدخر ومع ذلك أفزع اذا تصورت انى قد أصبح فقيرا ، فكيف يسعك أنت - ولا مال لك ولا عمل - أن تضحك وتمزح »

قلت « ياأخى ماهذا الفقر الذى يفزعك تخيله ؟ ان المرء لا يعدم قوتا مادام يستطيع أن يعمل ، وأنت بخوفك الفقر تفسد على نفسك ما أنت فيه من الرخاء والميسرة ، والترف شيء لا يناله كل أحد ، وليس

يضرني أن كون واحدا من هذه الملايين التي لا تجد الا الكفاف ، وأنا
أزعم نفسي كفوًا للحياة ، لاني مهذب مثقف، بل ادعى اني خير من هذه
الملايين التي هي السواد الاعظم من الناس ، وأقول اني من معلمها
ومرشديها افازعم ذلك واكون اقل منها احتمالا للحياة وتصاريقها ،
ودونها قدرة على الكدح وكسب الرزق ؟ ،

وصاحبي هذا مع ذلك رجل له من الذكاء والعلم والمواهب الكبيرة
ما يفجر به الماء من الصخر .

ومررتا يوما بعامل يتوسد الحجارة ولا يألم استنها ولا يحفل
عدم استوائها ، وكان الوقت ظهرا والشمس تشوي وجهه بأشعتها،
فقال احدهنا « مسكين » وأشار إلى العامل

فقلت « بل المسكين الذي يستطيع أن ينام كما ينام هذا ولا يغمض
له جفن الا اذا كان راقدا على فراش وثير »

ومن أكبر المتاعب التي تعانيها الحكومة المصرية ان كل موظف
فيها يطلب ان يكون مقره القاهرة حيث الاهل والاخوان والملاهي
والمنتديات ، واسوان في رأى الموظفين منفي ، فكيف بالسودان ؟ وقد
حدثني بعضهم أن بائع فونغرافات أخبره أنه كان يبيع من اسطوانة
معينة أضعاف ما يبيع من باقي الاسطوانات مجتمعة ، وأن هذه
الاسطوانة المعينة كان يطلبها الموظفون المصريون في أسوان والسودان،
وكل ما تمتاز به انها تذكر التفرب عن الاوطان !

حتى ثياب الشبان تلمح فيها هذه المعاني . فهي مفصلة كأنها
للنساء لا للرجال . تجعل للشباب ثديين وخصرًا نحيلًا وتزيّف له على
العموم جسما هو بالمرأة أولى ، وتظهره أطرى والين مما ينبغى ان
يكون الرجل ، وترى الشاب في هذه الثياب المزدولة وتنظر الى وجهه
الذي عاجله بالكهرباء والادھنة فلا تعود تدرى أيهما هو - فتاة أم
فتى ؟ وحسن أن يطلب المرء التجميل ، ولكن أحسن من ذلك وأمثل ،
أن يطلب الرجولة . وما أكثر ما ترى الشبان المصريين يتضاككون من
الانجليزى ويركبونه بنكاتهم لان ثيابه رثة ، أو لا أناقة فيها ، أو
لانه لا يبدو كل يوم في حلة جديدة . وتنظر إلى الشاب المصري
المتطرى وتسأل نفسك ماذا يمكن أن يفكر فيه مثل هذا ؟ الى أي

مدى تذهب اماله ! وما هو اقصى ما يطمح اليه ، ولا يسمعك وانست
تعجمه بعينك الا أن تنفى عنه كل ماله علاقة بحياة الكدح والنصب
فى طلب الغايات البعيدة ، والالاحاح فى المساعى على الرغم مما عسى
والصبر على المتاعب واحتمال المكاره ، والا أن تبرئه من امكان اللجاجة
فى طلب الغايات البعيدة ، والالاحاح فى المساعى على الرغم مما عسى
أن يمنى به من الخيبة المتكررة ، ولا يخطر لك الا أنه طاووس
مغرور عقله فى ذيله ، وقيمته كلها فى زينة هذا الذيل . ولا يجرى
ببالك أنه يطلب من الحياة ، أو يجرى من نفسه مجرى الامال ، شيئا
أكثر من أن يكون زير نساء وصائد قلوب ، وأن تكون له سيارة
يسوقها بنفسه الى جانبه فتاة يغازلها ، أو على الاصح يسابقها فى
ميدانها ويغالها بسلاحها ، وهو الجمال ، ولو عقل لادرك أن المرأة
انما تطلب بغريزتها السليمة ، الزجولة الصحيحة لا الانوثة المزيفة
ولو ذهبت أضرب الامثال واسوق الشواهد لما كان لهذا آخر ،
فبحسبى وحسب القراء ما ذكرت فانه فوق الكفاية لمن تقنعه للوحة
الداله والاشارة المغنية .

واحسب أن طبيعة البلاد تجنح بأهلها الى ايثار الدعة والراحة ،
فليس فى مصر جبل شاهق أو غابة موحشة أو وحش ضار و مفازة
مهلكة أو على الاقل مرعبة ، وأرضها مستوية ، وتربتها خصبة ،
والنيل يجرى فيها ولا يحوجها الى المطر ، الفلاح يحرق الارض ويبذر
الحب و يسقيها ويذهب ينتظر ما يكون ، وليس عليه بعد ذلك الا
عمل الى لا يحوج الى كد الدهن واعتصار الراس لمغالبة الطبيعة أو الجو
المتقلب أو شح السماء أو كرازة الارض أو غير ذلك . والفلاح المصرى
فى القرن العشرين لا يزال يجرى فى الزراعة على اساليب أجساده
الاقدمين منذ أكثر من أربعة الاف سنة تغيرت فيها الدنيا ولم تغير
طبيعة مصر ولا عمل فلاحها ولا حالته على الارجح . وقل فى مصر
من يموت جوعا أو يعدم قوتا أو لا يجد الكفاية من طعام وملبس
كاثثة ما كانت درجه هذه الكفاية وصفقتها - ولو مات البعض جوعا
لصح الباقون

حتى الدين الاسلامى دخل مصر وفشا فيها فاصطبغ بالروح
المصرية ، ولست اعنى بذلك أن جوهره تفسير أو أن شيئا من

قواعده اختلف ، وانما أعني إن المسلم المصرى غير المسلم السورى
أو العراقي أو التركى أو الهندى ، وإن الجبرية أظهر وأظم فى مصر منها
فى البلدان الأخرى ، وإن آثارها العملية فى الحياة ظاهرة محسوسة
لا تكاد تقع على مشبه لها ، وإن القناعة والرضى باليسير المقسوم فى
المصرى فطرة

وقد تكون هذه حصانة طبيعية فى الأمة تقيها أن تفنيها الأمم
الأخرى وتحفظ عليها كيانها الخاص ، ولكنه لا خير عندي فى بقاء
ضعيف ووجود يكون أشبه بالعدم ، وليس من الربح للأمة أن تبقى
إذا بقيت ضعيفة . والحصانة فى هذه الحالة لا تستحق أن تكون
سببا للمباهاة وداعيا للفخر لأنها تنقلب بلادة وجمودا وركودا .
والأمة تتجدد بالاستمداد من الأمم والشعوب الفتية لا بأن تصير بركة
أسنة يتحاماها الحريص على الحياة

على أن الذنب ليس لطبيعة البلاد فانها سليمة ، ولو اقتصر الأمر
عليها لما كان من حقها أن تقضى إلى هذا التفكك والانحلال والضعف
والفتور ولا كان من شأن الحصب فى الأرض أن يورث أهلها هذا
القعود ، ولقد انتجت مصر فيما غير مدنية عالية لاتزال تدهش الناس
وتروعهم ، وأخرجت دولا ذات بأس قوة ، شعبا كانت له صولة فى
الدنيا وعزمة فى الحياة . ولكن الجهل المستفيض وما صنعت عصور
الاستبداد المختلفة ، ثم فساد التعليم - حتى فى هذا العهد كل ذلك
أسعف الروح المصرية وأكد شر ما انطوت عليه وكنم صفاتها الطيبة
ولم يتح لها فرصة حسنة للظهور والعمل .

والتعليم عندنا كلام يحفظ ومعارف تلقن وليس هو بالتدريب ولا
فيه أى أعداد للحياة ، والحياة تتطلب الخشونة والقوة والجلد ،
والخيال أيضا . ولا يتوهم القارئ أن قولى « الخيال » مزاح ، فإن
المرء لا بد له من أن يتخيل الغاية ويحلم بها حلم اليقظة لا النوم
والكسل حتى تستبد بهواه وتستولى على لبه فيسعى لها يسعى المصمم .
والخيال يحتاج إليه الغزاة الفاتحون والعلماء والرواد والمستكشفون
والمخترعون كما يحتاج إليه الروائيون . وما من شك فى أن كولم
تخيل الأرض دائرة وتصور الطريق حولها قبل أن يصمم على رحلته
التي قادته إلى الدنيا الجديدة . ولا ريب أن نابليون كان يحلم بأوربه

تحت قدميه قبل أن تهيم له الظروف الفرصة للعيث فيها . بجيوشه .
والشمر يسقط كل ساعة عن شجره ولكن خيال نيوتن هو الذى هدهد
الى نظرية الجاذبية وهو يرى التفاحة تهوى الى الارض . والآلات
بأنواعها التى لا آخر لها قد احتاج مخترعوها أن يتخيلوها ويرسموا
لها فى أذهانهم صورة ما ، قبل التفكير فى صنعها وتحقيق احلامهم
بها . وليس فى بيوتنا ولا فى مدارسنا شيء يشجع الخيال او ينمى
القوى الطبيعية أو يظهر الملكات الكامنة أو يعود القلب الجراة أو يغريه
بالتفكير المستقل الذى يؤدى الى الابتكار والمجازفة . وليس من
الاتفاق المحض ولا المصادفات التى لاتعليل لها ان أكثر من تسعين
فى المائة من المتخرجين فى المدارس لايفتحون كتابا غير ماقرأوا فى
المدارس ولا يشعرون برغبة فى الاستزادة من المعارف وتوسيع افق
النفس وترحيب دائرة النظر . وليس من المصادفة كذلك أنه لا يخطر
لهم أن يقضوا اجازتهم الا فى مدن أخرى لذا لم يقضوها فى العاصمة ،
فلا يجرى ببالهم مثلا أن يقوموا برحلة الى صميم الريف أو أن يخرجوا
الى الصحراء فيقضوا بها اياما فى الحيام وعلى الجمال مستطلعين
متمتعين . أو أن يذهبوا الى مكان غير مألوف أو مطروق . وانما كان
هذا كذلك لان النشأة المنزلية والمدرسية لاتشجع الابتكار ، ولا تثير
روح الاستطلاع ولا تخرج بالنفس عن المجارى المعتادة ، وأكثر الذين
يشذون عن السواد الاعظم ويقبلون على التحصيل المستقل أو يبدون
منهم ابتكار فى آرائهم أو سيرتهم أو مجدهم أو لهم انما يكونون
فى الاغلب والاعم متأثرين بعوامل أخرى غريبة عن البيت المصرى
والمدرسة المصرية كأن يكونوا اتموا تعليمهم فى بلاد أخرى ، أو
أعداهم ما قرأوا بعد المدرسة ، أو بغير واسطتها على الاقل ، الى آخر
ماعسى أن يكون هناك من الدوافع الاجنبية عن الوسط المصرى
الصرف .

وخير لمصر أن تكون معارف أبنائها أقل وروحهم أقوى وخيالهم
انشط وقلوبهم اجرا ، فما أقل ما يغنى المحفوظ من العلوم والمعارف
لتأدية الامتحان ، ونحن قد نستطيع أن نحصل كل ما عند الغربين
من المعارف والآداب ونبقى مع ذلك نجر أرجلنا وراءهم ولا يبدو لنا أمل
كبير فى ادراكهم والحقاق بهم ، لان العبرة بالروح التى أثمرت هذه
المعارف والآداب ، وبالطباع القوية التى أخرجت هذه الآثار

وانتجت المدنية الغربية ، لا بالاثار نفسها . وانت قد تستطيع ان تمد يدك فتجنى الشجرة الناضجة من فوق الشجرة ولكنك لاتنقل بذلك الشجرة الى حديقتك فيظل ما جنيت محدودا وتظل الشجرة تثمر فاكهة أخرى ، كذلك نحن انما ننقل عن الغرب الثمار دون الاصول ، فلا نعنى بذلك ، ونتخذ المظاهر ونفرح بها ونتبعه ولا نعبأ بالحقائق التى ورائها

وفى الروح المصرية كآبة ومرارة هما من فعل الاستبداد على الحقب الطويلة ، والكآبة تفتير ، والمرارة تزهيد ، ولولا ما تركه فيه الاستبداد لما كان ثم من داع لتلقى الحياة بغير السرور والاقبال والنشاط ، فان الحياة لاتحزن ، وهى تلقى بالمرء فى الدنيا ، وتلقى الدنيا كلها أمامه ليصنع بها ، ويبلغ فيها ، ما يريد أو ما يقوى عليه . ولكننا نسيء الظن بالحياة ونقبل عليها حذرين مشفقين متلفتين غير مطمئنين لانا ورثنا سوء الظن بما يضمم الاستبداد - فأعدى أعداء الروح المصرية الاستبداد - والا يرد اليها اشراقها ونضارتها وجراتها واقدامها الا الحرية وطول العهد بها والاطمئنان اليها فى الحياة الخاصة والعامة

ولست أرى لنا أملا فى حياة تستحق اسمها مالم نستوثق من حريتنا مالم نعالج أنفسنا - الى جانب ذلك - بالقوة ننفثها فى كياننا ، وبالحشونة نروض أنفسنا عليها ، وبالحيال نرقرقه ونشيعه فى حياتنا الجافة المصوحة ونردها جائشة تغرينا بالمثل العليا وتدفعنا الى الطماح وتقذف بنا على المهالك - نعم المهالك ولا أقل من المهالك - فان الامم لا تنهض بالركة والطراوة بل بالفحولة المستبشرة فى السراء والضراء على السواء ، فان البشر من القوة ، والذي يحتمل الهزيمة ويبتسم لها وهو مدرك لمداها ، أكبر ممن لا يعرف الابتسام الا حين يؤاآتيه الحظ - تلك ابتسامة الفطنة الدقيقة والارادة القوية وهذه ابتسامة الخفة

وبعد فقد لا يكون هذا الكلام أصلح ما يكتب على سبيل التمهيد لمجموعة من الصور والقصص ، ولكن روح الفاتحة من روح الكتاب وهذا شفيعها عندى فعسى أن يكون شفيعها عند القراء

صور من الامس

قبل جيل

كانت لحياة المصريين فى المدن منذ جيل أو نحو ذلك مظاهر اجتماعية ما أسرع ما عفت عليها الايام ونسختها المدنية الغربية الزاحفة . ولم تبق منها الا كإمالة الحرس : تشير الى المعنى ولا تفصح عنه . ومن العسير أن يلم الكاتب بجوانب تلك الحياة وأن يثبت صورها كلها . ولكن مما يعين القارئ الذى لم يدركها على تخيلها أن نذكر له على سبيل التمثيل ، لا التقصى والاحاطة ، أن هذه العماثر الجديدة التى تذهب فى الهواء طبقة فوق طبقة لم يكن لها وجود ، ولا كان أحد يفكر فى ابتداعها أو يحلم بقيامها أو يحس الحاجة الى انشائها ، وكان الاغلب أن تكون الاسرة كلها فى دار واحدة . وقل أن تكون الدار الا ملكا للأسرة التى تسكنها فاذا لم يكن هذا هكذا فان سعى الاسرة أو عائليها يكون الى شراء دار . والعمارة الواحدة من العماثر الحديثة تسع من الاسر الان أكثر مما كان يسع الشارع قبل جيل . وكانت روح المصريين هى روح (أولاد البلد) فاذا انتقلت أسرة من بيت الى بيت ، وهما أهل الحى الذى انتقلت اليه ضيفة عليهم فى الليلة الاولى ، وتقدم الجيران الاقربون اليها بالطعام والماء ، ويدلوا لها كل عون ، ورفعوا عنها مؤونة التفكير فى الأكل والشرب أو الاشتغال بهذه الشئون ، ويسروا لها أن تتخلى لترتيب البيت الجديد وفرشه ، وكان الساكن الجديد يعرف ذلك فلم يكن يكلف نفسه أن يطبخ شيئا .

وكان الرجل اذا بنى بيتا أو تزوج أو زوج ولدا أو بنتا أو كان فى بيته ختان أو ولادة أو ماتم ، تلقى من خيرته وأصحابه وذوى قريابه الهدايا على صور شتى ثلاثم الظرف . وليس من الضروري أن يكون المهدي صديقا للمهدي اليه بل يكفى أن يكون جارا له أو فى حارة واحدة معه .

وكان التزاور فى المواسم والاعياد سنة مرعية وكان أهل « الحارة » أول من يزادون ولو لم تسبق بهم معرفة . ولم تكن المقاهى بهذه .

الكثرة ولا المطاعم كما هي الآن في طريق المرء أينما سار . وكان أكثر ما يجتمع الناس ويأكلون ويشربون ويسمرون في أفنية الدور ، وفيما كان يسمى « المنظرة » أو « التخبوش » أو « السلامك » تبعاً لسعة الدار وطراز بنائها ولم يكن ثم مصابيح غاز ولا كهـرباء ولا كانت مصلحة التنظيم تتولى الكنيس والرشي ، فكان كل ساكن يعلق في الليل مصباحاً ببابه ويتولى بواسطة خدمة كنس الرقعة التي أمام بيته ورشها . وكثيراً ما كان رب البيت نفسه يجلس على كرسي أمام الباب وفي يده خرطوم الماء وينهب يرش الطريق وهو لا يستنكف ولا يرى أن هذا دون مقامه . وما أكثر ما كان الخادم يكون واقفاً إلى جانبه لا يعمل شيئاً و « السيد » يباشر العمل ويوجه الخرطوم إلى هذه الناحية أو تلك . فإذا أقبل جار نهض وحول الخرطوم إلى ناحية بعيدة ونادى « كرسي ياولد » . ولم تكن ثمة مكاتب للتخديم ، يؤتى منها بالخدم فيقصون أياها أو أسابيع أو شهوراً ثم يستعفنون أو يطردون لسرقه أو خيانة أو عجز أو بلادة أو قلة أدب كما هو واقع الآن . وإنما كان الخدم يربون في البيوت ينشأون في ظل أهلها وتحت عيونهم ورعايتهم ، فإذا كبروا ودخلوا مداخل الرجال زوجهـم وأبقوهم في كفهم

وكان الزواج حادثاً اجتماعياً ضخماً ، يعنى المصريون بابراره والاعلان عنه والمفاخرة به ، ويتخذ منه رب الأسرة أداة للظهور ، وإن كان الاسراف فيه كثيراً ما أدى إلى الافلاس بعده ، ومن هنا تلك « الافراح والليالي الملاح » التي ينكرها ولا يعرفها أبناء هذا الجيل ، وفي هذه « الافراح والليالي الملاح » يتمثل الفرق بين الجيلين ، الحاضر والماضي ، من حيث النظر إلى الحياة والغاية منها ، ومهمه الانسان فيها ، فالزواج كان أكبر حادث في حياة الفرد ، وكانت هذه الحياة قوامها ارضاء الغريزتين : حفظ الذات وحفظ النوع ، ففي سبيل الغريزة الاولى - الفردية - كان الرجل يعنى بطعامه وسروره ويجنب أن يرهق نفسه ويكلمها أكثر مما يستوجب الامر ، ويتحاشى المتعبات والمنقصات ما استطاع ، وكانت حياته لذلك في الغلب والاعم فرحة تنشئ الطرب والسرور وتتقى الهموم ، أو تفرقها في كأس من الشراب أو ماهو اليه ، أو تتسلى عنها بالسماع

والاجتماع والسرير . وما دام ان الحياة الى زوال وكل ربح الى سكون ،
والعسر الى يسر ، والله يفعل ما يشاء ، الملك له ولا معقب حكمه ،
فما خير أن ينحر المرء نفسه أسفا ويقتلها غما ؟؟ ولم يكن للشعب
شان بأمور الحكم ، ولم تكن الحكومة تعنى بتعليم الشعب أو تثقيفه
وأخراجه من ظلمه الجهل ، بل لعلها كانت تملى له فى هذا القصور
وتشجعه على هذه الفلسفه ، وترى فى ذلك سلامتها وأمنها وراحتها
واطمئنانها ، ونحن اليوم نؤمن بأكثر ما كانت الاجيال التى تقدمت
جيلنا تؤمن به ، ومن ذا الذى لا يؤمن بأن الموت حق وأن لاسلطان
للمرء على المقادير ؟ وأنا لننشد السرور كما كان أسلافنا ينشدون
ونتوخي ماتقضى به الغريزة الفردية لانا مدفوعون الى ذلك بقوتها
لابارادتنا ، ولكن نظرتنا الى الحياة صارت غير نظرتهم ، وكون الموت
حقا أو غير حق لا يمنع أن يكون للفرد طماح على الرغم من هذا الموت
الحق ، بل ان كونه حقا ربما كان مشددا للعزم ومضاعفا للسعى
ومقويا للهمة ، ثم أن لنا الى جانب ذلك حياة عامة لم تكن لتلك
الاجيال ، فالمجارى التى تتدفق فيها قوانا الفردية أكثر وأعمق
وأفتن ، والميادين التى تتسع لنشاطنا أكبر وأرحب وأخلم ،
والسرور واللذة عندنا منشودان ولكنهما بحكم الاحوال التى انتقلنا
اليها ، أو انتقلت هى بنا ، خلصة مختلص . ونحن نحيا بأعصابنا
أكثر مما نحيا بحلوقنا وبطوننا ، وما أكثر ما يمتنى الواحد منا لو
كانت أعصابه عارية لا يكسوها لحم ولا جلد ليكون احساسنا بوقع
الحياة أدق وأسرع ، واستجابتنا لها أوفى وأتم

وفى سبيل الغريزة النوعية - وحفظ النوع - كان الزواج تلك
الحادثة الكبرى فى حياة الفرد ، فلا يكاد الواحد يولد ، حتى يذهب
أبواه يفكران فى الزوجة الصالحة له ، وقد تكون تلك
الزوجة المستقبلية وليدة مثله ، وقد يكتب لها أن تعيش وقد يقسم
لها الموت الوحى فى طفولتها ، ولكن الابوين لا يستريحان الا اذا
فعلا شيئا يرضى مطالب هذه الغريزة ويشعرهما الطمأنينة ،
وكثيرا ما كان الاب يقرأ الفتاة مع والد آخر ، تمهيدا لتزويج
الطفلين بعد أن يشبوا ويبلغا مبالغ الحلم ، وقد يكتفيان بالتفاهم ،
وربما تولت الامان ذلك ، واتفقتا على أن فلانا لفلانة .

ويكبر الغلام ويشتد ويتسجه خاطره الى الزواج بفضل احياء والديه - أو أمه فى الأكثر والاعم - ويقع الاختيار على فتاة تكون أو لا تكون هى التى لهج بها الابوان فى صدر أيام الفتى . وتقام « الافراح والليالى الملاح » التى أعدت لها العدة من قبل ، وليس من الضرورى أن يكون المرء غنيا ، فإن الفقير يسعه فى دائرته ما يسع الغنى بشروته ، والتعاون سنة كما أسلفنا ، والناس أثر للسرور وأطلب له ، والعرس فرصة ، ويعلم من أدركوا ذلك الجيل أن صاحب الدار الذى سيكون فيها العرس لم يكن له من الامر شيء ، فقد كان الاهل والرفاق والجيران هم الذين يحتمون هذا وذاك ، وكان رب البيت ربما عاد مساء من عمله فوجد الدكك مرصوفة فى الحارة أمام بيته والمصابيح مغلقة والكراسى معدة ثم يجىء الاخوان على عادتهم كل ليلة ، فما يليق أن يدعوا صاحبهم وحده ينهض بهذا « المهم » بمفرده ، ويقبل الجيران وأهل الحى ممن يعرفهم أولا يعرفهم رب الدار وتخرج القهوة أو القرفة أو غير ذلك ثم تبدأ (الضمة) .

والضمم هذه ليالى تحييها جماعات من الهواة تكون كل جماعة منها فرقة قائمه بذاتها مستقلة عن عداها ، ولكل حى فرقة واحدة أو اثنتان أو أكثر ، وهذه الفرق يدعى بعضها لحياء هذه الليلة أو تلك من ليالى الضمم التى تسبق ليله البناء ، ولكن كون واحدة مدعوة لسبب من الاسباب قد لا يرجع الى أكثر من علاقة شخصية بين أحد أفرادها وبين صاحب العرس أو صديق له ، لا يمنع أن تتطوع فرقه أخرى من أبناء الحى للحضور والمشاركة فى أحياء الليلة بغير دعوة . ويهون الاقدام على هذا التسطوع أن كل الفرق - مدعوة كانت أو غير مدعوة - لا تتقاضى أجرا . ولم يكن بالنادر - بل كان ذلك مألوفاً - أن تتبرع فرقة من حى آخر بعيد - وذلك لان بين هذه الفرق من الهواة تنافسا وتسابقا ، وكل منها تشتهى أن تفوز بالسبق والشهرة - أو على حد تعبيرهم « تأخذ الصايح » - وأحسب الصايح معناه السامر الصايح بأهات الاستحسان وكلمات الثناء وعبارات الإحاح على المغنين أن يعيدوا ويكرروا ويطربوا النفوس ويشجوا القلوب مرة أخرى .

وآلات هذه الضمم أو فرقها بسيطة ليس فيها عود ولا قانون ولا كمنجة وهي أدوات « التخت » والاغلب أن تقتصر على الطبللة و « الرق » أو الدف وربما زادوا عليهما الزمارة مزدوجة أو مفردة . وقد يجيئون بالربابة . ويجلس الفتيان على دكتين متقابلتين ويقدم لهما الشراب ويقف في خدمتهم أهل الدار وأخوانهم . ثم يبدأ الغناء بتوشيح ثم ينفرد زعيمهم وأحلامهم صوتاً - ولعله صبي صغير - بموال يغنيه ويطرب فيه ويرجع ويشلو ويمد الصوت ويقصره ، ويرفعه ويخفضه ، ويفصل بين النغمات بما يشبه التنفس من السكت ولا تنفس هناك ، مع عودات متوالية الى بعض ما سبق ، كل ذلك في صوت حسن ورنان شجي ويحج مطرب حتى يحط اللحن في مستقره ، فتنتطلق أصوات السامعين بانف طويلة مديدة من نغمة الغناء .

ويتفق أن تكون هناك فرقة أخرى جاءت متطوعة ومعها شراها ، فتغار ولا يكاد الموال ينتهي حتى ترفع هي الصوت بالغناء ، منافسة به الفرقة المدعوة ومتحدية لها ، ويتعصب الانصار لكن من الفرقتين ، وينقسم السامر الى معسكرين وتتوتر الاعصاب ويرسلها واحد ضحكة مقرقة منظوية على السخر ، وتقور الدماء في العروق ، وتتعالى الاصوات ويكثر اللفظ وتشتد الضوضاء ويتقاذف المعسكران بالنكات تعقبها القهقهات وتذهب كل فرقة تقاطع الاخرى ، واذا بزجاجة تطير وتصيب واحداً في رأسه أو ظهره ، أو غير ذلك ، فتثب الاجسام الى الارجل ، وترتفع الكراسي في الهواء ، ويحمل الاقوياء الدكك يضربون بها خصومهم ، وتمتد الايدي الى ما تحت الثياب وتخرج العصي المخبوة وتهوى المصابيح وتطفأ الانوار فلا تعود ترى شيئاً أو تسمع سوى ضوضاء وأصوات الكراسي والدكك المتهاوية على الابدان والعصى تفرقع والصيحات تند عن المصابين .

ثم تنجلي المعركة عن سامر منفذ وكراس ودكك محطمة ! ولم يكن الناس يطلبون الزواج للزواج فقط بل للنسل ، وللنسل من الصبيان في الأكثر ، لان الرجل هو الذى يفتح البيت ويحفظ اسم الاسرة ، فاذا لم يرزقه الله ولداً ، تزوج مرة ثانية وسرح

الزوجة العاقر أو المثناة ، أو أبقاها ، ومن هنا فى الاكثر الزواج
بغير واحدة .

ولسنا كذلك الآن ، وانا لنطلب الزواج ونريغ النسل ، ولكننا
لا نجعل ذلك غاية الغايات ، وأقصى ما تتعلق به اللبانات ، وسواء
عندنا أن يجيء نسلنا ذكورا أو أناثا ، ونحن ندرك الآن أن المرء
يستطيع أن يخدم النوع بغير النسل ، وأعنى بتأثر علمه أو أدبه
أو فنه . وللمرأة بيننا مقام قريب من مقام الرجل ويوشك أن
يعادله ويساويه ، وليست العلاقة الجنسية بالتى نجعل بالننا اليها
ونتحرى ما يساعده عليها ، فى طعامنا وشرابنا ، فان العاطفة
الجنسية قد تجد ما يرضيها فيما دون التعارف الجثمانى من حديث
ونظر وغير ذلك . وهذا الفرق بيننا وبين اسلافنا فيما يتعلق
بالمسائل الجنسية راجع الى الفرق بين ما نفهمه من الجمال الآن
وما كانوا يفهمون منه ، فان الجمال ليس جسما ولكنه روح ، وهو
ليس شيئا يوزن بالرطل وانما هو معان وتعبير تدرك وتحس
بضمير الفؤاد .

جر الشكل

شيء من التاريخ ...

جر الشكل : جذبه وجلبه أيضا والشكل (بالتحريك) الاشكال .
وجر الشكل فى اصطلاح العامة هو الشخص الذى يتصدى عامدا
لناس معينين ويتحكك بهم ليثير الشجار ويجر العراك ، وكان لكل
حتى من احياء القاهرة - منذ عشرين أو ثلاثين سنة - عصابة من
الرجال الاشداء يدعونهم (الفتوات) ينسبون الى حيتهم فتقول مثلا
(فتوات المنشية) أو (فتوات المراسه) أو (فتوات الكحكيين)
وكانت وظيفة هؤلاء الرجال أن يغيروا على أندادهم من رجال الاحياء
الآخرى - لا ليسرقوا أو يسلبوا - فقد كانوا أنزه من ذلك وأسمى
منزاع نفس ، بل ليضربوهم ويعودوا معقودا لهم لواء النصر عليهم .
وقد يتفق أن يكون خصومهم أقوى منهم وأفضل فيرجعوا محطمين
مهزومين ، فكانت الاغارات مستمرة والغزوات لا تنقطع ، وكان
يحلو لهؤلاء الجفاة الغلاظ القلوب والابدان أن يوهمو الناس أو
يوهموا أنفسهم أنهم فوجئوا بالغزوة - وإن كانت لهم عيون
وجواسيس فى الحى المفير يخبرونهم بموعد الاغارة - وذلك
ليستطيعوا أن يسعوا اذا انهزموا أنهم كانوا على غير استعداد او
أن رجالهم كانوا مبعثرين فلم يشهدوا المعركة ولم يحضروا الدعكة
ولم يتسن لهم أن يشلوا أزر اخوانهم أو أنهم - اذا كتبت لهم
القلبة - وسعهم أن يقهروا خصومهم على الرغم من المباغته وعدم
الاستعداد وتشتت النصاراء ..

وكانما كان فى قرارة نفوسهم شعور بأن من الواجب تسويغ
هذه المناوشات ، فكان لكل عصابة صبي هو الذى يدعونه (جر
الشكل) يتعرض لخصماء فريقه فيقتلهم بحجر أو كرة أو يصطلم
بهم ، ويفطن هؤلاء الى أن هذه بداية الشر وقاتحة الحرب فينهرونه
وعيونهم تطلعت باحثة عن المختبئين وراء الابواب وفى مداخل
البيوت ، فيصيح الفتى ويرفع عقيرته بالصراخ أو الشتم أو
الاستنجاد فيخرج المختبئون على صوته لنجدته ، فيختفى الصبي

وتدور المعركة ويحمي وطيسها ويمتد ميدانها وتتسع حلبتها فتجاوز الحارات الى أفنية البيوت ، تتحطم العصي فيعتاض منها المتضاربون كل ما تصل اليه أيديهم ، ثم ينكشف الغبار عن أنوف دامية وعيون واردة وأشدق مقطعة ورؤس مشجوجة وعظام مرضوضه ومع ذلك لاشكوى ولا ألم ..

و (جر الشكل) لا تقتصر مهمته على ما أسلفنا الإشارة اليه فان عليه - والمعركة دائرة - أن يحضر الغائبين وأن يغذيها بغير ذلك مما يدخل في طوقه من الاشتراك العملي . وقد تسأل « وماذا يسمع صبيًا كهذا أن يصنع ؟ ماذا يبلغ من جهده وهو لين العظام؟ » فأقول ان الذي يقدر عليه لا يقوى عليه الكبار لانه يؤدي في هذه المعارك وظيفه (المتراليوز) ذلك أن هؤلاء الصغار يدربون أنفسهم على ضرب من الرماية كان مألوفًا في تلك الايام ، ولا أعلم أن أتربهم في هذا العصر يحسنونه . فكانوا يخرجون الى التلال أو الصحراء ويجمعون حجارة دقيقة مستديرة بحجم الريال أو نصفه ودون سمكه - ويتناولها الواحد بين إبهامه وسبابته ويطيها مسددة الى ما يقذفه بها فتصيبه بعدها وتكون أقطع من السيف ويفتن الواحد منهم في ذلك فيأتى بالمطرب المعجب ولا يخطيء هدفه أبداً .

وان المعركة لدائرة وقد اختلط الخصوم بالانصار ، فهنا اثنان يتماسكان بالتلابيب ويتناطحان بالرؤوس ، وهناك العصي تترقع وتقع على الرؤوس تارة وعلى الجنوب أو الظهور أو السيقان تارة أخرى ، وقد تنقصف فترمي الى الارض وتنسب عنها الايسدي والركب والادمغة والحجارة ، وما هنا يعيث آخر بعصاه كالشيطان ويخبط يمينًا وشمالًا ويضرب كل من يلقاه يلا تمييز بين عدو وظير ، وتنمزق الثياب ، وتنهار الشقوق والفتوق في كل ناحية ، وتشوه الوجوه بما يسيل عليها من الدم ، وما يحدث لها من الانتفاخ والورم ، وما يكسوها من الاتربة والاوحال ، فيجيء الصبي ويقذف ولا يغلط ولا تخطيء يده خصمه ولا تقع (الراتقة) - كما كانت تسمى هذه الحجارة - الا على يافوخ الخصم العائى فتقطع (اللامه) و (اللبدة) التي تحتها وجلد الرأس تحتها ، وتدور الارض بالمسكين فيترنج كالمخمور الى جدار يستند اليه أو عتبة يقعد عليها ولا يعود له عمل في الحومة .

وقد كنت ككثير غيرى مفتونا برمى (المرافقة) فاتفق يوما أن كنت أتدرب عليها فى الحارة فأصابت ابن شيخ من العلماء كان ينازع صبيها من أصدقائى الذين الاعبهم فهوى الى الارض كالجثة وفزعت وعذت بالبيت • ولا أدرى كم مضى من الزمن واذا بالشيخ العالم ومعه صاحب له وبينهما الغلام المصاب ، يصفق فى فناء الدار وينادى أن (هاتوا الولد اللعين • لا بد من سوقه الى البوليس) وكنت مطلا من الشباك (شيش النافذة) فطار عقلى وكاد يقف قلبى ، فهربت واختبأت فوق عدد من المراتب كانت مطروحة فوق صندوق كبير ، ودخلت تحت الغطاء المنشور عليها ، وعلقت أنفاسى على قدر ما يستطيع ذلك • والدموع فى عيني تترقرق • وفى حلقى شيء يخنقنى • والبحث عنى دائر فى كل مكان • أمى وجدتي تدخلان واحدة فى أثر الاخرى ثم تخرجان • وأسمع منهما مايطمنن وما يقلق فى آن معا • ولا أتحرك • ويشتد قلقهما على وعجبهما لاختفائى فجأة وقد كنت منذ لحظة تحت عيونهما • فأقول لنفسى معتذرا من ازعاجهما (لان يزعجهما غيابى خير ألف مرة - لى على الأقل - من أن أساق الى البوليس وأحيس فى القسم) وبعد فترة طالت على ، صارت أمى تدخل كل غرفة وتقول فيها بصوت عال (لاتخف يابنى • لقد ذهبوا • اخرج الى) فلا أصدق واسئ الظن حتى بأمى وأتوهم أنهاحيله لاقتيادى الى البوليس وأخيرا يهتدى أخى الصغير الى مكانى وتلمح عينه شيئا يتحرك فوق المراتب فيصيح بأمى فتشده الغطاء فأنفجر بالبكاء المكثوم •

ولا أطيل • • ظهر للشيخ العالم انى ابن فلان ابن فلان وكان جدى شيخه واستأذه فصيح عنى ولكنه أبى الا أن يسدى الى نصحا فجرونى اليه وأنا لا أزال أتوجس وأخشى أن تكون تلك حيلة لحملى الى القسم • فلم أعرف الاطمئنان الا لما رأيته يهش لى ويمسح لى رأسى ويرقىنى ليطرد عنى الشيطان الذى يغوينى « بالشقاوة » ومنذ ذلك اليوم أكره البوليس •

* * *

وأكثر ما كانت تلور الممارك فى الليل حين يزف الرجل الى زوجته وكانت العادة الشائعة أن يخرج به أهله والمدعوون الى

عرسه ويوقدوا الشموع حوله ويسيروا به فى الطرقات وأمامه الزامرون والراقصون على الانعام . فيجىء « الفتوة » ويقف الجمع ويطلب أن يزمروا له دورا معيناً يرقص عليه . وما من بأس أن يجاب الى طلبه . ولكن العجب أن القبول لم يكن يحدث الا فى اللفات المفردة ويفضّب الفتوة أن يرفض رجاؤه . فيهوى بعصاه أول مايهوى على الزامرين ويثنى بالزوج المزفوف وما أسرع ماتظهر العصي وتحمل الوقدة ويتبعثر الموكب ويعود الزوج وعلى وجهه وثيابه ندوب وجروح وآثار لا توائم ما كان يحتفل به من أجله .

ولم أر أنا هذا ولكنى سمعته من صديق أديب قال : « انه كان يعرف رجلا من هؤلاء الفتوات كان فيه شذوذ غريب فكان لا يتعرض للزفات لان هذا لا يلائم مزاجه ، وانما يتعرض لجنازات الموتى فينهال على حاملي النعش بالضرب ويضطرهم وأبلا من قرع عصاه حتى يحطوا حملهم أو « الشغل » كما يسمونه ويجروا ، فيتركهم ويمضى راضيا عن نفسه .

ولم تكن « ضمة » من « الضمم » تنتهى الا بموقعة عنيفة . والضمة كما يعرف أو كما لا يعرف القراء هى الحفلة التمهيدية لليلة الزفاف . فيجىء أولاد البلد ويجلسون على الدكة ويغنون والناس يستمعون . وهؤلاء المغنون فى الأغلب والاعم متطوعون من أصدقاء الزوج ، أو اخوان معارفه - كما بينت فى الفصل السابق - يجيئون يشربهم معهم ، وقل أن يطلبوا من رب السدار شيئا من الطعام يتنقلون به على شرايهم . فكان يحدث أن يجىء فريق آخر من « أولاد البلد » - يغلب أن يكونوا من حى آخر - ويتخذون لهم دكة فى الطرف الآخر من السرادق ، أو الحارة ، وينطلقون يغنون بنورهم ، وقد يقاطعون الأولين . وقد يكتفون بالمنافسة حين يسكت أولئك . وربما اختساروا من الادوار ما فيه تعريض بهم ، وقد يطلق واحد من هؤلاء أو أولئك نكته يرد عليها آخر من المعسكر المقابل ، ثم تسكت اللسنة ، أولا تسكت . وتنطق العصي ، ولكن ميزة هذه المعارك وفضلها على سواها أن الدك والكراسى هى أدوات الضرب . وهى مناظر كانت تروعنى وتفتننى ، فأقف مسحورا أتأمل الكراسى الطائرة والدكك الصاعدة

الهابطة والمصاييح الهاوية والظلام الشامل المحيط والصياح ،
والضجيج ، والصخب ، ثم الفرار حين تجيء قوة كافية من الشرط
ولا أزال أذكر أنى اضطرت مرة أن اختبئ تحت الدك العالية
التي توضع للمغنين والتي تسمى « التخت » فلما خلا السامر ،
وأطلقت الانوار ، وفر المتضاربون أمام الشرطة هممت بالخروج من
تحت الدكة وإذا بيد خفير تمتد الى وتقبض على ويقول صاحبها
« تعال الى القسم » .

فضحكت وقلت : « يا هذا » أترك الذين تضاربوا وهدموا
السرادق وأحالوه كوما من الكراسى المحطمة ، وتلا من الدك
المتراكمة وتجيء الى ضئيف متوار مخافة أن يصيبه سوء تريد
لتسوقه الى القسم » .

فلم يقتنع وجرنى الى القسم وهناك لقي من الضابط جزاءه .

* * *

وقد مضى ذلك العهد بشره وخيره - ان صح ان له خيرا - وجاء
عهد آخر ليس فيه « فتوات » فقد انتظمت شئون الامن ، واستقر
النظام ، وتهذبت النفوس ، ورقت أيضا . ولكنى كلما فكرت فى
الامر بدالى كان طراز آخر من الفتوات قد نشأ وحل محل القديم .
وكان ضربا جديدا من « جر الشكل » قد برز الى الوجود - طراز
لا يتقاتل فى الحارات ولا يفسد « الزفات » ولا يحيل ليالى « الضمم »
الصادحة كوما من الشحطيم والحرس ، ولكنه يفسد الحياة ويسود
وجوه العيش - وجر شكل لا يتحرك بالافراد ولا يرسل « الرائقة »
تشدخ الرأس وتفتح اليافوخ وتقطع الانف أو الصدغ ، ولكنه
يتصدى للجو فيعكره وللنفوس فيثيرها ويرهق الغبار ويرسل
القذائف يضرم بها النار ثم يمدّها ويغذيها بما يؤرثها ويدعها
تزغرد - تلك هى على الترتيب أحزابنا وصحفنا .

وكم رحت أعجب لقسمة الحظ . كنت فى حادثتى لا أتردد أن
أؤدى وظيفة « جر الشكل » فى معارك الحارات . وقد شببت عن
الطوق جدا ولكنى أرى آخرتى ما زالت معقودة بأولاي ، فقد طوفت
ما طوفت ثم انتهيت الى الصحافة وعدت - كما كنت - « جر شكل »

الساحر

كنا بضعة صبيان فى الحارة نلعب « النرجيلة » وهى كما أعرف الآن - وكما يعرف كل من كان صبيا ، فى زمانه ، وقد كنا جميعا كذاك • فما يولد الناس كبارا بلحاهم وأسنانهم - لفظة محرفة عن الفرنسية - تر يونجل - معناها المثلث • نرسمه بسن الحجر على الارض ونقيس بضعة أمتار ونرسم خطا مستقيما لا نحسن رسم مثله بالقلم على الورق فى المدرسة - لا أدري لماذا - ثم يضع كل منا « بليه » أو أثنتين أو ثلاثا فى المثلث ويرمى كل منا بوحدة الى الخط فمن كانت « بليته » أقرب اليه كان له الابتداء من الخط فى اتخاذ ما فى المثلث هدفا له لخرجه منه وربيحه • وهكذا • كذلك كنا نلعب واذا بالساحر بيننا ، ولم يقل لنا أحد أنه هو ، ولا كنا رأيناه من قبل ولكن عيشه الحادتين الغائرتين دلتانا عليه ، ولحيته الكثة الهايجة وشت به والحيزرانة التى فى يمينه نمت عنه ، وكان فى ما عدا ذلك كسائر خلق الله • على قدميه - وهما أول ما رأينا ونحن مثنون ننظر الى البليات المتصادمة - « بلغة » عتيقة كانت فى أيام جدتها صفراء ثم ازداد لونها على الايام لاشحوبا - كما هو حالنا نحن بنى آدم - بل قوة وعنفا وامتلاء ، فانقلبتم حمراء ثم أخذت حوافيها ولا سيما حيث تحف بالاصابع - تسود وفوق ذلك ساقان عاريتان عليهما غابة كثيفة من الشعر ومما يلى الركبتين خيوط وهلاهل من نسيج قميص أزرق باهت مشدود الى وسطه بحزام من الليف فوقه عب منتفخ لم نشك - ونحن ننظر اليه - أن فيه غلاما مخبوا ، فارتفعنا بعيوننا عنه بسرعة فلقيننا عينيه بنظرة سمرتنا حيث كنا فتراخت أعصابنا فتفلمت « البلى » من بين أصابعنا الى الارض ولم يعد بيننا واحد ربح وآخر خسر •

هو الساحر بلا ريب • لا الحاوى • كلا ، فقد كنا نعرف الحواة ولا نرهبهم ولا ننقى أن نعابثهم ، أما هذا فخلق آخر وطراز جديد ، نظرته وحدها كفيلة بمسختنا حجارة أو عصافير • وخيزرانتها لها - وهو يحركها على الارض - صدى فى رؤوسنا • ولحيته خيل الينا

أنها غريان حول وجهه فارتعنا ولنا العذر ولو رأيته الآن مرة
أخرى لكان الأرجح أن ارتاع للذكرى على الأقل ، ووقفنا جامدين .
ولم يخط إلينا ولا رفع عينه عنا ولا كف عن هز خيزرانتة هـزا
رفيقا كأنما يستعين بذلك على التفكير فيما يصنع بنا والى أى حيوان
أو طير أو جماد يقلبنا ..

ولبئنا كذلك دهرا كاملا ثم غلبنا الحزن على أنفسنا فاستهلت
عيوننا وارتفعت إليها أيدينا الفارغة وانثنت رؤسنا التى كظها هذا
الساحر بالاهوال التى اعترزم أن يذيقنا إياها .

ومن حسن حظى أنى أفقت قبل سوى . لا لائى كنت أقوى من
غيرى أو أقل استعدادا للتأثر بالسحر ، بل لان الحذاء كان ضيقا
جدا ، وكانت الحركة تعيننى على احتمال ضغطه ، واللعب يساعد على
الذهول عنه ، ولكن الوقفة لطولها جعلتنى أحس كأن مسامير محمية
تغرز فى أصابعى . فلم يسعنى من فرط الألم إلا أن أنصرف الى
أوجاعى ، ولم يخف على الساحر أن شيئا يوشك أن يرقينى ،
ورأنى أتلفت الى ناحية بيت فردنى الى سحره بتوجيه الكلام الى .
فقال ما معناه « هذا بيتك » مشيرا بالخيزرانة .

فدهشت من هذه القدرة على معرفة بيتى ، ولم يكن رفقاءى أقل
دهشة منى على ما يظهر فقد انطلقت ألسنتهم وانحلت عقدها فراحوا
يتلاغطون فيما بينهم بكلام لم يكن بالى مجعولا اليه .

وبعد هنيهة قال الساحر « اسمع يا إبراهيم ، فانى أظن هذا
اسمك ، اذا لم تجئنى حالا بنصف ريال « سخطتك » عقابا لك على
ما فعلت وذلك بعد خمس دقائق فانت الجانى على نفسك »

فصعقت . وماذا كنت تنتظر ؟ لقد عرف اسمى أيضا بعد أن
عرف بيتى . فلا بد من أداء الفداء والا ..

وبينما كنت أفكر فى نصف الريال من أين أجيء به وأنا أسمع
به ولا أراه سمعت صبيبا يقول له « أتستطيع أن تمسخه قردا ؟
نصف ساعة فقط ! لنرى ولنلعب ثم تعيده .. نعطيك كل ما معنا »

فلم أسمع الباقي لأنى انطلقت أعلو الى البيت وقلت لأمى ونصف ريال . بسرعة . »

فقلت : وهى لا تكاد تصدق ما تسمع « نصف ريال ؟ اجننت؟ مالك ؟ »

قلت : وأنا أقبلها بعد كل كلمة « اصنعى معروفا . بسرعة . اتحبين أن ترى ابنك قردا ؟ اسرعى »

وأحسست أن الدقائق الخمس كادت تنقضى ، فارتددت عنها وجعلت أمسح وجهى بيدي لا أتخقق من أنه لم يلحقه تغيير ، وأتأمل ثيابى وأنظر ورائى ، ومن بين رجلى ، لأرى هل نبت الذيل ؟ ثم تنهدت وعدت الى التوسل ، والرجاء ، فقامت عنى وهى تقول : « ماذا جرى للولد يا محمد ؟ »

فتعلقت بشوبها وصحبت بها « لا . لا . ساصير قردا بلا شك . » وقعدت على الارض وذهبت أبكى وأندب حظى ، وجذبنى محمد - وكان خادما كهلا نشأ وتربى وتزوج فى بيتنا ، ولكنه قوى حازم - وخرج بى الى الطريق ، وأنا أحاول التخلص عنها . فأقعد على الارض فيسحبنى ولا ييسالى صراخى ، ولا يكثرث للالو حال التى زانت ثوبى حتى صرنا عند الصبيان فأخلى سبيلى ووقف ينظر - وأنا من ورائه - الى الساحر . على بضعة أمتار منه . وفى هذه اللحظة فقط رأيت أن الساحر ليس وحده وان له رفيقا أقصر منه وأرث ثيابا وأصغر سنا ، وكان محمد يعرى ذراعيه ويطوى كفه ، وسمعت الساحر يقول لزميله « أترى النظرة السوداء التى فى عينيه ؟ »

فقال زميله « رأيتها من قبل أن يصل . التفت اليها . احتياطا ! »

وقال الساحر وهو يتنحى لرفيقه « اذن الكمه . اضربه قبل أن يضربنى »

فرفعت عينى الى محمد فى دهشة فاذا به ماض فى طى كميهِ غير

عابىء بشىء ، وسمعت الزميل يقول « فلننتظر مرور العسكرى .
فلست أحب أن أريق دمه »

فقال الساحر وعينه على محمد « سأشهد لك . فاضربه ومتى
القيته على الارض فسأركله برجلي فى وجهه »

وفى هذه اللحظة التفت محمد الينا وقال « ابعادوا قليلا .
لاتدنوا منا . أو ادخلوا البيوت ، وأطلوا من النوافذ اذا شئتم .
هذا اسلم لكم .. والآن .. »

فقال الزميل « ولكنى قلت انا سننتظر العسكرى ! قلت هذا
الآن ! اليس كذلك ؟ »

فقال الساحر « لا موجب لهذا »

فقال محمد وهو يخطو « كذلك لا موجب لبقائك على ظهرالارض
يا نصاب »

فصاح الساحر لزميله « لماذا لا تضربه ؟ سيسبقك وتفوتنا
الفرصة »

فقال الزميل « دعه يبدأ . فانه بذلك يكون المعتدى »
ولكن الساحر لم يقنعه هذا المنطق وأيقن أن لا نجاة له فأطلقها
صرخة زحمت النوافذ بالرؤس المطلة ، واختلط الحابل بالنابل
كما يقول المتل ، وهوى الساحر الى الارض بلكمة فى صدره ،
وتلاه زميله فتداعى الى جانبه من تلقاء نفسه ومن غير أن تمسه يد،
وزايلنا الفزع وذهب الروح واطمانت نفوسنا ، فدنونا وسمعنا
الساحر يقول - وهو يتكلم بسرعة - كأنما يخشى أن تفوته فرصة
أو لا تنسح لكل ما يريد الافضاء به - انه لا يخاف الموت ، بل هو
يتمناه ويرحب به ، وقد كان دائما يدعو الله فى عقب الصلوات
الخمس بأن يدنى أجله ويلحقه بالابرار من آبائه وأجداده ، ولكنه
يمز عليه أن يحرم الدنيا مزية وجوده ، ويؤكد أن مهمته فى الحياة
لم تنته ، وان صحته ليست على ما يرام ، وان زميله اذا لم يصدق
رأس المعتدى بحجر فانه سيبعد احجامه هذا وتقصيره اهانة
شخصية له .

وكان صاحبه قد نهض ووقف على عتبة باب على بعد مطمئن من حومة المعركة التي لم تمدد فيها الا يد واحدة ، وكان لا يكف عن اصدار الاوامر الينا جميعا أن نقف في مكاننا وأن لا نتحرك يمنة ولا يسرة والا كنا بلهاء مغفلين . ويدعوننا بصوت عال أن يقبض بعضنا على بعض حتى يمر العسكري والا كنا مستحقين للحكم علينا بالاشغال الشاقة ، وأحطنا نحن الصبيان - بلا خوف - بالمهرجين فما كانا غير ذلك وإن لم نلفظ الى حقيقتيهما في أول الحكاية . وقضيناها ساعتين أسعد ما مر بنا في حياتنا ، نضحك ونمسك جنوبنا من الالم ونتلوى ونقع على الارض ويتراعى بعضنا على بعض ونتعانق والنموج مسجلة على خلودنا من فرط السرور والضحك .

كيف كدت أقتله

اظننى يومئذ فى العاشرة أو الحادية عشرة وكان بيتنا فى أحد تلك الاحياء الوطنية التى يتجاور فيها الغنى والفقير . وكان البيت عجيب الطراز ، له بوابة ضخمة تصلح أن تكون لقلعة ، ومع ذلك لا تغلق فى ليل أو نهار ، ثم مدخل طويل ضيق على جانبيه الغرف وهى أبدا موصدة الابواب وان كانت أفرغ من فؤاد أم موسى - أعنى أنه ليس فيها شيء سوى جدرانها المدهونة ، وبين هذه الغرف اصطبل لبغلة الشيخ - أخو جدتى - وحمار ابنه وهذا المدخل يقضى الى فناء واسع فى ناحية منه مصلى وميضاء جافة - أعنى ليس فيها ماء - وقبالة المصلى ما كان يسمى فى ذلك العهد « التختبوش » وهو يرتفع عن الارض درجة ، أو درجتين وتحف به المقاعد والكراسى ويجلس فيه الشيخ وضيوفه فى الصيف ، فاذا كان الشتاء هجروه الى المنطرة وبابها على التختبوش .

وكان الوقت صيفا والمدارس معطلة ولا عمل لنا نحن الصبيان الا اللعب فى الحارة . لكننى لم أكن ألعب مثلهم النهار كله فقد كان أهلى اذا عطلت المدارس فى الصيف يبعثون بى الى كتاب فى الازهر لاحفظ القرآن ، فلم يكن يتاح لى أن ألعب الا بعد العصر ، فاتفق يوما ان كنت عائدا من الكتاب ، فلما اقتربت من البيت ألفت اثنين من الصبيان جيرانى يشتجران ، فوقفت أنظر ثم ذهبت استحثهما كما يفعل سوى من الغلمان المحيطين بهما وأصيح كما يصيحون « الديك يتف فى وش الفرخة » حتى حميت الوقدة وصارت المعركة حارة . وأعدى غيرهما بحماسة الموقف فتشابكوا وعم التضارب والتلاكم . كنت أنا بمعزل عن ذلك ، أنظر وأصفق وأحدث كل ما يدخل فى مقدور حنجرتى الصغيرة من الضوضاء ، ولكننى لا أندفع الى الاشتراك فى الموقعة ، وأخيرا خارت الايدى وتخاذلت الارجل وفترت الحماسة بعد أن تمزقت الثياب ونزفت الانوف ، وتحاجز الابطال ولم يبق سوى اثنين لم تبرد حرارتهما ولم تكل أيديهما ،

فعالجت التفريق بينهما كما عالجت التحريض من قبل ، وأقبلت عليها
أريد أن أفصلهما ، واني لا حاول ذلك واذا باتفى تصيبه لكمة غير
مقصودة ، ولكنها أدارت رأسي فلم أعد أعى . ما أفصل فاهويت على
أحدهما بيدي ورجلي بغير احتياط ، أو حذر ، وكانت تلك مزيتي في
معاركنا الصببانية ، فبينما كان غيرى يتقى أن يصيب عين خصمه
أو أذنه أو غير ذلك من المواضع الحساسة ، كنت أنا لا أتقى شيئا
من ذلك ، ولا أبالي على أى موضع تقع يدي أو رجلي فكانت ضربة
أو اثنتان تكفيان لالغاء الخصم الى الفرار وان كان أقوى وأمتن منى
أسرا .

ويظهر أنى أصبت المسكين فى موضع حساس حين رفسته فهوى
الى الارض وانطرح عليها كالجثة ، وقيل مات ، فجمد الدم فى
عروقي واستولى على الفزع فذهبت أعود الى البيت ، ومن الغريب انى
لم أشعر بشيء من العطف عليه أو الرثاء له فقد كان كل ما يكظ
رأسى وينور فى نفسى انى لا محالة مأخوذه وأن البوليس لا شك
قايض على فملقى بى فى الحبس ، فماذا أصنع - كيف أتقى الحبس ؟ -
تسللت الى ما يسمى فى بيوتنا القديمة « الخزنة » وهى غرفة ضيقة
مظلمة يكدس فيها مالا يحتاج اليه من أثاث البيت وأمتعته من مثل
الصناديق والمراتب والمخدات وما الى ذلك . كان فيها صندوقان
عليهما المراتب مسواة الى قريب من السقف ، فصعدت الى ظهرها
وسترت نفسى بالمخدات ورحت أنتظر الشرطة الذين سيجيئون للقبض
على ، وأنتظر المعجزة التى ستنقذنى منهم . وكنت أبكى وأنتفض
من الخوف ، غير أن الامل مع ذلك كان شائعا فى نفسى ، مألسا
لشعابها وكنت كل بضعة دقائق أرفع رأسى وأكف عن البكاء ،
وأنظر الى الدموع التى بللت الفراش تحت خدى ، وأتسمع هنيهة
ثم أقلب المخدة وأضع رأسى .

ثم كان ما خفت أن يكون - شرق فناء البيت بالرجال والصبية
وكثر اللفظ وعظمت الضجة ووصلت الضوضاء الى ، وان كنت قد
بقيت عاجزا عن تبين الالفاظ وفهم ما يقال . سمعت أمى وجدتى
تروحان وتجيئان وهما تناديان وتسلان عنى ، ولا تجدان أحدا
يرشدهما الى مخبئى أو يفضى اليهما بنبا عنى . وكنت أسمع

اسمى فأتجمع وأحبس أنفاسى ، وصارت أذناى مرهفتين لكل صوت . وكنت أحاول أن أغمض عيني فلا أستريح ، فأفتحهما وأرفع رأسى قليلا . أفعل ذلك بالغريزة ولا أدري لماذا يكون فتح العين أعون على حدة السمع . ثم خفتت الاصوات ، وسكنت الضجة وإذا بأمى داخلة تنجسس المراتب ، وتلس يدها فى الاركان وتهيب بى أن أنزل وألا أخاف فقد انتهى الامر ، ولم يبق ما أخشاه ، وأنا قابع لا أتحرك ولا أجيب ولا أطمئن كان من الممكن أن تكون أمى الباء على مع الشرطة .

فخرجت ولكنها لم تغب سوى دقيقة أو نحو ذلك ثم عادت فجأة ونادتنى بغتة فخافتنى الارادة ، وأذهلتنى المباغتة عن الحرص فرددت فضحكت وجذبتنى إليها وقالت « تعال يا مجنون . عسى أن تهذبك هذه الحادثة فقد كاد الولد يموت ، وكان أبوه متشددا مصرا على سوقك الى البوليس ولكنه لما عرف من أبوك ومن جدك لان وفاء الى الرضى ، فقد كان جدك شيخه فاذهب واعتذر له فانه يريد أن يراك »

وقد ترددت فى الذهاب مخافة أن تكون هذه مكيدة مدبرة للمقبض على ، غير أن أمى ظلت تلح وتداورنى حتى اقتنعت ، وانحدرت الى التخبوش .

والدهش بعد ذلك من أطوار الطفولة انى دخلت على الرجلس أبتسم ! والواقع الذى أذكره انى كنت أحاول وأنا فى طريقى اليه أن أعيس واتكلف مظاهر الحزن أو الاسف أو الخجل ولكن محاولاتى هذه كانت تزيد ميلى الى الضحك .

وتلقانى الرجل - وكان شيخا وقورا - هاشا ، باشا ، واخذنى بين ذراعيه وقبلنى ومضى يحدث من معه عن جدى ويقول : « لايسعنى غير الصفح ، فان من علمنى حرفا صرت له عبدا ، وقد كان جلد شيخى وأستاذى رحمة الله عليه . الفاتحة على روحه »

وبينما كانوا هم يقرأون الفاتحة - دونى - أدت عيني فرايت الغلام المسكين الذى كدت أقتله ، فمضيت اليه وأقبلت عليه أعانقه ولم يكن هو دون أبيه مروءة وكرم نفس

الحارة اللعينة

كنت فى الثانية عشر أو الثالثة عشرة من عمرى الذى لم أكن أقدر أن يطول - على خلاف ما يحسه الشاب عادة من الثقة بأن الاجسل مديد ، والموت بعيد - بل هو لا يكاد يخطر بالبال ، أعنى الموت ، حتى يقال أنه يبدو للمرء فى صباه بعيدا ، والمرء فى شبابه يكون أشبه بالمصعد فى جبل لا يرى ما راءه من الناحية الاخرى ، ولا يفكر الا فيما هو فيه من مشاغل الاصعاد ومتاعب التوقل ، ولكنى كنت على خلاف ذلك أعتقد أنى كالزوبعة - والزوابع قصيرة الأعمار ، لا تكاد تنور حتى تستنفد مجهودها وتذهب من حيث جاءت - غير أن هذا الامل خاب كما خاب كثير غيره - ان صحح أن يسمى اليأس من الحياة أملا

وكان مسكننا يومئذ بيتا من البيوت التى يدعونها «بيوت الغز» ولا علم لى بهؤلاء الغز ، ولا رأيت منهم أحدا فى حياتى ، وكنت فى حدائتى أخجل أن يقال ان بيتنا من بيوت الغز لتوهى أن الغز لا شك أناس معيبو السيرة ، فلما كبرت عرفت أن المراد المالكىك أو من هم فى حكمهم ممن كانوا هم السادة فى وقت من الاوقات ، ويظهر أن بيتنا كان لرجل دائم الوجل لا يزال يتوقع العسودان ويعذره ويحب أن يتقى مفاجاته ، فقد كانت بوابته كبوابة المتولى - كبيرة هائلة تغطيها المسامير الضخمة التى يعدل رأس الواحد منها رأس طفل وكان له رتاج غليظ يدخل فى جدار عظيم السمك ، أما المدخل مما يلى البوابة فطريق ملتوى ينعطف يمنة ويسره ، وفيه مخابىء ومكامن تتصل بها دهاليز خفية ، والمرء لا يستطيع فى النهار أن يبصر كفه من شدة الظلمة ، وكنا نضع مصباحا ولكنه لم يكن يضى شيئا ، بل كان كل ماله من النفع هو أن يرينا شدة السواد ويزيده وقعا فى النفوس .

وفى الصحن الواسع شجرة جميز عتيقة عظيمة كثيفة الغصون

نسد النوافذ وتمنع النسيم أن يروح عن نفوسنا في الصيف ، وكنا نعرف أن الجو جميل والهواء عليل من خشخشة الاوراق لا من مصافحة الهواء لوجوهنا ، وقد يكون اليوم حارا والهواء في الغرف راكد ونحن نكاد نخنق ، ثم نسمع صوت الاوراق فيلتفت بعضنا الى بعض ونبتسم ونتشهد ونقول « الله .. » لقد رق الهواء وطاب الجو » - ونمسح عرقنا مع ذلك .

وكثيرا ما كنت أستغنى - في نزولي - عن السلم ، فأهبط من النافذة الى الارض مباشرة بلا حاجة الى لف السلالم ودورانها ، ومن غير أن أتعرض للتدحرج عليها والتكسر على حجارتها ، وكانت طريقي هذه الجميزة العظيمة الذاهبة في الهواء الى السطح ، فكنت أقف على حافة النافذة بعد رفع زجاجها وأتناول فرعاً غليظاً وأتعلق به وأتوكل على الله ، وربما طاب لي المقام بين الاغصان فأقعد كالقرد وأجمع بكلتا يدي وأرمي في فمي ، ياما أكثر ما تصورت أني عصفور غرد وان كان حشو فمي الجميز ، فانطلق أغني ، ولا شك أن غنائي كان جميلا ، فقد سمعت أن الجميز في الشدقين يجعل الصوت حلوا . ولو وكل الامر لاختياري لآثرت السكنى في هذه الشجرة ، ولقضيت حياتي بين أكل الجميز والغناء ، وهذا على كل حال خير من قضائها - كما فعل الفارابي - بين زجاجتين من خمر وحبر ، ولكني كنت لا البت أن أكف عن التغريد وأنقطع - مرغما - عن الشدو ، لاني كنت أشرق - لا أدري لماذا - بل أنا أدري ، فقد كان أخي - وهو أصغر مني ، أو على الاصح « كان » أصغر مني ثم صار هو الاكبر علي ما يدعي - يحسدني وينفس على حلاوة صوتي ، وكان ربما ذهب يبكي الى أمي ، وكان الحبيث يزعم أنه انما يبكي خوفا على أن أقع فأموت ، فتأمل !! فكانت أمي تجيء الى النافذة وتأمرنى أن أنزل حالا ، والغريب أني كنت لا أخاف النزول - حالا - الا حين تكون مظلة من النافذة ، فكنت أبلغ ما في فمي - أزدرده بلا مضغ - وأدس الباقي في جيبي ثم أعلن اليها اني خائف ، اذا نزلت ، أن تلق عثقي ، فتسأل

« وما العمل ؟ »

فأقول مقترحاً : « يحسن أن تأمرى الخادم أن يسند السلم الكبير الى الشجرة لانهدر عليه »
فتحدثنى أولاً بنظرها ، ثم تذهب ، وأتوهمها فرصة ، فآكر على الجميز ، وإذا بالماء ينصب على رأسى ويغرق ثيابى . وإذا بكفى تعلان بين الغصون ، وبعد ثوان أكون على الارض من غير سوء الا هذا البلبل - وهو فى الصيف مستحب -

وكانت غرف البيت قاعات قد تصلح للرقص والمحاضرات أو سباق الخيل ، ولكنى لا أراها صالحة للسكنى وبخاصة فى الشتاء ، وكانت نوافذها المطلّة على الطريق من النوع الذى يسمى - المشربيات - وهى طنف أو كنة أو سقيفة أو روشن مشرف خارج من حائط الدار الى الطريق - مساحة الواحدة من هذه المشربيات تسع فيلا عظيما ، وسبب هذه السعة أنها بارزة من الحائط فى الطريق ، فإذا عرفت أن للبيوت المقابلة مشربيات أيضا وأن الطريق حارة ضيقة ، وأن هذه المشربيات من الجانبين تتدانى وتكاد تتلاصق ، فهل فى وسعك أن تصدقنى حين أقول لك أن الحارة كانت فى الحقيقة أشبه بسرداب أو نفق تحت الارض .

وكنا نضع قلال الماء على حوافى هذه المشربيات لتبترد ، وكنت أحيانا ألقىها فارغة فأمد يدى الى مشربية الجار وأشرب ، ثم أفرغ قلله فى قللى ، فكان الجيران يغيرون القلل كل يوم ، أو على الاصح يشترون قللا جديدة غير هذه التى لا يبقى فيها ماء ظنا منهم أن فيها ثقوبا ، ثم عرفوا الحقيقة - اتفاقا - أو على الاصح بصروا بى أصعب قللهم فى قللنا فباغتونى مرة فارتبكت وأردت أن أسرع فأرد قللتهم الى مكانها ، ولكنى اضطربت فسقطت القلّة من بين المشربيتين على عمامة خالى !

- ولا أحتاج أن أقول انى عدوت الى سريرى وتناومت

* * *

والحارة كما أسلفت ضيقة ، ولكن هذا الوصف لا يغنى فى تعريف القراء بها ، لذلك أحب أن أزيدهم بها معرفة فأذكر انى فى ثلاث سنوات طويلة لم أبصر قط بائعا متجولا يدخل هذه الحارة، ودع الحمير وغيرها من دواب الحمل فقد كانت اذا مرت بالحارة

تدبير وجوها الى الناحية الاخرى ، فتالله ما كان أحلاها من سنوات
 حادثات لم يزعجنا فيها أو يطر النوم من جفوننا بائع أو صائح أو
 ناهق ، ثم أنها فضلا عن هذا كانت حارة تترفع عن أن تكون ميدانا
 للعب الاطفال ، وتتعهد أن تكون عوناً لبائهم على احسان تربيتهم
 فكل لعبهم فى صحون بيوتهم . ثم أنها كانت تخيفهم وتعبس لهم
 فتسود الدنيا فى عيونهم ويهربون منها ويتقون أن يخرجوا اليها فى
 الليل . واذا أرغموا على الخروج فى نهار الناس مشوا على حذر ،
 وسايروا الحائط ، وقلوبهم تجف ، ومفاصلهم تتخلخل ، وركبهم
 تضطك ، حتى اذا بلغوا رأسها وضعوا ذبول أثوابهم بين أstenانهم
 وخرجوا منها كالمدفع ، فتزه الحارة رأسها وتقول : « حسن ! وهل
 نويتم ألا ترجعوا حتى تفرحوا بالخروج ؟ سترون ماذا أصنع بكم
 حين تعودون . فصبرا قليلا ، أما والله لاؤدبنكم غير هذا الادب
 يا ملاعين » .

وكان الواحد منا حين يؤوب ، يقف بباب الحارة والعرق
 يتصبب ، والرعب باد فى معارف وجهه ، فيظل يتمسح بالجدار
 مستعظفا وهي لا يدركها عليه عطف ولا تأخذها به رحمة ، فيقف
 منتظرا وقد شاع اليأس والرعب فى نفسه ، حتى يدخل الحارة رجل
 فيفرح ويدخل معه ويتحكك به ويتحبب اليه ويتطفل بالحديث
 عليه ، حتى اذا بلغ باب بيته قطع الحديث فجأة ودفع الباب بكل
 ما فيه من قوة ، ثم رده وراءه بعنف مخافة أن تتعقبه الحارة ، فانها
 خبيثة ماكرة ، لا أمان لها ، ولا اطمئنان اليها

ولم تكن فى رمضان أحسن حالا ، أو أقل خوفا من هذه الحارة
 القوية ، وكان صبيان الحارات الاخرى يكتفى الواحدة منهم بمصباح
 واحد . أما نحن فلم تكن نقنع بأقل من مصباحين كبيرين لكل منا . ولم
 تكن أطفالا على الحقيقة . ولكننى أسلفت أنها حارة قوية يتضاءل أمامها
 المرء حتى يرتد جنينا ، فكنا اذا أردنا الخروج نتنادى أولا من
 المشريبات ثم نوقد المصابيح ونقف وراء الابواب مستعدين للبروز
 والهجوم ، حتى اذا ستمعنا الصغير المتفق عليه ، فتحنا الابواب مرة
 واحدة ، وخرجنا متماسكين ، والمصابيح مملودة بها أذرعنا ،
 كالحراب نشق بها كبد الحارة - ولكن هيهات . . هيهات . . فما

كانت أقل منا استعدادا لهذا الهجوم فكانت ترسل على مصايحنا تيارا من هوائها البارد فتتنظف ، فنروح نحن نتخبط ونتصادم ، فيتحطم زجاج المصابيح ، ويهوى بعضها الى الارض ، ويوطأ بالاقدام واذا بالجيش المتساند قد انقلب فرقا وشيعا متضاربة ، والحارة اللعينة تضحك منا وتطلق فى آذاننا صفير السخريه والتهكم .

وما زلت الى اليوم أذكر كيف خرجت مرة مع الخارجيين فى رمضان ثم تركتهم ومضيت لشأنى ، فلما عدت كان الليل قد تنصف فوقفت على باب الحارة مترددا - أدخل ؟ - ومن أين أجيء بالشجاعة الكافية لاقتحام هذه الحارة ؟ واذا لم أدخل فماذا عسى أن أصنع ؟ أذهب الى بيت عمى ؟ - ولكن بيتها فى شبرا والحارة فى درب الجماميز . أم أقصد الى بيت جدى . ولكن هذا أبعد . . . فما العمل ؟ . . .

وقفت أتلكأ برهة وأفكر فى حيلة أغافل بها الحارة فلم يفتح الله على بشىء ، وضاق صدري وكدت أياس ، واذا بى الملح الخفير مقبلا وفى يمينه النبوت المألوف يدق به الارض ويتنحج ، فقلت يا فرج الله ! وانبسطت أسارير وجهى ولمعت عينائى - أو لا بد أن يكون هذا قد حدث وإن كنت لم أر وجهى - ودنوت منه ، وعلى فمى ابتسامة عريضة وتصنيت فى هذه اللحظة لو أن لى شاربيا طويلا لافتلته وأنا واقف أمامه لاشعره انى ند له ، وحييته برقة فقال بخشونة :

« انت مين ؟ »

فقلت فى سرى « سبىء الادب » غير أنى ربات بنفسى أن أنزل الى هذا المستوى وقلت ببساطة

« أنا »

فكانى زدته بنفسى جهالة فعاد يقول

« انت مين ؟ »

فقلت شارحا مستغربا « ما قلت لك أنا »

ويظهر أن هذا الشرح أقنعه فقد انتقل الى سؤال آخر

« واجف هنا ليه »

فقلت معترضا منكرا

« مش واقف »
 فماد يسأل ملحا « امال بتعمل ايه دولوغت ؟ »
 فقلت « ولا حاجة »
 فلم يقنعه هذا النفي الشامل وقال « ولا حاجة ازاي يعنى ؟ انت
 منين ؟ »
 قلت « من هنا »
 قال « هنا فين ؟ »
 فحمدت الله وقلت « تحب تشوف بيتنا ؟ » تفضل ان كنت مش
 مصدق »
 وظننت انه لا محالة مجيبى الى ما اقترحت ، ولكن السخيف اكتفى
 بان يقول :

* * *

« طيب روح .. ولا تبجاش تتلكع فى السكك بالليل »
 وادار وجهه ومضى عنى كأنما كان كل بغيتى أن وجود على بنصيحة
 عدت الى الحارة لجر ساقى . وقد نسيت أن أقول ان فى الشارع
 مصباح نور لشركة الاضاءة قريبا من مدخل الحارة ، وهو يرسل
 نوره فيها منحرفا ولا يضىء الا خطوات ، فلما بلغت الحارة رأيت
 رجلا قادما فدخلتها ووقفت فى النور ، حتى مر فبرزت مرة أخرى ،
 وصنعت هذا مرات حتى ملكت فاستخرت الله وقلت أعدو الى الباب
 ولكن الباب قد يكون موصدا فماذا أصنع ؟ وبأى شيء أدق الباب
 حتى يسمعنى من فى البيت ويفتحوا لى ؟ فعدت الى الشارع لا فتقى
 حجرا ، ولكن الخوف ظل يساورنى فقد يطول دقى ووقوفى بالباب ،
 ولم يكن خوفى أن يظهر لى عفريت ، كلا فما أخاف العفاريت ، وانى
 لاحبهم ، وقد حاولت مرات أن أخرج واحدا منهم أو « أحضره » فلم
 أوفق مع الاسف ، وعلى أن العفاريت - حتى لو كنت أخافهم - لا تظهر
 فى رمضان ، وانما كان خوفى من الحارة ، وأظن القارىء قد
 عذرنى بعد الذى قصصت عليه من صفاتها .

ولم يكن بد من الدخول ، فوقفت هنيهة فى النور أقرأ الفاتحة
 ثم تلوت آية الكرسي ، ثم قرأت آية أخرى كنت أسمع أنها تقى
 السوء ، وتجعل المرء فى أمان من المخاوف ، وبعد أن فرغت من هذا

كله وضعت الخطء - أقطع طول الحارة عدوا بلا تريث ، حتى اذا بلغت الباب أهويت على صدره بالحجر ولا أزال أدو وأنادى بأعلى صوتى - أنادى اسمى انا فما يليق أن أنادى من فى البيت من النسوة حتى يستيقظ أهلى والجيران أيضا ، ولا بأس من الدق على الباب المواجه لبيتنا كذلك فان مثل هذا الخطأ مفتقر فى الظلام ، وحتى اذا غضب الجار واحتج وذهب يشتم ويلعن ، فان هذا يكون خير لان صوته خليق أن يؤنسنى فى وحدتى ، وحذا لو استطعت أن استدرج الجار حتى ينزل الى الحارة ولو أدى ذلك الى ضربى .
والباقى - أعنى باقى الخطء - مفهوم يسهل تخمينه فلا داعى للافاضة فى بيانه ، وصل هو الا أن أدخل البيت كالقنبلة وأصعد السلم كل ثلاث درجات أو أربع دفعة واحدة ؟

وسرتنى هذه الخطء بالحكمة التدبير فدرت أواجه الظلام وهممت بالعدو واذا بى أصطدم بجسم لين ، واذا بذراعين بضتين رخصتين تنتفان بى ، وكانت هذه مباغتة لم يجر لها فى بالى حساب ، فمما قدرت قط أن ألقى مخلوقا كائنا من كان ، ولو كنت أتوقع أن أقابل انسانا لما عرانى خوف ولغلب الحياء .

ودار رأسى وفقدت وعيى وانكرت هذه الطراوة التى أحسها فى الجسم الذى يحتضننى ، وأذكر أنى رفعت عيني فأبصرت مثل برىق الذهب على جيد اتلع ، وكانت المرأة ضخمة وأنا كالعصفور بين ذراعيها، وهى تشد على وأنا أدفعها - أو أحاول أن أدفعها - أمامى وهى تتراجع خطوة خطوة ولا تطلق سراحى ولا تخلى سبيلى ، وفمى وأنفى بين ندييها وأنا أكاد أختنق ، وهى لا تتكلم ولا تقول شيئا ولا تهمس حتى بلفظ ، ووجهى مدفون فى صدرها ، ولا أسمع الا صوت الخللخال فى رجليها وهى تخطو متراجعة شيئا فشيئا وعلى مهل جدا بلا اكتراث لحالى ، وأنا لا أفكر الا فى الخلاص ، ولست أدرى الى هذه الساعة لماذا لم يخطر لى الا هذا .. لماذا لم يجر ببالى مثلا أن أكف عن محاولة التملص لاعرف من هى .. وماذا تبغى .. ولماذا فاجاتنى على هذا النحو السخيف .. وهل كانت تنتظرنى أم تنتظر سواى وهل وقعت بين يديها خطأ أو كنت المقصود بالذات .. كل هذا وما اليه لم يدر منه شيء فى رأسى فكان همى

كله أن أنجو ، ونسيت خوفاً من الحارة واستهوا إلى السير فيها ،
ونسيت الحجر بل لا أعرف ماذا صنع الله به ، ولا كيف أو أين وقع
منى ، وذهلت عن الجار الذى كنت أنوى أن أزعه وأطير نومه
وأغريه بشتى بل حتى بضربى ، ولم يبق إلا هذه المرأة العجيبة
التي لا أريد أن تظل تطوقنى بكرهى والتي أكاد أختنق على صدرها

ولم تزل تتراجع بى والخلخال يؤنسنا بصوته حتى بلغنا الباب
فحلت وثاقى - أعنى أطلقتنى من قيد ذراعيها - فوقفت أتنفس ، ثم
نظرت إلى ناحيتها فلم أر شيئاً . فمددت ذراعى فى الهواء ودرت
بهما فلم تلمس كفى شيئاً . فتقدمت خطوات فلم أصطدم إلا بحائط
فعدت أبحث فلم يجدنى البحث ، فوقفت ساكناً أسمع لعل صوت
الخلخال ينم عليها ويشى بمكانها ، ولكنى لم أسمع سوى أنفاسى ،
فاستندت إلى الحائط مذهولاً ، وحاولت أن أفكر فيما وقع لى ، وقد
شغلت عن الحارة ومخاوفها ، فأعيانى أن أحل لغز مباغتتها لى ثم
اختفائها وتسربها فى الهواء .

ورأيت نفسى قد تعبت على غير جدوى فرحت أجس الأرض بقدمى
حتى لمست حجراً فتناولته واتجهت إلى الباب ورفعت يدى وأهويت
عليه بكل قوتى وإذا بى أقع على وجهى

ذلك أن الباب كان مفتوحاً فلم يكن هناك شيء يتلقى دقتى فذهبت
فى الهواء وأنا وراءها .

ولا أطيل على القارىء - وما الحاجة إلى الإطالة ؟ - أفقت بعد ما لا
أدرى كم من الزمن ، ونهضت بأنف دام ، ووجه وارم ، وعظام
مرضوضة ، ولم أصعد السلم كل ثلاث درجات معاً بل درجة درجة ،
ويدى على الحاجز وكفى الأخرى تتحسس وجهى وتمسح ما تجمد
عليه من الدم

فهى حارة لعينة كما ترى .

فى جهالة الشباب

هى ليلة الاحتفال الذى تقيمه الجمعية الخيرية الاسلامية فى كل عام . وكان يومئذ يوما عظيما نفرح به نحن الشباب ونسابق من أجله الى حديقة الازبكية ، ونتراحم عليها ونطوف حولها نمتع العين بمنظر الشموع الموقدة فى مصابيحها الزجاجية الملونة ، والسعيد من تكون بيده تذكرة يدخل بها الحديقة ، ويشهد حفل زينتها وما فيها من ألعاب وملاهي . وربما اغتنم « الاشقياء » فرصة هذه الليلة ، فذهبوا يركبون بشبابهم ما يركب الناس ، وهم فى أمان من المخاوف وأهلهم يحسبونهم فى « الحديقة »

وقد اختلسنا ليلتها مرة وأغرانا شيطان الشباب فقلنا نفعلها والسلام ، ثم نصبح تائبين مستغفرين ، ألسنا مثال الاستقامة والادب الحسن ؟ نخجل أن نغشى القهوات ، وإذا شاقنا الدخان واشتهينا أن نقلد الرجال ، اكتتبنا بالملايم وجمعناه قرشا نبتاع به علبة فيها عشر سجائر نقتسمها بالحق ونبغى لنا مكانا غير مطروق ندخلها فيه - كما يفعل الحشاشون الآن - حتى اذا صارت أعقابها على الارض ، ذهبنا نمحو أثر التدخين من أصابعنا وأفواهنا ، فاما أيدينا فنغسلها ونفركها ونكاد نسلخ جلدها ، وأما أفواهنا فنعالجها بالقرنفل أو « السنسن » والاول أفضل ، لانه أرخص ، ثم يقبل بعضنا على بعض فهذا يفتح فمه على آخره ، وذلك يمد أنفه ليشم به ، حتى نطمئن . . . وهيئات ، فما كنا نجروء مع ذلك كله أن نخاطب أهلنا عن قرب لئلا يشموا رائحة الدخان . . . ولكن غوينا ليله ، وأطلعها الشيطان فى ربوعتنا وزين لنا أن نضحك من الناس . . وكيف يكون ذلك ؟ قال واحد منا . . الفرصة مهيأة ، واللييلة ليلة الجمعية فلا حرج علينا أن نسهر ، فلنشرب كأسين ، ثم لنخرج الى الشوارع ولنركب الناس فيها بالمزاح والدعابة . فصفق ثان وقال . . « برافو » هيا بنا . وأيده ثالث فصاح وهو يعرج بعضنا . .

• هلم بنا • ما ابرعها فكرة • •

وقد كان •



وكنا خمسة فلقينا فى بعض الطريق ثلاثة راقهم الاقتراح ،
فمضوا معنا وآثرنا دكانا للحلوى ، لانه أخفى وأستر ، وجلسنا
حول زجاجة من الكونياك وأطفنا بهذه اللذة البكر وحرصنا على
الاحتفاظ بوقارنا ، ونحن نحس الكؤوس ونترشفها على مهل -
لاول مرة - حتى لا يظن بنا من عساه يرانا أنا حديثو عهد بالخم
وحماها ، وكففنا عن التكات ثم عن الحديث ، وان كنا من أصخب
خلق الله ، فكأنما كنا فى مأتم ! وخرجنا صامتين ، وتناول كل منا
ذراع جاره وسرنا خطوات ، ثم رأينا اننا خط طويل واننا زحمتنا
الطريق ، فتقاطرنا ، ومشى كل واحد وراء الآخر ، ولكن الكلام
تعذر فسرنا صفتين متدائنين ، فلما قربنا من حديقة الازبكية وضرنا
فى زحمة الخلق قويت قلوبنا وسار أجرؤنا فى الطليعة ، وأقبل على الناس
يحییهم على غير معرفة ، والناس ينظرون اليه فاغرين ومنهم من
يستغرب ومنهم من يرد التحية ومنهم من يحدجه بالنظر الشزرر أو
يغضبه هذا التطفل أو يفطن الى السخرية فيبتسم ، وقد يهم بعضهم
بالشجار ولكنه يرانا كثيرين فيعدل ونحن نكاد نقع على الارض من
التضحك • وبلغنا ميدان الاوبرا فاستوقفنا القائد وقال : لكل
جيش ضابط • أنتم الجنود وأنا الضابط • أنا آمر وانتم تطيعون •
مفهوم ؟ والاآن اصطفوا • حسن أيها الجنود البواسل فى مثل هذه
الليلة السعيدة لا يجوز ان نخرج من المولد بلا حمص ، القلعة
أماننا : هذه هى الحديقة أترون أضواءها • • أترون الشموع
على سورها ؟ هذه الشموع التى تخايلنا من وراء الزجاج الملون هى
حصص المولد • • فلنحمل عليها ولنعد بها أيها الجنود • • تقدموا الى
الامام يا جنودى الشجعان • وفى ثانية كنا على السور نفتح المصابيح
وننتزع الشموع ونطفئها وندفع بها فى جيوبنا غير عابئين بما سأل
من ذوبها على ثيابنا • وصاح القائد • • كفى • •

فوثبنا الى الارض جذلين فرحين واذا بالشرطى يشتير الينا ان نقف
لانه سيقودنا الى « القسم »

لم تخر عزيمة القائد ، فأمرنا ان نمشى بنظام ، وأن تكون دبسة
أرجلنا واحدة . وزاد فأعرب عن سروره لوجود رجل « البوليس »
وقال انه سيكون زينة لنا في موكبنا فعليتنا أن نعهده واحدا منا —
« صولا » اذا شئنا ، أو ماأحببنا غير ذلك من المراتب دون مرتبة
الضابط .

واستقبلنا المأمور « وهو يبتسم » فقد كان دخولنا حجرته على
أتم نظام ، ولم يفت قائدنا أن يأمرنا أن نفعل « بربر الط » قبل أن
نقف مرة واحدة .

ثم أدينا السلام العسكري وانتظرنا .
ونظر المأمور الى الشرطى مستفسرا ، فقص عليه ما فعلنا .
فالتفت الينا وقال « اليس هذا عيبا ؟ أفندية مثلكم يسرقون ؟
ما القول اذا أقيتكم فى السجن ؟ »

فلم نجب ونظر بعضنا الى بعض فى ذهول ، ولكن قائدنا كان
حاضر الذهن جرى القلب على عادته ، فالتفت الينا وقال .
« أيها الجند . هاتوا أسلاب المعركة »

فأخرجنا الشموع ودفعنا بها اليه فوضعها على المكتب وهو يقول :
« الجنود الشجعان يدعون لصوصا فى هذه الايام ؟ ماشاء الله .
أنها الفيرة يا جنودى البواسل فلا تحزنوا . ها أنا أرد اليكم ما كسبنا
منكم فلا تبتئس يا حضرة المأمور — لالنا الآن ولا علينا . فلعلك
تكون مسرورا »

وكان مأمورا ظريفا فاكتفى بأن أخلص لنا النصيح وصرفنا

وعقدنا مؤتمرا فى الشارع لنفصل فى الخلاف بيننا . ماذا
نصنع ، أنصرف الى منازلنا أم نعود نراجنا الى الحديقة ؟

وأحصيت الأصوات فتقرر بالأغلبية أن نصرف الى منازلنا ،
وكانت الحجة الغالبة أن في وسعنا أن نفعل ونحن في الطريق الى
بيوتنا كل ما كنا نأمل ان نصنعه عند الحديقة من التضاحك بالناس
ومن الصياح واللعب والنوذب ، فنصيب طيرين بحجر - نفوز
بالسرور المنشود نقلل متاعب الاوبة الى مساكننا المتقاربة ، وكانت
مبعثرة في حي « البغالة »

وبلغنا ميدان عابدين فأغرانا السكون الذي يسوده بالعبود الى
النظام العسكري واتفقنا على انه يحسن - حين نبلغ شارع خيرت -
ان نلجأ الى « الحوارى » لانا معروفون في هذا الشارع الذى كنا
نختلف الى قهواته البريئة فى أوقات الفراغ .

ولكن الصمت كان شاقا مع طول الطريق والضحك لايساعد
على انتظام السير ، فماذا نفعل ؟ وقفنا هنيهة نفكر ونعالج حل
هذا المشكل ونستريح أيضا . وكان قائدنا جالسا على عتبة بيت
ونحن نتحدث ولا نهتدى الى حل ، فما لبث أن وثب الى قدميه وصاح
بنا ..

« زنهار »

فاصطفقنا

« مارش »

فسرنا وهو أمامنا يلوح بذراعيه ويرفع عقيرته بمثل أصوات
الموسيقى « تارا .. لا لا لا الخ »

وهكذا حتى سرنا فى شارع خيرت فعلنا - كما اتفقنا - الى
الحوارى الساكنه ، فصرنا ندخل من واحدة .. ونخرج من
أخرى ، واذا بسرادق يواجهنا على بعد والناس فيه زمر محشودة ،
فسكتت الموسيقى واضطربت الخطوات ولكننا مع ذلك ظللنا نتقدم
كأنما كنا فقدنا كل قدرة على ضبط أنفسنا أو كبح أرجلنا عن المشي
وحسبناه لسوء حظنا « عرسا » ولم نحفل بمن وقفوا لنا حين صرنا
على خطوات من السرادق ، ولم نعد نرى شيئا أو نحس حولنا أحدا

ونحن نخترق المكان ونمشي بين صفوف الجالسين المشربين بأعناقهم
الينا .

وخرجنا من الناحية الاخرى ومال الطريق فملنا وعاد الانتظام
الى الخطوات واستأنف القائد العزف بصوت خفيض في أول الامر
ثم أخذ يعلو ويعلو حتى اذا كاد يرجع الى طبقه السابق انقطع
فجأة ! ذلك ان الطريق مسدود . .

تفرقنا - كل الى جدار - وماذا عسى أن يبلغ من قدرتنا على احتمال
هذه الصدمة ؟ انها أقسى ما لقينا وأوعر ما عترضنا في حياتنا كلها .
هذا مأثم جزنا سرادقه على أوقج صورة فلولا أن سلوكنا أذهل
القوم لقتلونا . وتصور غلمانا لا يتجاوز أكبرهم التاسعة عشرة
يقتحمون مأثمنا كما فعلنا ؟ وقد زال ذهول المفاجأة الآن ، فلو عدنا
لاستقبلونا بما نحن أهلـه ، وبما كان ينبغي أن يصيبنا أول مادخلنا
فلم يبق الا أن نظل واقفين حتى ينفذ المأثم ويذهب المعزون ويخلو
السرادق فنعود

ومرت بنا دقائق خلناها ساعات ، وكلت أرجلنا من الوقوف
فجلسنا على الارض ، ثم رحنا ننفخ وتنأف ، ثم قام أحدها ودنا من
اثنين متقاربين ووقف على رأسيهما وقال . .

« واحرتها . »

فلم يجيباه . وماذا عسى أن يقولوا له ؟ . وأى آخرة هناك غير آخرة
المأثم ؟ فعاد الى حيث كان

الا شيء نتسلى به ؟ وكيف يستطيع الصبر على هذه الحال الى آخر
الليل ؟ وشاع الضجر وطفى بنا الملل والغيظ والسخط على المعزین
وعلى الميت أيضا . وهل كان لابد أن يموت في هذا اليوم ؟ . وهل
لا بد أن يشيع الميت بضجة وزفة ؟ أمن الضروري أن يحتفل بموته
كما يحتفل بميلاده ؟ مات وانتهى الامر فأى داع لمضايقة الناس ؟

ولكن أين القائد ؟ تلفتنا فلم نجده فصرفنا هذا عما نحن فيه ، وكان أول ما خامرنا السخط عليه ، لأنه فيما توهمناخذلنا في محنتنا ، ولكن ثلاثة منا أحسنوا به الظن وأبوا أن يصدقوا أنه فروخان رفاقه وهموا بأن ينطلقوا ليبحثوا عنه وإذا هو مقبل علينا ووجهه متهلل • فاعدنا بشره ، وأحيا نفوسنا التماع عينه • وانهلنا عليه نسأله • • « ماذا ؟ ماذا ؟ هل وجدت حلا ؟ »

فهز رأسه بتؤدة ثم أدار فينا عينه وقال :
« إذا لم تطاوعوني فسأترككم • وشأنكم • »
فبدلنا الوعد بالطاعة فقال • •

« هي ليلة والسلام • فماقولكم في أن يكون ختامها بارعا كفاتحتها ؟ أما أنا فلا يعجبني السرور الخافت الوديع • ومادمنا قد خرجنا الليلة لنفرح ونلعب ، كما ينبغي • ولقد احتقرت نفسي من أجل صبرى هذه الدقائق • انها دقائق ضاعت من عمري • حذفتها منه بالقلم الاحمر • ولن أسمع لمائة ميت أن يفسدوا ليلى على • • وقد ألهمنى الغيظ والسخط حيلة منقطة النظير • ستكون أحداثه الحى شهرا كاملا ، وسندكرها نحن فى كهولتنا فنبتسم • • • تهالوا • • • هيا بنا الى العمل • قفوا صفوا واحدا • لا • لا • لا • بالطول لا بالعرض ، واحدا وراء الآخر ، أنا فى المقدمة كالعادة • القائد على رأسكم • الراية فى يدي • سألقى الرصاص بصمدري هذا • ودقه بيده • والضرب برأسى • • وسيندم من يتعرض لى • • فسأفترسه • • سأنفجر وأطير أشلاء • • لاننى الآن وابور • • بفو • بفو • بفو • •

ولا أطيل - أمسك كل منا بذيل الذى أمامه وسرنا فى أول الامر على مهل كما يفعل القطار الخارج من المحطة حتى اذا كدنا نميل الى حيث السرادق يعترضنا انطلقنا بأقصى سرعة ننفخ ونزفر ولم نفق الا فى ميدان السيدة •

وهكذا خرجنا من الحارة • • •
ولكن والد القائد كان بين المعزين •

بتاع الكلب

كنا أربعة لانكاد نفترق الا لنتعشى ثم ننام ، ولم تكن مدرستنا واحدة ، ولا كنا جيرانا ، ولا أذكر الآن بعد هذه السنوات الطويلة كيف اتصلت بيننا الاسباب ، وأحسبها المصادفة التي يسقطها أكثرنا من حسابه حين يذهب يلتمس العلل والدواعي ، وكان اجتماعنا في بيت أحدنا - أو على الأصح - على بابہ : نخرج الكراسي ونجلس صفا واحدا أو متقابلين نتحدث ونلعب الشطرنج أو النرد أو غير ذلك - الا الورق - أو نكتفي بالنظر الى الرائحين والغادين ونتبادل الآراء فيهم والملاحظات التي تعن لنا على ثيابهم أو مشياتهم أو أشكالهم وصورهم على العموم ، وربما قام منا من يقلدهم ويضحكنا ويدخل السرور على نفوسنا بالمبالغة في التمثيل ، فإذا اشتهقنا الى مالا يوجد في المنازل من مثل « الخشاف » أو « الكانزوزة » أو غيرها ، وكان معنا ثمن مانريد ، بعثنا من يجيئنا به من « قهوة » قريبة ، وكنا في ذلك اشتراكيين أو لأدري بماذا ينبغي أن نوصف فقد كان القرش في جيب أحدنا ، له وللجماعة في آن معا ، وكنا نستحي أن نفشي « القهوة » فإذا لج بنا النزاع الى غشيانها واشتد اغراء الفونوغراف لنا ، ذهبنا جماعة بعد طول التردد والمشاورة ، جينا منا عن الذهاب متفرقين ، أو حياء أوسمه ماشئت ، ومازلت الى الآن أذكر أول مرة غشيت فيها « قهوة » ، وكان معي واحد من هذه الجماعة ، وكان الوقت صيفا وصاحب البيت الذي نجتمع على بابہ مسافر ، وثالثنا مريض عدناه ولم نفل تجنبا للاتقال عليه ، ثم مضينا نتمشى الى قصر النيل كمادتنا اذا طلبنا الرياضة ، وطال المشي واللف حول القصور والتطلع الى ضخامتها وتخيل ما تحويه من مظاهر البذخ وآيات النعمة ، وكلت السيقان ولم تغب الشمس ، فحننا الى الراحة ، ولكن أين ؟ جعلنا في ايابنا ننظر الى القهوات ونأملها ولا نجرؤ أن ندخلها حتى بلغنا القهوة القريبة من دار صاحبنا فاقترحناها وجلسنا قرب بابها كأننا خفنا أن نتوغل

فيها فيتعدر علينا أن نتسلل منها اذا ثقل علينا الامر فيها ، وطلبنا الخشاف والشطرنج وبدأنا نلعب ، وليس في هذا كله غرابة ، وانما الغريب والذي لفت الينا الانظار وجعل علينا من الحدق نطاقا وأدى الى فرارنا آخر الامر ، اننا جعلنا كلما دخل رجل - وكان أكثر الزبائن كهولا - نهض له واقفين احتراماً ! وأكفنا الى رؤوسنا بتحيته ؟ واستغرب الناس هذا السلوك منا ، ولاحظنا نحن اننا قيد العيون وموضوع الاحاديث فعجلنا بالجلء وأقسمنا لانهود حتى تكون لنا شوارب طويلة ولحي حلقة خضراء !

وكان لنا مزاج ثقيل في بعض الاحيان ، ذلك انا كنا فقراء ماعدا واحد كان والده يحبه ويدلله ولا يبخل عليه بمال ، ومن مظاهر ادلاله له انه أعطاه ساعة وسلسلة من الذهب ، وكانت الساعة كبيرة ثقيلة والسلسلة غليظة طويلة ، ولم تكن جيوبه تخلو من بضعة جنيهات ذهبية على حين كانت جيوبنا لا يطول فيها لبث القروش ، وكان صاحبنا هذا على تدليل أبيه له ، شهما جم المروءة الا أنه حسن القيام على المال حكيم في انفاقه ، ولا أقول بخيلا ، فما كان الذي به بخلا ، ولكنما كان رشداً وحكمة ، ولكننا كنا نحتاج أن نركب زورقا من قصر النيل نشقيه النيل ساعة أو ساعتين ، ويعوزنا الاجر فنطلبه منه ونتعاقب بالرجاء عليه وهو لايزداد على الرجاء الملح الا لاجة في التابى ، فنأتمر به ، ونظهر الاكتفاء من الرياضة والتنزه بالمشى ووجع السيقان والاقدام ، والازمة أنا ويسبقنا الآخرون ، وكانت عادته أن يحمل خيزرانة لاتنفع للتوكى ، ولا حمار هناك يستحبه بها ، فأغافله وأخطفها منه وأعدو الى الصاحبين وأنا أصبح فيرتدان اليه بالحيلة عليه وأساعدهما أنا بضرب أصابعه بالخيزرانة كلما تمكن من أحدهما ، حتى يستخلصا من جيوبه المال اللازم لاجرة الزورق وثمان البطيخة أو الشمامة اذا بدا لنا أن نخرج على « مقانة » على الشاطئ . ووجه العجب في الامر كله ، أتى كنت الموكل في كل مرة بخطف الخيزرانة ، ومع ذلك لم يكن صاحبنا يتقننى أو يحاذر منى أو يريبه إثاري له كلما اختلفنا معه على نفقات رحلة وطلبناها منه وأباها علينا .

ومن الحوادث التي أذكرها أني مرة ربحت ريالاً ! أي والله ربحته
وكنت مستحقاً له . وكان الريال مكسباً جزيلاً يكفي لنفقتنا نحن
الاربعة أسبوعاً مع التبذير والبذخ ! فما كان للواحد منا سوى
قرش في اليوم وما كان أكثر ما يبقى منه إلى اليوم التالي بعضه وفيه
نضيع القروش ونحن لاندخن سجائر ولا نختلف إلى قهوة ولا نركب
تراً ولا نسهر الليل ولا نشاهد تمثيل « الشيخ سلامة » أو « كامل
الأصلي » - وكان مهرجان مشهوراً - إلا مرة في السنة ولم تكن
السينما قد ظهرت ، ولا كان شيء آخر من الملاهي يصرفنا عن
دروسنا ؟

وكنا نمشي قبيل الغروب عند قصر النيل على الأفرز الذي يقابل
الآن أو يواجه فندق سميراميس ، فاتفق أن مرت أمامنا فتاتان
معهما كلب ضخيم من فصيلة « البول دوج » وعلى فمه كمامة ، ولا
أدري كيف حدث هذا ولماذا أصابني ، ولكن الذي أدريه أني أوليت
أصحابي ظهري وسرت وراء الفتاتين - أو وراء الكلب على الأصح ،
فقد كان كثير التلكؤ - وأحسب أن جمالهما راعني وسحرني وأنساني
كل ما شئت عليه وتعودته من الاحتشام والتأدب ، ولم يكن في
مرجوى أن أفوز ولا بنظرة منهما ، ولا كان في وسعي أن أجتريء
عليهما بتوجيه كلام اليهما ، غير أني على الرغم من علمي بذلك تابرت
على تعقيبهما ، وأنشأت أتصور مواقف وأحاديث لي معهما ، فمرة
أتخيل أن احداهما عثرت وأن حجراً صدم قدمها الصغيرة فتهافتت
على الأرض ، واني أسرع اليها فحملتها على ذراعي ورششت على
وجهها قطرات من الماء - لأدري من أين جئت به بهذه السرعة - من
غير أن أفسد ثوبها القرمزي أو أبله ، فلما أفاقت وعرفت نجدتي
ومروءتي شكرتني وهي تفتري عن أعذب ابتساماتها ، ونادت
صاحبتها - فقد آبيت أن أتصور أن الأخرى أختها أو قريبة لها -
وعرفتني بي واثنت لي على ، وأعربت عن عجبها من قدرتي على حملها
بهذه السهولة مع قصرى الشديد وما يبدو من ضعفى لأول
نظرة !

وتارة أخرى أتخيل انهما ركبنا زورقاً فانقلب بهما واني لم

أكد الملح ذلك حتى نضوت أكثر ثيابي والقيت بنفسى فى لجة الماء
وسحبت اليهما كالسمكة وعدت بهما تحت ابطى الى الشاطئ المأمون
وما أحسن من السباحة غير الغوص ، كما يقول ابن الرومى ، ولكن
هذا لا يمنع أن يقذف بى الخيال فى عباب طام وموج مشرب كالجبال
المتقلعة ، ولم أرض أن أجعل الانقاذ والنجدة الا فى أشد الاحوال حرجا
بل أدعاها الى اليأس

وهكذا سرت وراءهما وخيالى الجامح يأبى الا أن يحضرهما لى -
وهما أمامى - فى مثل هذه الصور ، ثم ذكرت رثاءة ثيابى بالقياس
الى جمال هندامها وحسن ما يلبسان من أفواف رقيقة موشاة ، فاكتأبت
وخجلت وقصرت خطاى ، وبعد ما بينى وبينهما ، وانى لاحدث
نفسى بالعود الى حيث تركت أصحابى واذا بنباح ينبهنى ، فرفعت
عينى عن حداثى وكنت أتأمل قدمه واشتفاه على التمزق ، فرأيت
كلب الفتاتين ينظر الى كلب آخر نظرة تنطوى على نية القتل العمد ،
ولم يكن الكلب الآخر أضال جسما ولا أقل استعدادا للجرام ،
فوقفت ، وقد دار بنفسى أن أحلامى قد كتب لها أن تصح ، ودعوت
الله فى سرى أن يتقاتل الكلبان ، ورحمت أتلو ما حضرني من آيات
الكتاب الكريم وأعزم عليهما بقوة هذه الآيات وبركتها ، وبودى لو
استطعت أن أهيجهما الى القتال وأعرضهما عليه بالاصوات والاشارات
غير أن هذا لم يكن اليه سبيل ، وجعلت أدير عينى حول لا تحقق من
أن أصحاب هذين الكلبين لم يفتقدوهما ولم يتنبهوا الى ما يوشك أن
يقع بينهما .

واستجاب الله دعائى الحار وكان ما تمنيت ، وتشتابك الكلبان ،
وكنت - وما زلت - أخشى الكلاب كما أخشى الموت على نفسى ،
واستقدرها أيضا ، ولكن هذا كان وقت الشجاعة والمروءة
والنجدة السريعة والصنيع الجميل الذى يستوجب الشكر وقد يحقق
الاحلام ! فانقضضت عليهما وحاولت أن أفرقهما ، وكأنما صدتني
بقية من الحذر الطبيعى عن رأسيهما ، فجعلت أدور حولهما محاولا
أن أمسك أحدهما من ذيله ، وليس للذنب استقرار أو ثبات على
امتداد ، وانه لكثير الثثنى سريع التفلت ، غير انى مع ذلك وبعد جهد

مضن ، ظفرت بذيل الكلب الذى انتدبت لانجاده ، ولم أكد أفعل حتى لف اللعين - أعنى الكلب لا الذيل - وعضنى أو على الاصح جرحتنى سنه ! فانظر كيف شكر الكلاب للجميل ! فما عضنى الكلب الذى هو خصم ، ولكن عضنى الكلب الذى هو .. الذى أنا له صديق .. ؟

وسأل الدم من أصابعى وأفزعنى لونه الفقانى ، ولكنى لم أشعر وقتئذ بالم بل شاع فى نفسى السرور وتوقعت أن يكون ما أصابنى مضاعفا لحقى فى الثواب وزائدا فى استيجابى للتعظيم ، واجتنبت الذيل بعد ذلك وأهويت على الطوق وأمسكت به ورفعت الكلب اللثيم عن الارض بكلتا يدى وجعلت أزجر الآخر بقدمى .

وانى لذلك واذا بالفتاتين تهرولان الى ، وبصاحب الكلب الثانى يحمله معتذرا عنه ، فأبرقت أسارير وجهى وكاد الفرح يطير لى ، ولكنى ضبطت نفسى وقلت هذه ستاعة الوقار فما يليق بالبطل المنقذ أن يكون خفيفا طياشا ، أومزهوا منانا ، فحططت الكلب على الارض وكان ثقله قد أوهى ذراعى ، فتناولت احدهما الاربة المشددة الى الطوق ، وأقبلت على تشكرنى هى وصاحبتهما ثم أخذت عيونهما الدم الذى أريق فى سبيلهما فقالت واحدة

« لقد جرحت ! مسكين ! »

ونظرت الى صاحبتهما فى حيرة وارتباك وألم ، فكادت نفسى تذوب رقة ، وهممت أن أقول شيئا ، ولكن لسانى انعقد ففسست يدى فى جيبي لاخفيها ، فقالت الثانية وهى تشد ذراعى .

« كلا ! لاتصنع هذا . يجب أن تذهب الى الطبيب حالا . »

فلم يفتح الله على بأكثر من قولى « الامر تافه . ولايستحق الذهاب الى الطبيب »

فقالت الاولى « بل يجب أن تذهب .. حالا . من يدري ؟ »

فهزئت راسى وأنا ابتسم ابتسامة الاستخفاف كأنها كان من عادتى أن تعضنى الكلاب

وتداني الرأسان الصغيران ، وتحركت الشفاه الدقيقة بالهمس الخافت ، وأنا أتشغل بلف يدي في منديل ، ثم تقدمت احدهما مني وتناولت يدي السليمة وصافحتني وشكرتني بينما كانت الاخرى مكبة على حقيبتها تبحث فيها عن شيء ، ومضت عني التي صافحتني ، وأقبلت الاخرى تفعل كما فعلت وأنا واقف كالجمار وقد أدار رأسي اني علمت أن المصافحة والشكر هما الختام ولا شيء بعدهما وهبطت آملتي وتضاءلت مطامعي وأصبحت أقنع بأن تسالاني عن اسمي . وهل أقل من ذلك ؟ وبينما أنا ذاهل شارد الذهن اذا بالفتاة تسحب يمانها وتضع بيسراها شيئاً كبيراً بارداً في كفي وتطويه عليه ثم تذهب تعدو !

بعد أن ابتعدنا قليلاً أفقت فنظرت الى كفي فاذا فيها ريال جديد براق ! فكاد عقلي يطير من الغيظ والسخط والحقد . ريال ؟ وهل أنا أجير ؟ أتراني عامي المظهر الى هذا الحد ؟ وصوبت عيني الى حذائي ورفعتها الى البنطلون ثم أقصرت . فقد كانت ثيابي صريحة الوشاية برقة الحال . فعدلت عما كنت أهم به من الجرى ورائهما والقاء الريال اليهما . وعزاني أنهما لن يرياني على الأرجح بعد ذلك ، فانكفات راجعا الى حيث خلفت أصحابي فلما التقيت بهم بسطت لهم كفي بالريال اللامع ، فدهشوا ونظر بعضهم الى بعض وقال أحدهم .

« لقيه ؟ »

فهزرت رأسي . فقال آخر :

« سرقته ؟ »

فعبست تعبيس المصمم على القتل ، فقال الثالث :

« عفوا ولكن .. ريال .. هذا كنز ! فهلا قلت لنا كيف وقعت عليه ؟ »

فلم أرحمهم ولم أنطق بحرف بل أخرجت يسراي من جيبتي وفككت عنها المنديل ووقفت كالتمثال ! فثارت نفوسهم وقد حسبوا أن اعتداء وقع على صاحبهم ، وأقبلوا يسألونني عن الشرير الذي جرحني

ويدفعوننى أمامهم ماضين بى من حيث عدت ، فضحككت وقد بدت لى
سخافة الحكاية كلها ، وقلت :

« كلا • لم يعتمد على أحد • ولكن عضنى • • عضنى • • كلب »

وقصصت عليهم ما حدث • فضحكوا ومضوا بى الى أقرب صيدلية
وصارت دعوتهم لى بعد ذلك حين يمازحوننى : « يابتاع الكلب ! »

من ذكريات المدرسة

كانت المدرسة ٠٠ الابتدائية على أيامنا

مثلما ضمت سبيل من صنوف الخلق وفدا

أو كيوم الحشر ، أو وقفة عرفات على الأقل ، سوى أنها كانت خالية بفضل الله ولطفه ، من المرأة ، وكانت أسنان التلاميذ متفاوتة أشد التفاوت ، ومتباعدة أعظم التباعد ، وكنت أصغرهم - فيما أعتقد - فما كانت سننى تزيد على التاسعة لما دخلت هذه المدرسة ، وكان فيها من جاوزوا الخامسة والعشرين ، وصارت لهم شوارب مفتولة يعتزون بها ويباهون بكثافتها وطولها ، ولم يكن هؤلاء تلاميذ ، إذا أردت الحقيقة ، وإنما كانوا يجمعون من المدينة ويحملون على قبول التلمذ فى هذه المدرسة ، وتلم لهم «المصروفات» - أو نفقات التعليم - بالاككتاب العام من التلاميذ والمدرسين ، وكانوا لا يكلفون أن يدخلوا الفصول لسماع الدروس ، ولا يجشمون حفظ شيء أو فهمه ، وإنما عليهم أن يكونوا فى «اليمك خانة» - أو حجرة الطعام وقت الظهر ليتناولوا الغذاء ، وهو حق لهم ما دامت أجور التعليم قد أديت عنهم ، ولكن غداهم كان ممتازا ، وكانت هائدتهم غاصة بالالوان ، والاطباق مفعمة - ولأمانع من الاستزادة ، ولا حرج من اعادة الطلب مرة وأخرى وثالثة ، وكنا نحن الصغار نقول ان المدرسة «تعلفهم لانها كانت تتحرى أن تسرهم وتبرهم وترعاهم وتتعهدهم ، وكان الناظر يبالغ فى ذلك حتى انه ليبحث بخادمه فيشتري لهم (المخلل) ليضاعف اقبالهم على الاكل ويعوى رعبتهم فيه ، ولو كان (الابر تيف) معروفا فى تلك الايام لكان الارجح أن لا ييخل عليهم به أيضا ، وكان ناظرنا رجلا طيبا ، مستقيم الفطرة ، فأذن لنا أن نشترى - بمانا - (المخلل) فكنا قبل أن يثق الناقدوس الذى يرسلنا متدافعين متزاحمين متعثرين - الى حجرة الطعام - نقف من وراء بوابة المدرسة ، وفى أيدينا القروش ننادى « الطرشجى » أو صانع المخلل ، أن يبيعنا مما عنده ، وليتصور

القارئ خمسين أو ستين تلميذا - ما بين طويل وقصير ، وبدين وهزيل - ينادون جميعا فى وقت واحد وبأصوات متفاوتة ، « يا عم محمد ، هات وحياة أبوك بقرش طرشى » أو « كتر الخيار يا عم محمد » أو « وصيتك الدقة » أو « لا » . أنا عايز مية لفت مش عايز دقة » أو « البصل والفلفل يا عم محمد » وهكذا الى آخره .

ثم ننقلب عن البوابة - واحدا فى أثر واحد - حاملين هذه المواعين الملائى بأصناف المخلل والمغطاة أو المزينة بالجرير الاخضر أو البقدونس والكرفس ، ونظل واقفين أمام حجرة الأكل وهذه الأطباق أو المواعين فى أيدينا حتى تفتح الابواب ندخل فنجلس الى الموائد ، ونضع أمامنا ما نحمل .

وكان الباعث للمدرسة على العناية بهؤلاء التلاميذ أو أشباه التلاميذ ، « الكرة » ، وكان الاهتمام بها فى تلك الايام عظيما ، والتنافس بين المدارس الابتدائية فى التفوق فيها لاحراز (كأسها) على أشد ما يكون ، وقد بذت مدرستنا سواها فى هذا الباب ، وأذكر أن الكأس ظلت معها سنوات متوالية ، لأن لاعبيها كانوا فحولا معلوفين ، ولا تزال أسماءهم مشهورة الى اليوم . وإن كان منهم من لم يقصر فى واجب العلم مثل (أبو تيفة) و (عبد الله) رئيس الفرقة ، وقد نسيت بقية الاسماء ، ولكن اسما آخر لا أظنه يغيب عنى أبدا ، وهو « سليمان » وكنا نسميه « سيلي مان » على سبيل المزاح ، وكان ضخما أحمر الوجه كالإيقوسيين ، وكان لا يرى الا و « البيبة » بين شفثيه أو أسنانه ومن هنا حرفنا اسمه وجعلناه « سيلي مان » وكان يشاع انه لا ينزل اللعب الا وهو ثمل ، والويل اذن لمن يصطدم به من لاعبي المدارس الأخرى ! وكلما هزمنا مدرسة قضينا بعد ذلك أسبوعا فى الهتاف والتصفيق وفى أحداث أشد ما يدخل فى طوقنا من الضوضاء ، من غير أن نخشى زجر أو عقابا ، لأن السرور بالفوز كان يوسع صدر الناظر ويزيده تسامحا ولينا .

وكانت مقاعدنا فى الفصول عتيقة بالية ، سوداء مشققة ، وكانت أشبه بالدكك ، وكان لكل ستة منا مقعد مشترك ، ولكن لكل واحد

درجا ينفرد به ، وكنا نشترى لها أقفالا ، غير أن الاقفال كان يسهل نزعها لما قدمت من تشقق الحشب وتقادم عهده ، وكنا لتلاصقنا على المقاعد ، يكثُر بيننا التدافع والتلاكم والتنافس تحت الادراج . وما تحرك واحد فى مكانه ، أو اعتدل فى جلسته ، أو أكب على الدرج ، أو قام أو مال على جاره ، الا خرج من هذا الخشب العتيق صوت مزعج ، وكانت هذه الاصوات تثقل على سمع المعلمين وتفسد أعصابهم ، فيخرجون عن أطوارهم ويوسعوننا شتما وتأنيبا ، ويشبعوننا ضربا أيضا .

وكان أقسى المعلمين علينا وأغلظهم كبدا معنا شيخ نسميه « الاسد » وكان نحيفا مديد القامة أسمر اللون حاد النظره بل مخيفها ، وكنت له خيزرانة قصيرة ، يدسها فى كم القفطان ، فاذا سار بين المقاعد جعلت عمونا تلحظ هذا الكم لحظانا لا فتور فيه ، وكان الضرب ممنوعا ، والوزارة تنهى عنه، غير أن شيخنا كان يكتفى من الطاعة بأخفاء العصي فى كفه ، فاذا دخل الناظر ، أو جاء مفتش ، لم ير فى يده شيئا ، ولم يربه من كفه اليسرى أنها أبدا مثنية الاصابع على طرف الكم ، حتى اذا خرج الزائر برزت الخيزرانة الناشفة وسلمت علينا !

وقد أطعمنيها مرارا كثيرا . وذاقته كفاى وذراعى وساقاى وظهري وعرفت طعومها كلها بالخبرة الطويلة والتجربة المعتادة ، فصرت اذا إبصرتها ترتفع أستطيع أن أعرف على وجه الدقة أى وقع سيكون لها على جسدى ، وبأى درجة من الألم ينبغي أن أتلقى هذا الوقع ، وأى الضربات تسيل الدموع ، وأيها تطلق الصرخات العالية والحفيضة ، وأيها تبعث على الانين المطوط ، وأيها تقابل بالتقطيب ، أو التلبد ، أو التلويح باليد ، أو اخراج اللسان للمعلم بعد أن يتحرك عنى الى سوى .

وأنا امرؤ فى طبعه الانتقام ، لا يمنعنى من ذلك جمال الصبر وطول الأناة .

وتلك مزيتى فليعرفها القراء فقد يكون العلم بها نافعا لهم ، أعنى

أني لست طياشا ، ولا عجلا ، ودأبى أن أترث ، لعل الاساءة كانت عفوا ، أو عسى أن تعقبها التوبة ، فأمسح اللوح وأعفو عن مقدرة ، وأتناسى ما أبدعته وابتكرته من ضروب الانتقام ، والا حل بالمسييء ما حل « بالاسد »

وشرح ذلك انه ثار بنا مرة كالمجنون ، وكان الوقت صيفا والباذنجان كثيرا - أعنى أن المدرسة كانت تقدمه لنا بين ألوان الغذاء كل يوم تقريبا ، وقد خفيت عني حكمة ذلك ، ولا تزال خافية ، فقد كنا مقبلين على الامتحان وكانت بنا حاجة الى كل ما عسى أن يكون قد بقى في رؤوسنا من العقل ، ولكن هكذا شئت المدرسة أوالمستول من رجالها عن اختيار أصناف الطعام ، فجن « الاسد » كما قلت وحاج بنا حتى لصرنا نقفز من فوق الادراج ونعدو أمامه ، بين المقاعد ، وهو ملاحق لنا ، يميل على الادراج بقامته الطويلة ، ويمد ذراعه وبين أصابعه الخيزرانة الملعونة ، فلا يخطيء البريء اذا فاته المذنب ، وكان - أي « الاسد » - يدمن التدخين ، فنهج ، ووقف يستريح وأعاد العصا الى مخبئها في كفه وأخرج من صدره منديلا يمسح به العرق ، فتسللنا الى مقاعدنا ، وجلسنا ساكتين ، فاعتنمتها فرصة واستأذنت في الخروج فلما صرت في الفناء عدوت الى الناظر فدفعت الباب ودخلت عليه ، وكان رأسه معنيا على صدره ، وهو يشخر شخيرا مختلف الطبقات متنوع النغم على كل درجات السلم الموسيقى ، فليس يمل أو يسأم ، فلولا أن الضرورة تقضى بالسرعة لوقفت أسمع وأطرب

فعدت الى الباب ونقرت عليه نقرا شديدا ، فلم يفتق !

فلونوت من مكتبه وسعلت بأقوى ما يدخل في طوقى

« احم ٠٠٠ احم ٠٠٠ اح ٠ م »

فلم يجد هذا أيضا !

فغنيته صوتا شائعا

« عصفورى يامه ، عصفورى ؟

فلم توقظه حلاوة الصوت ، ولم ينبهه علو الطبقة ، على أن الغناء

فى غرفة الناظر ، أمامه ، وتحت عينه اذا فتحها ، وعلى مسمع منه اذا تنبه راقنى فمضيت فيه ورفعت عقيرتى أقول - أو أصيح !

« تضربنى ليه ؟ يا سعادة البيه !

وأنا لسه صغار

ما حملش هزار »

ودارت « الرء » من هزار « دورتين ، وسكت ، وشرعت أفكر فى أغنية أخرى أو وسيلة غير هذه ليقاظ النائم ، اذا به يشخر شجرة عظيمة ، انتفخ لها صدره وارتد رأسه فصحت به

« ياسعادة البيه ! ياسعادة البيه ! ياسعا ..

« ايه ؟ »

« يا سعادة البيه ! »

« مين ؟ أنا ؟ »

« سعادة البيه ! »

« عايز ١٠٠ ٠٠٠ سعادة البيه ؟ آ

« أيوه يا سعادة البيه »

« مين ده ؟ »

« سعادتك ! »

« سعادتى ؟ »

« آه ! »

« آه . طيب »

« سعادة البيه »

« جرى ايه ؟ عامل لى سورة هنا ليه ؟ »

« الشيخ ٠٠٠ نازل فينا ضرب »

فأفاق جدا ، فقد كان يكره أن يضرب المعلمون التلاميذ ، وكان فى هذا مخلصا صادق السريرة ، وكانت له خيزرانة طويلة لا تؤذى ولا تؤلم لانه كان يتقى أن يصيبنا بطرفها ، ويتوخى أن يدنو من التلميذ جدا ويطوقه بالخيزرانة فلا يكون لمسها ألم .

ووصفت له ما جرى فى الفصل ودلته على مخبأ العصا، فصرفتى وتبعنى على مهل ، فسبقتة الى الفصل فدخلته وأنا أرمى الى التلاميذ نظرات لا تخفى معانيها ، وجلست أبتسم راضيا عن نفسى مغتبطا بما سيكون ، وجاء الناظر بعد برهة وجيزة ، فوثبنا الى أقدامنها ، ورفعنا أكفنا الى رؤوسنا بالتحية وسار الناظر الى « الاسد » وتناول ذراعه وقال :

« ايه ده اللي فى كحك » ؟

وأخرج الخيزرانة وقال

« الضرب ممنوع فى المدارس يا شيخ .. اياك تضرب العيال

ثانى » وخرج .

ووقف « الاسد » وبه من الخجل أضعاف ما بنا من الشماتة ، ولم يكذ الناظر يبعد حتى صحننا جميعا - كأنما كنا على اتفاق -
« هيه .. هيه .. »

وكان معلم الرياضة رجلا طيبا حاذقا ، فاتفق يوما أن كتب على السبورة مسألة حسابية ، وشرع يسألنا عن حلها ، فدخل الناظر على عادته أحيانا ، ووقف هنيهة يقرأ المكتوب على السبورة ثم التفت إلينا وقال :

« المسألة رأسها غلط »

فأدهشنا أن يغلط معلمنا ، ونظرنا إليه ، ولكنه كان ساكن الطائر وعلى فمه ابتسامته المألوفة ، وعاد الناظر يسأل
« مين يعرف يورينى الغلط فيها ؟

ففرنا مليا ثم جعلنا نرفع أصابعنا قليلا من شدة التردد ، وقال واحد أن الغلط أن الجواب كسر ، لا عدد صحيح ، وزعم آخر أن المسألة لا حل لها ، وادعى ثالث أنها خارجة عن المقرر ، والناظر يعقب على كل جواب بهذا الصوت « تؤ . تؤ »

وأخيرا وضعنا أصابعنا فى الشق ، واعترفنا بأن حمارنا « غلب » وقلنا له ذلك .. اعنى أنا لم نقله ، بل اكتفينا بأن نظهر عجزنا

بالكف عن رفع الاصابع ودسها فى شقوق الادراج ، فقال الناظر
« أيوه غلط لانها كذب • منين نعرف أن محمد أعطى على الفلوس
دى ؟ تؤ • تؤ • ده كذب وعيب • ما تبقاش يا فلان افندى تعلم
العيال الكذب • حرام • »
وخرج

★ ★ ★

ولا غرابة أن يكون خطى ردينا ، فقد كان الشيخ الذى يعلمنا
الخط وحشا ، أعنى لم يكن وحشا حقيقيا وانما كان وحشا آدميا ،
غليظ القلب منحوس الضريبة ، وكان بناء المدرسة عتيقا متداعيا ،
والابواب ذات مصراع واحد ، وكانت اذا فتحت تسند بالحجارة ،
فكان هذا الشيخ لا يعاقب التلاميذ الا بشيء واحد • يضع الواحد
راحتة على المكتب ، ويجىء بحجر الباب ويدق به عقل الاصابع • وكان
هذا عقابه الوحيد على رداءة الخط ، وعلى خطأ أو ذنب يرتكب ، فكيف
يرجى ممن تدق أصابعهم بالحجارة أن يحسنوا الخط ويجيدوا
الكتابة ؟ فهذا سبب ان خطى ردىء

وكان الذى يعلمنا « الاشياء » بالانجليزية ، فى السنة الرابعة
شابا نال الشهادة الابتدائية فى العام السابق ، وكان أمره شديد
التكلف ، مسرفا فى التناق ، مغاليا فى التظاهر بغزارة العلم وسعة
الاحاطة ، مفرطا فى مطالبتنا باحترامه من غير موجب لهذا ، ولم تكن
نفهم منه شيئا ، ولا كان هو يدري ما يقول ، وقد أغراه الغرور مرة
فتحرض بأحد لاعبي الكرة الذين أسلفت القول عليهم ، فما كان من
التلميذ - اذا صح هذا الوصف - الا أن تناوله بيديه ، وحمله ورماء
خارج الفصل وأغلق الباب وجلس

وكان هذا الشاب يعطينا درسا أو اثنين - لا أذكر - فى الاسبوع
فصار يغيث عن هذه الدروس ويصيبه مرض مفاجئ فى أيامها أو
أوقاتها ، وظل هذا المرض يعاوده الى آخر العام المدرسى ، فكنا
ندعو له بالشفاء وكان بعضنا اذا لقيه فى ممر أو فى الفناء يقول له
« أوحشتنا جدا يا فندى » فينظر اليه شزرا ولا يجيب • كلا • لم
يكن ظريفا هذا الشاب !

وقد قضيت سنى التعليم الابتدائي كله - وكانت أربعا - وبعض سنى التعليم الثانوى ، من غير أن أتلقى خطابا واحدا أو رسالة أو كتابا أو رقعة ، أو ما شئت فسم هذا الذى يحمله اليه ساعى البريد فتفضه وتقرأ فيه كلاما من قريب لك أو صديق أو حتى ممن لاتعرف وقد يستغرب القارىء أن يلتفت الذهن الى حالة سلبيه فى أيام الحداثة ، فان التذكر يكون لما كان لا لما ليس له وجود ، ولكن لهذا الالتفات عندى سببه ، ودواعيه ، فقد كان البيت الذى سلخت فيه هذا الصدر من عمرى ، واسعا رحيبا متعدد الجوانب ، كثير البنى ، ويخيل الى الآن انه كان كالشكنة ، لكثرة من فيه من الخلق ، ولكنى فى تلك الأيام كنت أراه أشبه « بالربع » لانى لم أكن رأيت تكنة بل حتى ولا جنودا ، وكان هؤلاء السكان جميعا أقرباء أو أنسباء - من بعيد - فكنا أشبه بالقبيلة منا بأهل البيت الواحد ، وكان الذى جمعهم طلب العلم ، وكانوا « مجاورين » - أى ممن يطلبون العلم فى الازهر - ما خلا اثنين أنا أحصهما ، وكان زميلى هذا أكبر منى سنا وأضخم جسما وأوفر طولاً وعرضاً ، وأكبر عقلاً أيضاً ، وأعرف بالدنيا والناس ، وكان أبوه قد مات وصار هو زعيم بيته ، فلم ينقطع عن المدرسة ، بل ثابر على التعلم ، وكان يجىء معه من البلد شيخ حاذق « جاور » فى الازهر زمنا مديدا وخرج منه بعلم كثير وان لم يخرج « بالعالمية » ، وكانت مهمة هذا الشيخ أن يكتسب الغرفتين المفردتين لسكناهما ، وأن يهيىء الطعام ، ويدرس لزميلى النحو والصرف والانشاء والاملاء والتطبيق ، وأن يؤم به الصلاة فى أوقاتها وأن يقرأ « عشرا من القرآن الكريم فى الصباح و « عشرا » مثله فى المساء ، وأن يقص عليه فى أوقات الفراغ ما يحضره من الحكايات والنوادر ، وأن يصبر فى ساعات التبسط على عبث الصبيان ، ويتشدد لاحتمال ما يركبونه به من الدعابة الخفيفة أو الثقيلة ، وكان الرجل طيبا سمح النفس رضى الخلق ، وكان له ثوب واحد أسود - يسمونه « الزعبوط » - لا يغيره فى صيف أو شتاء ، ولا يزيده عليه ولا يزال يرفو فيه ويرقع ، ومع ذلك كان الصبيان لا يتقون تمزيقه له باظافهم ويعنف جذبهم له من أطرافه ، وكان لتقادم عهده وشدة خلوقته ، سريع الانهيار ، فكان جسمه الاسمر ، يبدو من الفتوق ، فيلعج الصبيان أحيانا فى عبثهم ويخجلون أحيانا

أخرى وينصرفون ، ويجلس هو للرفو والترقيع بوجه لا غضب فيه ولا سخط لا تدمر ، فكأنه ما أودى وفجع في مرفعه التي لا يملك سواها في هذه الدنيا .

ومع فقره المدقع واملاقه الشديد ، كان ساعى البريد يحمل اليه كل يوم كتابا أو كتابين من أهل القرية ، وكذلك كان زميلي في البيت وفي المدرسة - يتلقى الكتب بغير انقطاع . فكنت وأنا واقف في الصف ، استعدادا لدخول الفصول وتلقى الدروس أسمع الضابط يناديه فيبرز له من الصف ويتسلم منه الرقعة أو الرقعتين ، ويعود الى البيت فاذا له فيه كتاب متروك ، فكنت أقول لنفسى : أما صاحبى فلا عجب أن ترد عليه الكتب ، فإن له أرضا وأهلا في قريته ، ولكن هذا الشيخ المسكين من الذى يكتب اليه ياترى ؟! انه لا أهل له فيما أعلم ، ومثله فى مثل فقره خليق أن لا يكون له أصحاب أو أصدقاء يتفقون ويتعهون به بالسؤال والاستفسار ، ويرعون وده ويحفظون عهده ، والفقر فى المال فقر فى كل شيء ، كما عرفت ذلك حتى فى طفولتى ، ولم أكن أعلم يومئذ أن الحديث السرى ، والصبر الجميل والفكاهة الحاضرة ، والبديهة المؤاتية ، والخطر المسعف ، عوض كاف عما يفوت الإنسان ، اذا استطاع أن يروض نفسه على الرضى بهذا العوض ، كذلك لم أكن أعرف ان علم الشيخ ، وان نقصته الشهادة به من العلماء ، ميزة فى قريته ، وجعل له حاشية كبيرة من المحبين « والمريدين » يبرونه ويكرمونه ، فهو عند هؤلاء شيخ وقور يستفتى ويتبرك به ، وعند سراة القرية جليس أنيس ، ومحدث ظريف ، وخادم نافع يقضى الحاجات ويحتمل من بينهم الصفعات ، ويقنع من الجزاء بالفضلات .

وكان زميلي هذا فى المدرسة - والبيت - مستفردا وحدا . أعنى انه كان قليل الاختلاط بالتلاميذ ، لا يلاعبهم ولا يسابقهم ، ولا يفعل ما يفعلون ، وأحسبه انما كان كذلك لكبر سنه ، وامتداد قامته ، ولعله كان يخجل أن يرى عاديا فى الفناء الرحيب ، أو ضاربا بالكرة ، أو اثبا طافرا ، أو لاعبا بالحصى أو قاذفا بالنوى ، أو صانعا غير ذلك مما كنا لا نملح من ضروب العبث الصبيانى ، وكان

التلاميذ لا يألّفونه لما يرون من نفرتة وإيثاره التفرد ، واكبابه على القراءة ، وأظن هذا ثقل على نفسه فقد جاءني يوما وفي يده رقعة ، وأخبرني أن أخته رزقت غلاما ، وإن زوجها يسأله ماذا يسميه ، لانه يحب أن يختار له اسما جميلا ويطلق عليه عنوانا حسنا ، فهنأته ودعوت للغلام بطول العمر والسعادة ، ولامه بأن تقر به عينها ، فشكرني ، ورجا مني أن أساعده على اختيار الاسم الجميل الذي يطيب وقعه في السمع ، فشعرت ان قامتي امتدت وانى زدت شبرين . فما استشارني أحد في شيء قبل ذلك ، ومضيت لفرحتي أقص على الصبيان الخبر وأرويه لهم متوسعا متزايدا ، وأذكر انى قلت لهم ان الغلام المولود له في كل يد ستة أصابع ، وفي كل قدم عشرة ، وجعلت أعجب ويعجبون ، وأتحدث ويتحدثون بقدرة الله ، وأقبلوا زرافات - أو جماعات - على الزميل يهنئونه ويسألونه ، وهو على ما بدال - مسرور بانجلاء الوحشة وانصرام عهد الوحلة ، ولما أخبروه مستغربين بالاصابع وعددها في اليدين والقدمين ، ضحك ولم ينف ولم يثبت ، ولم يخاطبني فيما هولت به عليهم ، ولم ينكر على ما تخيلت لانه شغل بلذة المخالطة الجديدة ومتعة العطف الذي لم يكن يحلم به ، عن هذه الاكثوبة التافهة التي لا تقدم ولا تؤخر ، وأحسسه لم يجترأ أن يكذب بغير علم ، ومن أين علمه أن الغلام لم يكن له أكثر مما نحلته ؟؟ وعسى أن يكون قد قال لنفسه ان الذي يخلق خمسة أصابع لليد قادر ولا شك على أن يخلق عشرة أو عشرين ؟ أليس يخلق مئات وآلاف من الشعرات في اللحية الواحدة؟ وما الفرق من حيث القدرة ، بين ابراز الاصابع في اليد وانبات الشعر في لحى العلماء ؟ فقد كان لا يرى أن لحى غيرهم تستحق الذكر ، ولو قال لنفسه هذا لما كان عجيبا منه ، فقد كان شبخه الذي أسلفت القول عليه لا يمل تحديثه بعجائب الخلق ، في الناس والجن والملائكة ، وقد سمعته مرات عديدة يصف له الشرر الذي يتطاير من عيون الجان والملائكة والرؤوس الكثيرة المركبة لها أو لبعضها - فقد نستيت أيها - على ما روى - برأس واحد وأيها برؤوس

وتوالت الايام ، فما يثقل الدهر رجله ، أو يتلأأ في الخطو -

وفتت حرارة العطف الذى أحسه زميل بفضل هذا المولود ونضب معين السرور بمقدمه ، وعاد التلاميذ الى ألعابهم وأنا معهم ، وكنت ممتازا بسرعة العدو ، فما سبقني قط فى ذلك الزمان أحد ، وأحسب ذلك لضالة جسمى وخفة الساقين ، ولشددة جبنى أيضا ، وارتد زميل وحيدا مستفردا لا يكلمه أحد وهو يتمشى وبين يديه كتاب من تلك الكتب الثقيلة التى كنا نتقزز منها وننفر كما نتقزز من زيت الخروج ، ولم يكن فى وسع هذا الغلام - وهو فى أول عهده - بالدنيا - أن يظل يشغلنا . ولم يكن له فى الحياة عمل يرى فنتناقل أخباره ، ويظهر أن الوحدة بعد الانس كانت أشق عليه منها قبل أن يذوق حرارة العطف ويجرب مزية المخالطة ، ولا عجب أن يكون الامر كذلك ، فما كان فى أول الامر يحس أنه محروم شيئا ، لأنه لم يكن ممتعا بشيء ، فلما جرب وأنس واستراح صار الحرمان محسوسا .

ففى صباح يوم من الايام ، دنا منى وهو مكتئب ، وانحنى يهمس فى أذنى أن الغلام ما كاد يجيء حتى أوشك أن يودع ، فدهشنت وقلت كيف ذلك ؟ قال انه مريض ، قلت بأى شيء ؟ ففكر برهة وقال انه لا يدري ، قلت لا عليك ، فان الاطفال كالخضر ، على ما يقول النساء ، سريعة الذبول ، ولعل بردا ما به أو تلبكا أو نحو ذلك ، فلا يلبث أن يزول ويعافى

وكان فى بيتنا اطفال كثيرون ، يأخذ المرضى من ايامهم فوق ماتأخذ الصلحة ، وانه اذ أقول بيتنا ، أشعر أنى هرلت على القارىء ، فما كان بيت أحد من ساكنيه ، ولا كان لهم حصّة فيه ، وانما كان بيت من شاء من الاهل والاصهار أن يأوى اليه ، فليتفضل وليخص نفسه منه بما يجده خاليا ، بلا أجر أو كراء . وقد وسعنا كما وسع سوانا واحتللنا منه جناحا كبيرا ، وأقمنا فيه ثلاث سنين ، فتأمل

فأذعت خبر المرض الخفى الذى انتاب الغلام ، وكما بالغت فى الاولى ، كذلك بالغت فى الثانية ، ورحت أتخير له من الامراض وأنتقى من العلل أبعثها على الياس وأبعدها عن الشفاء ، فأنحرف تيار المدرسة عن مجراه وأنحدر نحو زميلى ، وكان مبالغتى فى تصوير الداء أوحث

الى صاحبنا خاطرا ، فجاء يوما والسمع يتفرق فى جفنه يخبرنى أن الغلام قد استخار الله وانتقل الى جواره ، ففزعت ، ولم أدر كيف أعزيه ، وبأى كلام أواسنيه ، فما كان فى معجمي ذخيرة لهذه المواقف سرعان مانعته - أعنى الغلام - الى المدرسة قاطبة ، فاحتشد التلاميذ حول صاحبى يبثونه أسفهم ويعربون له عن مشاطرتهم له فى حزنه وكانت حجرة الناظر تطل على فناء المدرسة ، واتفق أنه كان ينظر من النافذة فرأى هذا الحشد العظيم ، فخرج يسأل ما الخبر ، وكنت انا على محيط الدائرة التى رسمها الزحام ، فأبصرته مقبلا ولححت الخيزرانة المشهورة فى يمينه ، فسرت اليه وحييت وقلت

« يا سعادة البك (وكان يحب أن يلقب بذلك) فلان ، ابن أخته مات »

قال ، وكان اخن بطىء الكلام - والفهم أيضا - « مات ازاي يعنى يا منى يامن عبد الكادر »

قلت « يا سعادة البك ، طلعت روحه »

قال « لا حول ولا كوة إلا بالله العلى العظيم ، انا لله وانا اليه راجعون »

قلت « أيوه يا سعادة البك »

قال « الفاتحة على روحه »

توقفت أحرك شفتى وأنظر الى شفتيه اللتين تتحركان ببطء

ولما فرغ قال « وده مات بابه يامنى ؟ »

فخذلنى خيالى ، ولم يحضرنى ما كنت قد تخيرت له من الامراض ثم أردت أن أقول شيئا فجرى لسانى بغيره فقلت

« مات بالحسرة ! »

فقال « يا حفيظ يا حفيظ يا رب ! يا ساهل سترك . امتى يامنى ؟ »

ولم أكن أعرف هذه التفاصيل فما أخبرني بها صاحبي ، وساءني منه هذا التقصير ، وقلت أول ما جرى بخاطري « دلوقت أهو » فما راعني الا أن الرجل راح يصيح كالمجنون

« يا خير اسود وزى الطين ؟ الحصبة فى مدرستى ؟ ياعم أحمد . يا عم أحمد ، الحاهات الصحة هنا . يالله روح . وانت يا سامى أفندى ، فرکش لى العيال دول لحسن يا خدوا عدوى . بالعجىل يا أخى . ودى بلاوى ايه دى الى كانت مستخابية لنا فى الغيب . »

ولا احتاج أن أقول انى لم أكن أتوقع هذا ، ولا كان صاحبي ، فبهت كما بهت من قبل الذى كفر ، وذاع فى المدرسة ان الوفاة بالحصبة وان هذا مرض معد ، وانه يفتك بمن يصيبه ، فقررنا من صاحبنا وتراجعنا عنه وخلفناه واقفاً وحده فى القناء الواسع .

وذهب وفد منا الى الناظر ، وذهبت معه ، فقال أحدهم

« يا سعادة البيه ، احنا خايفين من العدوى »

فقال « أمم . ايوه تمام . برده عندكم حق ، ياسامى افندى . ادى الولد ده اجازه لحسن يعدى العيال »

فقال سامى افندى « ولكنه مش عيان يا سعادة البك ؟ »

فقال « زى بعضه . اديله بقول لك . دنا خايفه على نفسى ، ايش حال العيال المساكين ؟ »

فتقدمت وقلت

« يا سعادة البك . لكن ده ساكن معاى فى بيت واحد »

فقال « مين ده الى مسحوب من لسانه ؟ تعال هنا . أمن عبد الكادر عايز ايه يا أخى »

فاعدت عليه الخبر فقال

« روح انت الاخر اجازة »

فسألته « لامتى يا سعادة اليك ؟ » .

فقال بضجر « ما عرفشى ، روح أجازة والسلام »

فألححت وسألته « لغاية ما يموت لآخر ؟ »

فقال وهو شارد « أيوه . أيوه . روح امشى من هنا
انت وهوه »

وأظن القارىء قد أدرك من تلقاء نفسه أن موت الفلام لم يكن سوى
كذبة كذبها صاحبنا كسبا للعطف ، ولكنه ينقصه أن يعرف ، أن
أخته لم تلد غلاما وان الحكاية كانت ملفقة من أولها الى آخرها ،
أما الاجازة فلم تطل ، لان صاحبنا جاء بشهادة من طبيب بأنه صحيح
معافى البدن ، ولو لم يفعل لبقيت فى « الاجازة » الى الآن فانه لا
بزال حيا يرزق .

في طلعة العيد

ينكر أهلى على جمودى أو برودى ، أو غلاظ كبدى ، أو فتورى ،
أو لا أدرى ماذا ، فليسألهم من شاء ليعرف منهم ، فما يجرى بينى
وبينهم فى هذا كلام ، وأقصى ما يكون منهم أن يحدجونى بعيونهم
وهم يحسبوننى غافلا عنهم ، فإذا تلاقت اللحظات - لحاظهم ولحظى -
رفعوا حماليقهم الى الصورة المعلقة فوق رأسى ، فأتباله وأبتسم ولا
يندو على أنى أستغرب أن يتفق أن ينظروا جميعا ، ومعا ، وفى لحظة
واحدة ، الى هذه الصورة المشرفة عليهم من فوقى ، فترسم على
ثغورهم - أو أفواههم فانها فى مثل هذه المواقف على الأقل لا تستحق
أن تسمى ثغورا - صور شتى لما يراد به أن يكون ابتساما ، ثم ينظر
بعضهم الى بعض ، ومنهم من يتنهد ، ومنهم من ينهض ويمضى الى
المرأة اذا كانت سيدة، أو يدفع يديه فى جيبه اذا كان رجلا ، ويروح
يتمشى على مهل وهو مطرق يفكر . واعدود أنا الى كتابى أقرأ فيه -
أعنى أكتب عليه ولا أقرأ شيئا ، وأخالسهم قادير عيني فيهم ..

وهذه الاجتماعات اللذيذة تعقد فى بيتى قبيل العيد أو المواسم
الآخرى التى جرت العادة بأن تزار فيها المقابر ، والغرض منها أن
نتفق على ما نصنع فى الموسم الذى تكون الايام قد دارت به ، وهل
نخبز الفطير فى بيت أحدنا أو نشتره مخبوزا ؟ ومتى يزار قبر أبى
ومتى يزار قبر أمى ؟ ومن منا يؤدى الزيارة هنا ، ومن ذا يؤديها
هناك ؟ وهل يتعذر التوفيق والجمع بين الواجبين ليتسنى لكل واحد
من هذه الاسرة الوفية أن يزور القبرين ؟؟

وعادتى فى هذه الاجتماعات أن ألزم الصمت وأن ادع غسرى
يتكلم ، لأننى أعلم أن السؤال الذى يدور فى نفوسهم وتضطرب به
شفاههم ولا تجرى به السنتهم هو « كيف يمكن حملى على أداء هذا
الواجب » ؟ فان لى - كما لا يعلم القارىء - سنوات لم أزر فيها

قبرا ، وقد جربوا مرة أن يكلموني فى هذا فبينت لهم أنى لبيب وانه يحسن الاكتفاء معى بالاشارة ، وقد نسييت ما قالوا وقلت يومئذ ، فلا داعى لاعادته .

وكانت آخر زيارة أديت وأجبتها فى عيد الاضحى سنة ١٩٢٠ ، وهو عيد لا تزال حوادثه حية تصيح ، أعنى عندى أنا ، فما سمع بها البوليس ، ولا اتصل خبرها بالصحف ، ولا عرفها الا صديق لى مات بعد ذلك لحسن الحظ ٠٠٠ كلا لست أعنى هذا ٠٠٠ وانما أعنى ٠٠٠ لا أدرى كيف أقول !

وكانت العادة فى تلك الايام أن نخرج عصر يوم الوقفة الى المدفن ، بعد أن تسبقنا اليه خزانة القطير والحبز وسلّة الفاكهة والورود والحوص والمرسين ، والمواعين والادوات اللازمة لطهى الطعام وغسل القهوة ، والمراتب والالفة والحصر والبسط ، ومصاييح البترول وغير ذلك مما يحتاج اليه من ينوى أن يقضى ليلتين فى جوار موتاه ليؤنسهم ويجلو عنهم وحشة الوحدة الطويلة فى هذا الابد المظلم وقانا الله شره .

وكنيت آخر من ذهب - فى ظنى - فقد سبقونى ، ورايتهم بعينى يخرجون من البيت ويحشرون فى مركبة وأبصرت الجوادين المعروفين بجرانها بحملها الباهظ ، على قدر ما يستطيعان ، ولكنى لما بلغت المدفن لم أجد الا الاثاث والرياش والمواعين والادوات ، والا خروف العيد يصيح « ماء ٠٠ ماء » ، وقد شد بحبل الى حجر من أحجار قبر أبى ، فسخطت واستهجننت أن يربط الخروف الى قبر أبى ، وأن يزعج رفاته بصيحاته العالية ودبيبه المتواصل ، وكان فى الحجرة قبر آخر قديم دفن فيه - قبل مولدى - من لا أعرف . فنقلت الخروف اليه ، وأنا أقول ان الذى فى هذا القبر قد شبع موتا ولا شك ، فلن توقظه أو تتلف أعصابه دبات هذا الخروف الصخاب ، وعلى أنى لا أعرف من يكون ، ولعله غريب متطفل ، وعسى أن يكون لمفاوى المزاج أو كثيف الجلد ، فلا خوف من أن ينفص الخروف عليه رقدته ، أما أبى فقد سمعت من أمى أنه كان رقيق الشعور حى الاحساس ، ساكن الطائر ، يحب الهدوء ويكره الضوضاء ، وهو - على كل

حال - أبى ، وإن كان رحمه الله وعفا عنه ، قد شاء أن يعجل بالانتقال الى تلك الدار الآخرة قبل أن أبلغ السن التى أستطيع فيها أن أنازل أخى الأكبر - رحمه الله أيضا - وأن أمنعه أن يبدد مالنا ..

وأحسست ، لما طاف هذا الحاطر برأسى ، بما يشبه أن يكون موجهة ، على أبى ، ورأيتنى أقرض أسناني ، وهى قوية حادة ، فخطوت الى القبر الآخر - قبر المجهول - ومددت يدى الى الجبل ، وهممت بأن أفكه وأن أعيده الى قبر أبى ، وترددت برهة ، ثم ذكرت أن أخى - الأكبر فإن لى أخا أصغر - مدفون مع أبيه ، فزال التردد ، وقلت وأنا أعيد الحروف الى مكانه الاول :

« الحقيقة ان أبى كان ينبغي أن يكون أذكى من ذلك . ماذا يصنع بنا جميعا ؟ ألا يكفيهِ أن يكون له ابن واحد - مثلى مثلا ؟ أكان لا بد أن يجرى الى الدنيا بجيش منا ؟ أخ أصغر وأخ أكبر - ما هذا الكلام الفارغ ؟ ! وهناك أخوة آخرون ماتوا فى طفولتهم . فلو أنهم حلت فى عيونهم الدنيا وعاشوا أيضا لكننا ماذا ؟ قبيلة ! والمصيبة أن هؤلاء الاخوة الاموات كلهم أسن منى ، يعنى أنى كنت أكون أخا أصغر لو أنهم خطر لهم أن يعيشوا . بففف !! فيظهر أن أبى لم يكن قنوعا ولا كان يحب الهدوء كما تزعم أمى ؟ ! »

وشددت الجبل الى قبر أبى ، ورضيت عن نفسى ، وشرعت أنفض التراب عن كفى ، وأنا أحدث نفسى بأننى لا أريد - حين يقسم لى أن أموت - أن أحشر فى هذه الزمرة ، كلا ، الدنيا - أو على الأصح الآخرة - واسعة ، ولا موجب لأن أكون معهم فى الحياة وبعد الموت أيضا .. لا .. ان هذا يكون كثيرا .. ان أقل ما يقتضيه العدل .. أوه ! من هذا ؟

ونظرت الى الواقف بجانبى مستغربا ، نعم كنت أتوقع أن يقتحم المدفن بعض القراء ، ملحين ملحفين ، ولكن هذا لم يكن قارنا ولا شبيهه وإنما كان شيئا مرعبا . فقد كان طويلا عريضا ، لو أن طينته كانت قد خلطت بطينتى لأمكن أن يخلق منا رجلان رائعان ، فكيف وهو قد استأثر بالطين كله يوم خلق ، وفى هذه اللحظة التى وقف فيها الى جانبى وبين أسنانه سكين طويلة مسنونة لامعة ؟

ولم يطل فزعى ، فانى حاضر الذهن سريع البديهة ، ولو كان
غري فى مكانى - اى فريدا فى هذا المدفن ليس معه الا موتى لانجدة
فيهم ، وخروف ، فى لحمه الغريض ، لا فى غوته ، المطمع ، لهالته
هذه السكين الحامية ، ولا حبس بخياله من فرط الرعب أن حدها
يحز فى عنقه ، ولكن هذا الذى كان خليقا أن يرعبنى هو الذى رد
الى نفسى وأسبغ على حلة ضافية من الشجاعة والثبات . وهل غريب
أن يدخل جزار لعله يفوز بدبح هذا الخروف المسمين المفرى ؟

وابتسمت وأنا أقول للجزار :

« غدا • غدا يا صاحبى • فما زلنا فى يوم الوقفة » .

فلم يتكلم لأن السكين بين أسنانه واكتفى بأن يزوم :

وهممت بأن أنصرف عنه ، فما بقى كلام يقال ، بعد أن أخبرته أن
فى عمر الخروف يوما آخر ، أو ليلة على الأقل ، ولكنى لم أشعر
بحركة تحركها فالتفت إليه مستغربا بقاءه ، فتناول السكين يميناه
وقال - بلغتى أنا لا بلغته العامية السخيفة - :

« تنج • تنج » .

وكان يشير بذراعه التى فى طرفها يده التى كانت أصابعها مثنية
على مقبض السكين ، فلا بدع اذا كنت قد تنحيت •

وقلت له وأنا أراجع :

« ماذا تعنى ؟ لقد قلت لك ان هذا الخروف لا يذبح الا غدا • فهل
تريد أن تقصف عمره قبل الاوان ؟ »

فقال وهو يمشى الى حيث الخروف ويلوح بالسكين :

« أدخل هناك ... امضى الى هذا الركن ... »

فلم أفهم وقلت : « ولكنى لا اريد أن أذبحه اليوم .. أما ان هذا
لعجيب ؟ ثم انى لا أحب أن أرى أحدا يذبح أمامى ولو كان خروفا »
فقال : « سأذبحك أنا اذا لم تفعل ما أمرك ! »

قلت : « تذبحنى ؟ تذبحنى أنا ؟ »

قال : « نعم • فاطم ولا تجادل »

قلت متشجعا : « ولكن لماذا ؟ هل أنا •• أشبه الحروف ؟ »

وارتفعت يدي الى رأسى تتحسسه ، كأنما تبحث عن القرنين !
وضحك هو وقال :

« أدخل • أدخل ••• هذا أحسن »

هذا لأننى شرعت أمشى الى الركن الذى أشار اليه ، وكنت أقول
لنفسى :

« اذا كان كل ما فى الامر أنه يريد أن يسرق الحروف فقد هانت
المسألة •• فليأخذها وليذهب به الى جهنم •• وعسى أن يلهم الله
الحروف أن ينطحه بقرنيه العظيمين نطحة ترديه ••• »

وقطع اللعين خواطرى بأمر جديد :

« أخلع هذا »

فحسبته يشير الى الخدابين ، فنظرت اليهما أسفا فقد كانا جديدين
مصنوعين للعيد خاصة ، ولكن ما حيلتى ، وهذا الوحش الاحمق يريد
أن يسلبنيهما ؟ • وخطر لى أن أصرفه عنهما فقلت :

« اسمع يا صاحبي ، لست أبخل عليك بالخدابين ، فانى كريم ،
ولكنهما لا يصلحان لأحد سواى ، أنظر اليهما ؟ ألا ترى أحدهما على
الكعب والثانى قصيره ؟ ذلك لأن ساقى متفاوتا الطول ، والسبب
فى ذلك شرحه يطول فلنتجاوز عنه ، اذا سمحت ، فاذا أخذتهما لم
تستطع أن تلبسهما ولا أن تبيعهما •• أرايت ؟ من الواضح جدا
أنهما لا خير فيهما لك ولا لغيرك •• »

فضحك الخنزير وقال :

« لا أريدهما •• فأبقهما •• وهنيئا مريئا •• انما أشير الى
البنطلون •• فصحت : « ايه ؟؟ »

قال : « لا حول ولا قوة الا بالله !! لم أكن أظنك أصم .. اذن
لا فائدة فى الكلام .. وعبثاً أبج صوتى معك .. فلارحمك منهما
بيدى »

فعدت أصيح وأنا مذهول :

« ايه ؟ تقول البنطلون ؟ هيه ؟ »

فلم يعبأ بى ، وتناولنى كما أتناول أنا فراشة ، وأقبل على
البنطلون ، فصحت به مرة أخرى :

« ارفع يدك .. دعنى أنا أخلعه .. يا .. »

وأمسكت ، فما من الحكمة أن أشتمه ، وإن كانت الحكمة كل
الحكمة أن أقتله لو أنى أستطيع - وأن أدفنه ، أين ؟ مع أبى ؟ مع ..
مع هذا الدفين المجهول .. أو فليكن مع أبى ، فما عدت أبالى شيئاً .
ومددت له يدى بالبنطلون ، فطواه تحت أبطه وفك جبل الحروف
واقتراده وهو يقول :

« الآن أستطيع أن أثق أنك باق هنا » .

فلم أفهم ، ولى العذر ، فإن هذا الضرب من أساليب التفكير .
تفكير السفاحين الذين يحملون على أجسادهم طوائف شتى من
الايواح والاقذار . وبين أسنانهم سكاكين طويلة لو رآها فيل عظيم
لتضائل من الرعب حتى صار دجاجة هوجاء .

وقال السفاح شارحاً :

« نعم . الآن لا تقدر أن تخرج ورائى لتثير الناس وترسلهم فى
أثرى » .

قلت وقد هدأت نفسى :

« اطمئن . اطمئن . ان أسفى ليس على الحروف . فخذها واذهب .
ولا بورك لك فيه ، أو بورك لك فيه - سيان عندى . انما حزننى على
البنطلون يا هذا ، ولو أنك فى حياتك لبست مثله مرة ، لفطنت الى

ما أعانيه من الألم والغيظ أو الحلق ، ولكنك .. اسمع . اذا رددت البنطلون، فاني أتعهد لك بأن أدع لك الحروف ولا أتبعك .. هات مصحفا وأنا أقسم لك عليه .

قال وهو يبتسم : « هات أنت مصحفا وأنا أحلف لك عليه أنى لا أصدقك ، وخرج .

وماذا يجدى الغيظ ؟ ما خير أن أقطع عشرة فراسخ وأنا أروح وأجىء فى هذه الحجرة ؟ وماذا ينفعنى أن أشد شعر راسى وألکم الهواء بجمع يدى ، وأصّب على رأس اللعين الذى اختفى بالبنطلون خرطوما حاميا من اللعنات النارية ؟

لا فائدة على الإطلاق !

واستندت على قبر أبى واندفعت يدى الى جيب البنطلون الذى ذهب ، فلم تدخل فى شيء فعدت الى اللعن والشتيم ، وكنت أريد مندبلا فمسحت عرقى بكفى وأشعلت سيجارة ، ووقفت أدخن ، ثم تذكرت فجأة أن باب المدفن لا يزال مفتوحا كما كان . وانى مهدد بالزائرين من هذا الطراز .. وخفت اذا تركت الباب مفتوحا أن أتعرى شيئا فشيئا حتى يصل الامر الى السروال ! فعدوت أريد إبعاده .

ولم أكد أضع يدى عليه حتى رأيت صديقا لى يرفع رجلا ليتخطى العتبة العالية ، فتركته يدخل وأغلقت الباب وراءه ودفعته - أعنى صاحبى - الى الحجرة المنحوسة وهو يتعثر أمامى ويعجب ويقول : « آيه ؟ آيه ؟ جرى آيه ؟ ما هذا المزاح ؟ »

قلت : « لا مزاح .. اخلع هذا .. بسرعة .. حالا ،

قال : « هذا .. - ؟ ماذا جرى لك ؟ »

ونظر الى ساقى المجردتين مما ألف هو وسواه أن يرى عليهما من الكسوة ، فقلت :

« عجل .. عجل .. »

قال : « هل جئنت ؟ أين بنطلونك ؟ »
قلت : « على ساقيك - أعني أنك ستخلعه وألبسه أنا ! »
قال : ولكنى لن أفعل شيئا من هذا . . . »
قلت : « ستفعله مرغما . . . »
قال : « مرغما ؟ »
قلت : « نعم . . . بحد السكين ! »
قال : « السكين ؟ »

وسررت أنى شعرت بفتور وضعف فى صوته ، ورأيت وجهه يتغير قليلا ولا شك أنه ظن بعقل الظنون ، ولكن هذا لم تكن له أضال قيمة فقلت ملحا

« السكين . . . هل أنت أصم ! اذن لا فائدة من الكلام . . . وبج الصوت . . . سأخلعه عنك بيدي هاتين وإذا قاومت فانك تكون الجانى على نفسك . . . فلم يقاوم

ومنذ ذلك التاريخ ، زهدت فى القبور وكففت عن زيارتها ، وقلت لنفسى من شاء أن يموت فليمت فليس هذا ذنبى .

التدخين

بدأت اعتاد التدخين منذ خمس وعشرين سنة ، وأمر هذا الرقم معي عجيب ، فاني أرى كل شيء لي يرجع الى خمس وعشرين سنة ، حتى لقد أخذت أشك في سنني ، وعلى أن العبرة بالاحساس لا بعدد السنين ، فمن كان يحس أنه ابن عشرين فليس يضيره أن تقسول شهادة الميلاد انه ابن أربعين أو خمسين أو ستين ، ومن كان يشعر بالتقدم ، وأنه هرم كالجبال ، وأنه أخو نوح أو آدم ، فليس بنافعة أن تخبره الشهادة أنه ما زال في عنفوان الشباب ، وكنت في ذلك الوقت سقيم الأعصاب مضطربها ، وبلغ من سوء حال وتلف أعصابي اني كنت أقصد الى دار الكتب وأقضي فيها ساعاتي أو حوالى ذلك أقرأ وصف الامراض وأسبابها وما تحدثه وتؤدي اليه ، ثم أسال نفسي : أى هذه الادواء بي ؟

ولم أكن أختار منها الا أختبها وأسوأها مغبة ، ولا يرضيني الا أن تكون في أشد حالاتها استعصاء على العلاج ، وحدث مرة أن انتقيت لنفسى منها طائفة صالحة ، وقصدت الى صديق لي وقلت له :

« اسمع يا صاحبي : اني مصاب بالسل ... »

قال مرتاعا « بالسل ؟ » أتقول بالسل ، »

قلت « نعم بالسل ، وبالسرطان أيضا ، وأغلب الظن اني أصبت كذلك بذبحة صدرية »

قال « هل جئت ؟ كيف تتوهم ... »

قلت مقاطعا « أتوهم ؟ ! لقد قرأت كل ما كتب في هذه الامراض فوجدت كل أعراضها عندي ، ولم أجد لا أخبرك بهذا ، بل لادعوك الى مرافقتي الى الدكتور من قريبك »

واتفقنا على اللقاء فى موعد قريب ، ثم مضينا الى الدكتور ، وكان اليوم يوم جمعة ، ولا عيادة له فيه ، ولكنه تفضل فقبل أن يرانى فى ذلك اليوم ، وكان حديث العهد بفرنسا ، وقد عاد منها بلحية كثرة كأنما وضع على صفحتى وجهه جناحى غراب ، وجلسنا دقائق ننتظر ثم أقبل الدكتور لابسا « الردنجات » احتفاء بمقدمى فيما اعتقد

وجلست أمامه فى غرفة الكشف فنظر الى مليا ثم قال «نعم»

قلت « نعم ؟ »

قال « تفضل »

قلت « اتفضل ؟! يعنى ماذا »

فقال « ماذا بك ؟ »

قلب « أعتقد انى مريض بالسل »

قال « بالسل ؟ »

قلت « طبعا . وبالسرطان أيضا ، وبالربو والسكر والزلال »

فقال « مهلا . مهلا . انتظر قليلا »

قلت « انتظر انت »

وأخرجت ورقة فيها أسماء الامراض الاخرى فقرأت « وبالذبحه الصدرية ، والملاريا والنقرس ، ويجوز - لانى غير متأكد - انى مصاب بالفالج وبحمى النفاس ! »

فادهشنى انه صار يقهقه كأن فى جوفه الغاما تنفجر ، فجعلت أنظر اليه متفرسا وقد طاف برأى أنه مخبول ، وشعرت بالخوف يستولى على ، وأشفقت أن ينالنى منه سوء ، ولكنى قلت . وماذا يخاف أو يتقى من يعانى كل هذه العلل ؟

وأقبل على الدكتور يقول بعد أن فرغت الالغام

« لناخذها واحدا واحدا • بالترتيب • ولتبدأ بالسل • فهل
تسمح لى أن أختبر صدرك ؟ »
قلت « صدري لماذا ؟ »

قال باسم « لا ترى الى اى مرحلة بلغ السل »
قلت « وهل هذا ضرورى ؟ أعنى انى لا ادرى كيف تريد أن تختبر
صدري ؟ ماذا تصنع به ؟ »

قال « لا شيء • لا تخف فلن أخطفه أو أكله • اخلع هذه الثياب »
فجعلت أنضوها • المعطف أولا ثم السترة فالصديرية ثم ما تحت
هذه ، وكانت أشياء كثيرة لا يأخذها الحصر فقال الطبيب •

« ماذا تظن نفسك ؟ كرنبة ؟ خرشوفة ؟ دكانا متنقلا ؟ وأين أنت
فى هذه الثياب ؟ انى أخشى أن لا أجذك بعد طول العناء » !
واختبر ما شاء ثم قال

« أسف يا صاحبي • لا أمل لك فى أن تصاب بالسل • فهات غيره
فإن جمعتك حافلة على ما أرى »

وهكذا ظل يوثسنى من مرض بعد مرض حتى شككت فى علمه ولم
تعد بى ثقة بطبه ، ثم قال آخر الأمر •

« اسمع يا صاحبي • إن أعصابك مرهقة ، فأرح نفسك قليلا ،
وأضحك وألعب كثيرا ولا تجالس من يقول إن الدنيا دار شقاء »

وقد فعلت - أعنى أنى من ذلك الوقت وأنا أضحك وألعب ولا
أجالس الذين يزعمون أن الدنيا دار شقاء ، ولا أفتح كتابا فى الطب
فقد رأيت أن قليلا من العلم يضل ويحير •

وأعود الى التدخين فقد استطردت عنه لغير سبب أعرفه ، فأقول
انى كنت مرة أسير فى الصباح على جسر قصر النيل ، وكان ترام
الجيزة ينتهى عنده - فى الجزيرة - وكنت يومئذ مدرسا فى المدرسة
السعيدية الثانوية ، فأردت أن أدرك الترام فعدوت ، فنهجت وانقطع

قلبي واضطربت أن أقف لاستريح ، وشق على اني في شبابي لا
أستطيع أن أجرى مائة خطوة ، وأغرورقت عيناي بالدموع فاخرجت
علبة السجائر وعلبة الكبريت والقيتهما في النيل - للسماك، وتوكلت
على الله واستأنفت السير

وظللت يومي هذا فرحا مقتبضا بجدة العزم وصرامة الارادة

وما لقيت أحدا من معارفي أو حتى ممن لأعرف الا أخبرته اني
كففت عن التدخين ، حتى عامل الترام قلت له وأنا أناوله القرش
« اليوم رميت السجائر في النيل . يا اخي ماذا كنت صانعا غير
ذلك ؟ تصور شابا مثلي يجري مائة متر فتنتقطع أنفاسه ! هل تدخن
أنت ؟ »

قال « أي والله مع الاسف »

قلت « لا لا . هذه جنايه على نفسك روح ارم هذا الدخان في
النيل »

قال « لا أستطيع »

قلت « كيف لا تستصيع ؟ الا تراني أمامك ؟ ألم أستطع ؟ لماذا
لا تكون مثلي ؟ »

قال « كم يوما لك ؟ »

قلت وأنا أحك رأسي « ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ربع ساعة »

فضحك وقال « آوه ! آه ! ربع ساعة ؟ ابق قابلني »

قلت « كلام فارغ » وانصرفت عنه نادما على الكلام معه

ولم أشعر في ذلك اليوم بالرغبة في التدخين ، لاني كما أسلفت
كنت فرحا بنفسي ، مسرورا بامضاء العزم ، وفي اليوم الثاني أصبحت
مكتئبا كاسف البال مطاظي الرأس أجر رجلي اذ أمشي ، ولم أكل
شيئا قبل الخروج كما كانت عادتني أن أفعل ، وشعرت بعطف عجيب
على نفسي وعلى الدنيا كلها ، ورقة في قلبي لا عهد لي بها ، فما سألني
أحد في ذلك اليوم شيئا الا أسرع في اجابته اليه ، ولقيني متسول

ويده مبسوطة فوضعت فيها نصف ريال ، وطلب زميل أن يستعير منى كتابا فوعده بأن أحمل اليه مكتبتي كلها فى الغد ، ودخلت فى المساء مقهى فالقيت صديقا لى يشرب رطلا - فما يقل عن ذلك - من الجعة فدفعته عنه الثمن فأغراه هذا الجود بأن يسر الى أنه يكون مسرورا شاكرا اذا أقرضته جنيها يرده فى أول الشهر الجديد فأشرق وجهى - وقلت :

« جنيه ؟ جنيه واحد ؟ هذا ظنك بأخيك ؟ يا سبحان الله ! »
قال « أظن أنه كثير عليك ؟ اذن اجعله نصف جنيه . وسأرده والله ! »

فقلت « لا لا . انى استقله ولا استكثره . لقد كنت انتظر منك أن تكون أحسن بى ظلما من أن تكفى بجنيه »
قال وقد لمع فى عينيه نور البشر
« نقول جنيه ونصف ؟ .. أو ... ربما استطعت أن تستغنى عن اثنين ... مثلا ... ؟ »

قلت « هل يكفىك خمسة ؟ أو عسى أن تكون حاجتك أشد ... »
فلنقل عشرة جنيها ، قانع ؟ حسن اذن! سأسببك الى البيت فمر بى لا عطيكها »

وخرجت أمشى عائدا الى البيت ، فقابلت صديقا دعوته الى العشاء فى منزلى أيضا ، فلما صرت فى غرفتى عاودتنى الكتابة ، وثقل على الاحساس بأن كل شيء ينقصنى ، وضاق صدرى ، وساورتنى هموم غامضة . فجعلت أتمشى وأنا مضطرب ، وكانت حركاتى حادة ، عنيفة ، ولمحت كرسيها فى زاوية فسرت اليه فجعلت أركله حتى قدفت به خارج الغرفة ، ودخلت الخادمة على تسألنى ماذا صنع الكرسي وبأى شيء استحق هذا منى ، فقبضت على عنقها وكدت أخنقها ، فلولا أنها تخلصت - لا أدرى كيف ؟ لما تركتها الا ميتة ، ولم تبق فى نفسى ذرة من العطف على أحد من خلق الله ، وطميت كما تمنى نيرون - أم ترى غيره الذى تمنى ذلك ؟ - أن يكون لأبناء آدم جميعا عنق واحد فاضربه بالسيف ، ونظرت الى الكتب على رفوفها فعبست

وأقسمت لأؤدبن ذلك الذى اجتراً أن يستعير أحدها
وصفق فى فناء البيت صاحبه الذى وجدته فى البار ووعده أن
أقرضه - أو أهبه فقد كان المؤدى واحداً - عشرة جنيهات ، فأشرفت
عليه من النافذة وسألته عما يريد

فقال « هات الامانة يابطل وأكثر الله من أمثالك »
قلت وأنا أتميز من الغيظ « أى أمانة يا حمار ؟ »
قال ووجهه الى فوق ويسراه تسند طربوشه من الخلف لئلا يقع .
« الله يسامحك طيب هات بقى »

قلت « ألا تنوى أن تخرج ؟ »
قال « لا بأس . اذا كنت لا تريد أن تنزل فأرم الامانة فى منديل »
فتناولت كرسيًا قريباً وقذفته به ، فخرج يعدو وهو يسب ويلعن
وبعد برهة دخل صاحبه الثانى الذى دعوته الى العشاء ، وصفق
كالاوّل فأطللت من النافذة وفى عزمى أن ألقى على رأسه زهرية
فأحطمتها معا ، ولكن عيني أخذت سيجارة فى فمه ، فارتدت عن
النافذة وهبطت اليه كالجر الساقط ، ودفعت يدي فانتزعت السيجارة
من فمه وارتميت على كرسى وقعدت أدخّن . فنظر الى مبهوتا ، ودنا
منى وهم بأن يقول شيئا فرفعت يدي وقلت :

« هس ... ليس الآن ... انتظر لحظة ... حتى أدخّن هذه
السيجارة ... » وجعلت نفسى تعود الى ، شيئا فشيئا ، وأساير
وجهى تنبسط ، وفرغت السيجارة فقلت :
« هات أخرى ... هات بالعجل . »

فلما دخنت نصفها ابتسمت راضيا عن نفسى وعن الدنيا ونهضت
أقول .

« أهلا وسهلا ... يا ألف مرحب ... تفضل »
وصفقت فجاءت الخادم المذعورة وفى ظنّها انى سأبقر بطنها على
الاقل ودخلت على حذر ، غير أنها أبصرتنى أضحك وسمعتنى أمزح
فاطمأنت ، وناولتها رايالا وقلت :
« هاتى سجائر ... هاتى به كه . حالا ... »

بين الحياة والموت

كان ذلك فى ليلة من ليالى رمضان • وكان بيتى يومئذ قريبا من « عين الصيرة » وعلى بضعة أمتار من الطريق المهد المرصوف الذى يخترق الصحراء بين الامام ومسجد عمرو • وفى هذه الصحراء تقع مدينة الفسطاط • وكانت عادتى أن أحيى الليل مع أصحابى بالقاهرة حتى اذا انتصف - أعنى الليل - تناولت العصا وانثنيت ماشيا فلا أزال أدب برجلي وبالعصا حتى أبلغ البيت بعد ساعة ونصف ساعة فأجد طعام « السحور » مهيا وأصيب منه كفايتى وأشرب القهوة وأنام - الى الظهر •

وجزت فى ليلتى تلك الامام الشافعى وانطلق مدفع السحور فأسرعت وصرت فى الشارع المؤدى الى الامام الليث ، فلمحت من بعيد شيئا كالمارد يسد الطريق • ولست ترعابة ولا أنا حديث العهد بسرى الليالى فى هذه المنطقة على الخصوص ومع ذلك سرت فى بدنى رعدة ورأيتنى أتبطا وأميل الى الحيطان • ودنوت على مهل ولكن الشبح لم يتحرك ، فشجعت نفسى وقلت لعل عينى تهذيان من التعب أو الجوع أو غيرهما • وأقبلت فى غير اطمئنان ، واذا الولاقف مجنون مشهور أعرفه هادئا لا يمس أحدا بسوء • ولكن المجنون هو الجنون ، وليس ثم ما يمنع أن تهيج لوثته ، وليتصور القارىء رجلا عريضا كالحائط ، ضخما كالفيال الصغير قد لف وجهه فى حية كثة طويلة لم يشذ بها مقص منذ سنوات ، وقد انفرج جيب القميص الازرق الذى يلبسه على لحمة عن صدر عليه غابة من الشعر ، وساقاه كالعمودين ولا يغطيها القميص الذى يقصر عنهما ، وقد اعترضك فى طريق موحش وليس الى جانبك أو على مقربة منك أحد • الحق أقول اتى خفت أن يأكلنى ! ولم لا ؟ ألم أره قبل ذلك يطوى الرغيف طيتين وينسه فى فمه مرة واحدة وشدقه مع ذلك لا ينتفخ كان الذى فيه ليس رغيفا كاملا

قطره عشرون سنتيمترا ؟ ألم أبصره يشرب الماء من « الجردل » يرفعه
 ملان فيصيب ويصب ولا يضعه الا فارغا ؟ والناس يمصون « القصب »
 وهو يأكله بقرشه . ويكسرون « جوز الهند » بالحديد وهو يقرضه
 بأسنانه بلا عناء ولا جهد ، فماذا يمنع أن يفرز أسنانه في حلقى أو
 يستملح ذراعى فيملخه أو ... ؟

« ولم أمتطب هذه الحواطر ولم يرقنى أن أتصور نفسى اشلاء
 ممزقة بين يديه وفمه ، وتخيلت هذه الطواحين التى فى شدقيه دائرة
 على عظامى - فما يكسوها الا جلد رقيق - تفتتها ، ويصبح الصباح
 فاذا المازنى قد غاب ، بلعه هذا المجنون فاستولى على الرعب ودارت
 عينى فى كل ناحية وانطلقت اجرى فى زقاق ضيق يفضى الى ارض
 غاصه بالمقابر حتى ليس بين القبر والقبر متر واحد ولم يكن فى وسعه
 ان يدركنى لانى خفيف سريع ولى من الفزع مستحث لايفتر ، وهو
 ثقيل بطىء ، ولكنى لم أترث ولم أتلفت وذهبت أعدو فى الظلام
 الحالك وأصطدم بحجارة القبور وأتعث بينها حتى سكنت نفسى قليلا
 وارتد الى بعض ما طار من عقلى ، فوقفت وأدرت وجهى أنظر وان
 كنت من كثرة القبور المنتشرة وتعرج الطريق بينها وشدة الظلام لم
 أعد أدرى من أى اتجاه جئت ولا الى أين أنا سائر

وفى الامثال « جن الذى نجا من الموت »

كذلك أنا - سرت على مهل وعينى تارة الى الامام وتارة الى الورا -
 فقد كان الخوف لا يزال فى قلبى فاذا بى أهبط فى جوف الارض -
 هبوطا عموديا لا تدرج فيه ولا ميل - ذلك انى وقعت فى قبر قديم
 خرب

وكان اول ما طاف برأسى أن ماذا اصنع اذا دركنى هذا المجنون وأنا
 فى هذا القبر ؟ ورفعت عينى الى فوق كأنما توقعت أن أراه جاء ينظر
 الى ، ولكننى طردت هذا الخاطر المخيف وقلت - ونا قاعد على التراب
 والاتقاض - « ان المسألة هى كيف أصعده وبعبارة أخرى ، أين السلم
 اذا كان قد بقى منه شئ » ؟ ومن الغريب أن كون القبر خربا متهدما
 وان فيه لا محالة عظام موتاه لم يفرغنى ، كأنما كان لقاء هذا المجنون

قد استغرق كل ما فى نفسى من الخوف واستنفده فلم تبق ذرة لغيره ،
فنهضت وقلت توكلت على الله . ودرت على عقبى الى الجسدان لملى
أهتدى الى مصعد . وانحنيت لابصر واتقى أن أصدم بشيء . وممدت
رجلى لا أخطو قدسيت ما حسبته سن حجر صغير . وإذا بانسان يستوى
واقفا أمامى ويطوق عنقى بذراعيه

أحسب صرختى فى تلك الليلة وأنا فى جوف القبر وبين ذراعى
الجنة قد حركت الموتى فى مضاجعهم ، ولقد مضت على تلك الحادثة
خمس عشرة سنة ولكنى مع ذلك كلما ذكرتها أنتفض ولحس بالعرق
البارد يتصبب من جبينى وأطراف أصابعى . وقد أصابتنى بعلمها
النيراستينيا ولبثت أعانى كriebها وغصصها شهورا طويلة . وكار
أوجع ما أكابد انى لا أصدق طبيبا ولا أطمئن الى دواءه ولا أتوهم انى
مصاب ألا بأشنع امراض وأفتكها . فمرة يغيل الى انى مريض بالسل
فأطوف بالأطباء واحدا بعد واحد ويؤكد كل منهم انى سليم الجسم
معافى البدن فأخرج وأنا أشد إيمانا بانى مسلول . وتارة أتوهم
انى مصاب بالسرطان فى المخ أو فى المعدة أو فيهما معا . فيضحك
الأطباء ويقهقهون فى وجهى فلا أطمئن بل استاء ويسخطنى عليهم
انهم يابون أن يوافقونى وكان كثيرا ما يحدث أن يجىء الطعام فأجلس
اليه وأنا شد ما أكون اشتهاه له ورغبة فيه ، وأمد يدي لأصيب منه
وإذا بى أكبج نفسى وأنهض وأناموقن أن الحمى ستصيبينى وانى سأهذى
بعد دقائق وانى ميت فى هذه المرة ، مافى ذلك شك ، ويشيع فى
الرب فادعو أهلى أن يحيطوا بى وأن يلمسونى ويمسكوا يدي ورأسى
ورجلى . أو أن يحتضنوني كأن روحا شريفة ستخطفنى . أطل
كذلك ساعة وساعتين أقاسى من الفصص والأهوال مالا قبل لأحد
بتصوره ، والطعام مهمل حيث كان ، وقد قام عنه كل أحد وأقبل
على يعنى بى ، والقطط تلتهمه وهى آمنة مطمئنة ولا تكلف نفسها أن
تختطف وتجري على عاداتها ، ثم أفيق ويزايلنى الاضطراب وأعود
وكان لم أكن قبل دقائق أشبه بالمجانين .

وإذا نظر المرء بعين العقل فلا داعى لأن يخيفه وجوده فى قبر أو
معانقة جثة له ، وليس فى الموت نفسه ما يروع ولكن أعصابى كانت
كالوتر المشدود ، بعد لقاء ذلك المجنون الذى كتب لى أن ألقاه مرة

أخرى وأن يكسر لى عصاى ، وكان للمفاجأة فعلها وللظلام وقعه ، وقد أغمضت عيني لما طوقتني الجثة وارتددت الى الوراء حتى لصقت بالجدار ومع ذلك أراني كأنى كنت قد أبصرتها تحت نور الشمس ولا يزال أمامى الى هذه الساعة ذراعاهما الممدودتان عموديتين على صدرها ، وأصابعها المتشابكة كأنما كانت الحياة قد ردت الى صاحبتهما فى القبر برهة فجاءدت ثم أدركها الموت ثانية ، وساقاها المثنيان ، وأصابع قدمها ، المتتوية ، والشعر الذى تموج خصله على كتفها ، والقم المفتوح كأنما كان يصرخ ، وصفا أسنانها وأضراسها يلعبان فى سواد القبر ، ومحجرا عينيها اللتين لا أشك أن نظرتهما كانت الى فوق كأنما تعلقت بشئ مفرع .

وتفسير ما حدث هو انى دسنت على أصابع الرجلين فانتفضر الجسم قائما ودخل رأسى بين الذراعين لا أدري كيف ؟ فتعلقت بى الجثة ، وأعجب ما حصل انى لم أفكر فى تخلص نفسى من هذا العناق ، بل أخذت أحاول الصعود من هنا ثم من هنا والجثة منعقة بى وحركتى تدفعها الى اليمين فيطالعنى وجهها الصارخ ، وأخرى الى اليسار فيخيل الى أنها تسخر منى وتضحك ، وتارة تكون على ظهري ويدها تحت ذقنى وشعرها يلامسنى ، حتى وفقنى الله وخرجت من القبر

وشرعت أعالج الفكاك منها ، وكانت الى يمينى ، وإذا بى أرى أصابعها مشتبكة برباط رقبتي ، فاندفعت كالجنون أخلص نفسى منها حتى أخرجت الرباط من بين أصابعها ، فدارت الجثة حولى وواجهتنى بكهفى فينيها وبقمها المفتوح اللامع الاسنان ، وقد صار شعرها على كتفها ، واضطرت أن أسندها حتى أخرج رأسى من بين ذراعها ولم أكد أقفل وأرخص يدي ، حتى كانت الجثة قد غابت عن نظري

فلو كنت حاضر العقل لادركت انى على حافة القبر وانها سقطت فيه ، ولكنى كنت مذهولا ، واجف القلب ، مستطار اللب ، فخيل الى انها غاصت فى الارض ، وهتف به هاتف من الوجل والاضطراب انها ليست جثة ميتة بل روحا أو شيطانا أو عفريتة من الجن برز لى على هذه الصورة ، فلم أتحرك كأنما كنت قد سحرت أو مسخت حجرا . وظللت كذلك لا أدري كم حتى سمعت مدفع «الرفع»

فى هذه اللحظة فقط أفقت - ولكن القبر الذى حملت جثته كان كأنما يقيدنى اليه فقعدت على الارض وهممت أن أضع رأسى بين كفى . غير انى ذكرت انهما امسكتا الجثة وعالجتا اصابعها ، قمدت ذراعى وأسندت كوعى على ركبتى ، ماذا أصنع بيدي الآن ؟ يدي اللتين تناولتا الجثة بينهما ؟ يداى هاتان كيف استعملهما بعد ذلك؟ وثيابى ؟ أوه ، ثيابى أحرقتها - أخلعها الآن اذا شئت . ولكن يدي ، يدي وذقنى ؟ وأحسست كان الجثة قد عادت تطوقنى بذراعيها فانتفضت قائما وقد علودنى الذعر

كلا ، يجب أن أعرف أهى جثة ميت أم . . . أم ماذا ؟ لا أدري ! وانما الذى دريه أن على أن أثبت وأن أعرف أين ذهبست الجثة ؟ وتحسست الارض بقدمى فعلمت انى على شفا القبر الذى كنت فيه . اذن الجثة قد هوت اليه ، واستقرت فيه مرة أخرى ؟ لا شك . ولكن من يدري ؟

فقطعت الشك باليقين وانحدرت الى جوف القبر لا تحقق . . .

ودخلت على أمى وزوجتى فى فجر ذلك اليوم بوجه ميت ، وعينى مجنون ، فبهتتا وسألتا والنا ، ولكنى أويت الى فراشى فى صمت وسكينة متكلفة وأصبحت غبرى

وسمعت أمى يوما تقول لزوجتى « لقد تغير ابنى منذ تلك الليلة ، اذكرينها ، ترى ماذا وقع له ؟ ألا تستطيعين أن تستدرجيه؟ » فقالت « كلا ! وخير الا أفعل اذا صدقت فراستى . . »

ولست الآن أخشى القبور أو أفزع من حلالها أو أرهب عناق الجثث لو خطر لها أن تضمنى بين ذراعيها ، فقد تبدلت ولم تبق لى الحياة عقلا يطير أو لبا يزدهف أو أعصابا تضطرب ، وصرت كدافن الموتى الذى يقول عنه « هازلت » (انه يضرب الموت على ركبتيه)

جيرة السوء

كان الشرطى - على خلاف المألوف أو المعتقد - وديعا لين العريكة، طويل البال ، ظريفا ذكيا ، ولم يكن كذلك جاره الذى يستنكف من هذا الجوار بعد أن استغنى ، ويرى أن من المهانة له أن يجترىء على السكنى لصقه ، شرطى بسيط لم يبلغ حتى أن يكون (شاويشا) . وكان الجار مدرسا أثرى من كتبه فابتننى له بيتا تخير له موقعا فى رقعة لم يكن أحد يظن أن سيتمتد إليها العمار ، فلم يبهظه ثمن الأرض ولا تكاليف البناء لقرب المكان من المحاجر، فلما تزاحف الناس بينهم قامت البيوت على غير طراز أو نظام أو نسق فهنا بيت كالقصر له بستان تخترقه ميادين ، ولصقه آخر درجة وراء بابه ، وإلى جانبه حظيرة للسيارات ، يليها بيت من طين، فحانه لتسوق الحمر الرديئة، فبيوت قائمة على عيدان منصوبة مظلل عليها ، وبعض هذه تنحدر فى الأرض اليه ، وبعضها ترقى فى سلمه الذى وراء الباب ، وهذا له شرفات وعلى بابه شيء كالسدفة ولحيطانه طنف ، وذلك منكشف ، وهكذا

وكان بيت الجار فسيحا ، وله حديقة يعتز بها أحمد أفندى - فهذا اسمه - ويعنى أيضا ، وفيها يقضى أكثر وقته « الفارغ » - أعنى الذى لا عمل له فيه - ولم يكن يحتاج أن يعد دروسه لأنه أعدّها مرة وكررها فى كل سنة ، فصار أحسن حفظا لها من تلاميذه - حتى الذين يرسبون فى الامتحان ويحتاجون إلى الإعادة - مثله ! ، وكانت فيه كرازة بغضضة وبخل ثقيل ، وكانت زوجته فى أول عهدهما به تتناول من جيبه ما تريد لقضاء حاجات البيت ولا تكلف نفسها أن تسأله ، فلما رأى أن انتهاره لها لم يجده، وضع مرة فى جيبه خطافا حاد السن مما يستعمل لصيد السمك ، فنالها من حد الخطاف ما صرفها بقية العمر عن دس يدها فى هذا الجيب .

وكان اذا سئل عن الموجب لسكراهة جاره الشرطى يزعم مرة ان الفونغراف يزعجه ويطيّر صوابه ، ويدعى مرة أخرى أن زوجة الشرطى قذرة وانها فوق ذلك تلقى بكناسة بيتها فى حديقته ، وأن الشرطى وزوجته لا يكفان عن العراك والشجار ، ولم يكن شيء من هذا أو غيره صحيحا سوى الفونغراف فقد كان سلوى الشرطى وزوجته ، وكان أحمد أفندى يقول حين يسمعه :

« طبعاً ! لو كنت أنا شرطياً مثله لاستطعت أن أقتنى مثل ما عنده من الاسطوانات ! ولكنى لست سوى مدرس ، أما هو ٠٠٠ هو ٩٠٠ هـ ٠٠ ؟ مثل هذا الحيوان يفرض على الباعة الاتاوات ويجيبها بفضل بذلته ويشترى الاسطوانات ولعله يأكل من أصناف الطعام خيراً مما نأكل ٠٠ »

فتقول زوجته معرضة « وهل فى هذا شك ؟ »

فيستريب بها ويرى فى عينيهما التماع التهكم فيواجهها مقطباً ويسألها « ماذا تعنين ؟ »

فتخشى سوء خلقه ، ولا تحب أن تعكر على نفسها صفو الساعة بلا جدوى ، فتقول مقصرة « أعنى انه لا يتعب فى جمع المال - الم - تقل أنت هذا ؟ »

فيطمئن ويكبح نفسه عن الاسترسال ، مخافة أن يقضى به الى مس الموضوع المخيف ، ويستأنف الانحاء على جاره فيقول

« لست أدري لماذا لا يشتري « بيانو » ! ؟ انى واثق انه لو مات اليوم لوجدوا عنده ثروة »

فيثقل على زوجته ذكر الموت وإن كانت لا تتمتع من حياتها الا بالهواء وتقول

« أعوذ بالله ! يا شيخ قل كلاماً غير هذا ! »

فيحملق ويواجهها سائلاً « ومالك أنت ولهذا ؟ هو الذى أتمنى له الموت ، فما شأنك أنت ؟ »

فيضيق صدرها وتقول « ولكن لماذا ؟ ما لنا وماله ؟ هو في شأنه ونحن في شأننا »

فيثور وينسى كل ما يحتاج به ويعمل به كرهه لجساره ويصيح « أكرهه .. أكرهه والسلام .. وأقسم بالله العلي العظيم ان لم .. ويمسك حائرا ، لا يهتدى الى شيء معين أو نوع من التهديد محدود ، ثم ان بذلة الشرطي حماية كافية له ، أو هي كذلك في نظر الناس حتى الخواص منهم ، ويرتبك أحمد أفندي ويهيج شعوره بعجزه فيذهب يتمشى في الحديقة الوسيعة ، وكفاه مشتبكتان وراء ظهره وعينه الى الارض . فتتمتم زوجته ان أهل العقول في راحة ، وتدخل البيت .

وعجز أحمد أفندي عن الاهتداء الى حيلة يضايق بها جاره على كثرة ما جشم نفسه من عناء التفكير ، وفي صباح يوم كان أحمد أفندي خارجا فالتقى بالشرطي ، أو على الاصح بصر به واقفا على عتبة البيت ، لا ينقصه من البذلة الا الجاكتة فرمى اليه نظرة طيها كل ما في نفسه من بغض ومقت ، وهم أن يحول عنه عينه ولكن الشرطي حياه

« نهارك سعيد يا سيدنا الافندي »

فلم يرد أحمد أفندي التحية بل التفت اليه وانفجر عليه

« ألا تنوى أن تخرس هذا القونفراف يا محدث ؟ »

فابتسم الشرطي وقال متبالها

« أخرسه وقد صنع لينطق ؟ »

فصاح به أحمد أفندي

« انك تدبر الاسطوانات عمدا لتمزق لي أعصابي . لا شك في

ذلك . حسنا . سنرى »

فدنا منه الشرطي وهو يقول :

« أنا أيضا يزعجنى صوته العالي . فهل تعرف طريقة لخفضه

وكتمانه ؟ »

فكاد أحمد أفندى يجن وصرخ

« وهل أنا صانع فونغرافات يا رجل ؟ أتستمنى ؟ »

فقال الشرطى « عفوا ، ولكنى أنا أيضا لست صانع فونغرافات »
فأطلقها أحمد أفندى ضحكة عصبية وقال « طبعا أنت عسكرى !
وكفى »

فتكلف الشرطى التعيبس وقال بلهجة المحتج :

« عسكرى ؟ تريد أن تهيننى ؟! »

فأشفق أحمد أفندى أن يكون قد تورط فيما لا تحمد عقباه وقال
متراجعا

« أهينك ؟ ومن الذى يستطيع أن يهينك وأنت تلبس هذه
البذلة ؟ لا . كله الا هذا »

فقال الشرطى « لقد ظننتك تقصد الى ذلك . . . »

ولما رأى سكوته قال يعابشه « ولولا بذلتى ؟ هيه ؟ »

فصاح أحمد أفندى وقد خرج الرشد من كفه

« لولاها ؟ لولاها ؟ آه . . لولاها لقتلتك . . »

فضحك الشرطى ضحكة مقرقة ، فلم يسع أحمد أفندى الا أن
يمضى لشأنه .

وجعل الكره ينمو فى نفس أحمد أفندى هذا كالسرحة ، وما رأى
جاره الشرطى وابتنسامته المثيرة الا هم بأن يجازف ويخاطر بحريته
ووظيفته ، وكثيرا ما قضى ساعات وهو يفكر فيما عسى أن يصيبه
إذا دق له رأسه وطحن جسمه وألهب جلده بالحيزرانة ، فلولا الخوف
أن يحكم عليه بالحبس أو بالتفريم أو بكليهما لاشبعه ضربا ، وكان
ضخم الجسم هائل الانحاء شديد الأسر ، على الرغم من سوء الغذاء
والتقتير على نفسه فيه ، ولم يكن يصدده عن هذا الاعتداء الا فزعته

من الحسارة التي تلحقه لا محالة ، وتصيبه في ماله ، وقد هان عليه أن يجلس في هذا الشرطي لولا أن الحبس يجبر الفصل من الوظيفة ، وانقطاع « الدروس الخصوصية » التي يعول عليها في نفقته على مدار السنة ، وإن كانت لا تكثر إلا في ختام العام الدراسي ، وقد يؤدي الحبس أيضا - بل هو لا شك يؤدي - إلى إطلاق يد زوجته في التصرف ، وهذا وحده مصاب يجب اتقاؤه

وكان تلاميذ أحمد أفندي يحضرون إلى البيت ليلتقوا عليه الدروس التي يفريهم بتلقيها منه ويجسم لهم حاجتهم اليها ، وكان أثناء الدرس أو بعده يستعين بهم في تنظيف الحديقة وغير ذلك من الأعمال التي يقوم بها الخدم في المنازل الأخرى ، وكانوا هم يفرحون بذلك لأن فيه تسلية لهم وانصرافا عن الدرس ، ولأنهم كانوا يرجون من ورائه أن يكون مظهر شكره لهم التساهل معهم في الامتحان ، وحسن الوساطة عند المعلمين الآخرين .

فلما ضاق صدر أحمد أفندي بما أجن من الكره لجاره ، وقلبه بما وجد من النقرة عليه ، وأعيته الحيل لجأ إلى تلاميذه وسلطهم عليه وأغراهم به ، فصاروا يرشقون نوافذه بالحصى ، ويكومون الكناسة على عتبته ، ويفعلون غير ذلك مما يفتح الله به عليهم من أعمال الصبيان ، ولكن الشرطي لم يبال هذا ، واكتفى بجزهم مرة فخافوا وانصرفوا عن هذه الحماقات ، ثم تلطف معهم فتألف قلوبهم ، وأنسوا هم إليه فصاروا يتسللون إليه في غفلة من معلمهم ويقضون عليه ما يعرفونه عنه .

ورأى أحمد أفندي أن هذه الطريقة لم تعد تجدى وإنها امتنعت عليه أيضا ، فلجأت به الكراهة وعذبه شعوره بالعجز ، وظن في ساعة نحس أنه ، كافندي ومعلم ، يسعه أن يتصل « بالأمور » ويوغر صدره على الشرطي ، فلما صار عنده لم يجد سببا معقولا للشكوى سوى أن هذا الجندي يستخر منه ، ولكن كيف ؟ بالابتسام حين يلقاه ! فصرفه الأمور وقد اقتنع بأن الرجل خفيف العقل

ولم يكن الشرطي قبل أن يعلم بأمر هذه الشكوى السخيفة يجعل ناله إلى أحمد أفندي أو يبادل الكره أو يقيم لما يبدو منه أي وزن ،

فلما وقف على ما كان منه مع المأمور حقدتها عليه وأسرها له ، فما
سبقت منه اساءة الى جاره حتى يسعى الجار لا يذائه

وفى ليلة من ليالى الصيف الحميدة جلس الشرطى على كرسى امام
البيت ، وخرج أحمد أفندى وفى يمينه كرسى يجره ليجلس عليه
أيضا ، ولكنه رأى الشرطى فشق عليه أن يفسد عليه الليلة بجلوسه
هكذا . ولمحه الشرطى وفطن الى تردده ، ولكنه ضبط نفسه وأبتسم
ودعاه أن يجلس ، فنارت نفس الرجل وخلط فى كلامه ، ونهض
الشرطى وخطا اليه فى تؤدة حتى صار امامه وقال بلهجة منسدة
بالشر :

« ألا تخرج ؟ »

فقال أحمد أفندى « أخرج ؟ أخرج ؟ أتهددنى »

فقال الشرطى وهو يتلفت وينفض الطريق بعينه « خائف .. »

فقال أحمد أفندى « خائف .. أنا .. منك أنت .. والله لولا
أن .. »

فقال الشرطى مقاطعا « لست كامثالى ، فأخرج ولا تخف
وسيبقى هذا بينى وبينك فاطمئن »

ولكن حمد أفندى لم يطمئن ، وخشى أن يستدرجه الشرطى حتى
ينهور فتسوء العاقبة ، وتمنى لو كان صادقا فى وعده أن يجعل
الامر بينهما فلا يصل الى القسم ، ولكن أنى له أن يثق بذلك ؟ ؟
وأدرك الشرطى ما يدور فى نفسه ، وكانت حفيظته قد هاجت عليه ،
غير أنه كبح نفسه ولم يشأ أن يكون البادى بالعدوان . فائثنى
راجعا الى كرسيه فتشجع أحمد أفندى وقد فطن الى أن الشرطى
مثله ، وان خوف العاقبة مشترك ، واستراح الى هذا الحاطر فتقدم
خطوة وقال يناوشه

« قم ، اقطع زرارا واذهب فادع انى اعتديت عليك ؟ »

فوثب الشرطى الى قدميه كأنما شكه فى جنبه سيف ، وصاح به .
« اذا لم تكف عن وقاحتك فوالله ... »

فقاطعه أحمد أفندى قائلا « والله ماذا ؟ تجرني الى القسم وتلفق
تشكوى ؟ »

فلم يطق الشرطي صبرا على هذا ، ودنا منه وهو يقول بصوت
خفيض مثل الثبرات بالحقد المكتوم « أنا الذي يشكو يا نذل ؟
يا سافل .. يا جبان » وفقد صوابه فقال « خذ » ودارت المعركة
كأحمى ما تكون ، ولكن في صمت وبغير ضجة أو ضوضاء ، فقد
كان كلاهما يود أن يبقى الأمر سرا - هذا لانه معلم لا يليق به أن
ينزل الى المضاربة ، وذاك لانه جندي موكل بحفظ النظام والامن ،
وكان أحمد أفندى أقوى وأضخم ولكن الشرطي أبرع وأخف حركة
واعرف بالمواضع التي يخفى فيها أثر الضرب ، فوجه لكلماته ورفساته
الى البطن على الخصوص ، أما أحمد أفندى فلم يقيد نفسه فأهوى
على رأس الجندي ووجهه وصدره وركبتيه ، واستخدم في ذلك يديه
ورجليه ورأسه أيضا ، ولقي كل واحد من صاحبه برحا شديدا ،
وظلا كذلك يتضاربان ويتراكلان ويتدافعان الى الحائط وعنه ،
ويتحاضنان ثم يفترقان ، ويقعان ثم يقومان ، حتى سمعا - أو خيل
اليهما أنهما يسمعان - أصواتا فتحاجزا وما فتر الحقد ولاخمدت
ثورة الكره ، والتقط الشرطي طربوشه وهو يلهث ، وقال أحمد
أفندى وهو يعتمد على حديد الباب « اشكني اذا شئت ، فما أبالي
بعد أن ضربتك هذه العلقة »

فقال الشرطي « أشكوك ؟ كلا ! بل انتظر غلقة أخرى كلما ظهرت
على بابك »

فقال أحمد أفندى وهو ينظر يمينا وشمالا « انت ضربتني ؟ سبحان
الله العظيم ! اذهب وانظر الى وجهك في المراة ثم عد وتكلم »

والواقع ان الذي نال الشرطي كان اكثر مما نال أحمد أفندى ،
فقد كان أحدهما محاذرا والآخر غير محاذر ، وكان أحمد أفندى
أقوى أيضا وان كان الشرطي يمتاز بما يشبه أن يكون حذكة ونظاما .
ودخل أحمد أفندى وبقي الشرطي وقد راحت السكرة وجاءت
الفكرة . وماذا يصنع الآن ؟ ماذا يقول لزملائه ورؤسائه في القسم
حين يرون ما حل بوجهه وثيابه وطربوشه ؟ ودار رأسه فجلس على

الكرسى ولم يهتد الى كذبة مقبولة يكذبها ، وهم بأن يدخل ويدع التفكير الى الصباح ، واذا به يسمع صيحات استغاثة وأصواتا تنادى « امسك • حر • امى • • امسك ! فאלهمه الله أن يعود الى مصدر الصوت ولم يزل يجرى حتى بلغ جماعه محتشدين على باب بيت كبير ، وهم يتلاغطون ، فكاد يقع على الحائط من فرط الاعياء - اعياء العلة لا الجرى - وأخرج صفارته ونفخ فيها نفخات ، ثم وقف يلهث

وعرف من اللفظ الذى حوله انهما لصان هما بتسور المنزل ، ولكن الخادم تنبه فصاح ، فذهبا يعدوان ، ولم يرهما أحد ، فلما وصل الشرطة الذين دعتهم الصفارة ، سألوا زميلهم فقال انه كان عائدا الى بيته فراه رجلان يتهاامسان ويتلفتان ثم يمشيان مشية مريبة فدعاهما أن يقفا وقد شك فى أمرهما وأراد أن يمسك أحدهما فانها لا عليه ضربا وهو يقاومهما ما استطاع حتى أوقعاه على الارض ولاذا بالفرار

ولم يبد على هذه الحكاية انها غير معقولة ، فصدقتها سامعوها وآمن بها « القسم » ، واستراح بال الشرطى ، الى حين على الاقل ، فقد خشى أن يقع اللسان فيدعى الى التحقيق ، فيظهر أثر الخيال فيما وصفهما به • ولكنه تعزى بأنه يستطيع على كل حال أن يقول ان المقبوض عليهما - اذا قبض على أحد - غير اللذين ضرباه •

وبعد بضعة أيام التقى أحمد أفندى بالشرطى على بابه فقال له

« يا كذاب ! يا منافق • • يا مزور • • ضربك اللصوص ؟ هيه ؟ لا بد أن أفصح كذبك يا مزور • • وأقول للناس جميعا وللقسم أيضا انى أنا الذى شوه لك وجهك الدميم وبطط لك رأسك وحوله عن شكل البطيخة الى شكل الشمامة »

فنظر اليه الشرطى مبتسما وقد دار بنفسه خاطر خبيث

« انت ضربتني ؟ متى ؟ انك تحلم • • ومثلك يجرؤ • • انتظر حتى أقبض على اللصين • • انى أعرف صوت أحدهما • • يشبه صوتك تماما • • ولم أتبين وجهه فى الظلام ولكن جسمه • • له مثل

جسمك .. بالضبط .. من يدري ؟ ربما كنت أنت ذلك اللص .
الذى اعتدى على .. اظن أن التحقيق يستطيع أن يظهر .. الحقيقة .
سنرى »

والقى الى أحمد أفندى نظرة فاحصة ثم قال
« لقد قلت انك ضربتني . اليس كذلك ؟ »
فقال أحمد أفندى وهو يتراجع الى الباب
« أنا ؟ متى ؟ أبدا . أبدا »

فقال الشرطى وعلى فمه ابتسامة عريضة وأصعبه يومئذ الى
الجار

« لم تقل هذا ؟ غريب ؟ ربما كان غيرك اذن . يخلق من الشبه
اربعين » واختفى أحمد أفندى وراء بابه
وقهقه الشرطى

العمدة والشقي

كان « عمدة » من الطراز الفاتك . . . يقتلك - أعنى يقتل غيرك - ويمشي في جنازتك - أعنى . . . ولكنى لا أعنيك ، ولا شأن لى بحياتك أو موتك ، ولست أرانى سافرغ من قصتى إذا كان ينبغي أن أعود فاستدرك وأصحح وأعدل بالكلام عن مجراه ، بعد كل ثلاث كلمات أو أربع . فيحسن أن تطمئن الى حسن نيتى من الآن ولنرجع الى حديث العمدة .

وكننت ضيفاً عليه ، وللضيف حقوقه وإن لم يبلغ مبالغ الرجال ، وكان معى فى هذه القرية اللعينة ابن خالتى ، وهو أكبر منى وأصغر من العمدة بسنوات قليلة ، وكانا - أى العمدة وابن خالتى - صديقين حميمين ، على ندرة ذلك بين الأقارب ، وكان يعجبني من هذا العمدة الفحل انه كان ، على ما يبدو لى ، دقيق الرعاية لحقوق الضعيفة ، فكان إذا دخل الليل وانتشرت على الأرض غيابات الطفل ، ينظر الى فى حيثما أكون جالسا ، ويسألنى وهو يبتسم « جمت ؟ »

فأقول ، وأنا أعطى قمى بكفى لإخفى الثوباء - فقد كان المجلس مملاً والحديث لا هو مفهوم ولا هو ممتع ، لى على الأقل

« لا . . . » مطوطة جداً

فيضحك ويلقى الى ابن خالتى نظرة ويقول فى عقب القهقهة « والله جوعان يا بنى . . الجوع ظاهر عليك »

فينهض ابن خالتى وهو يشير بكفه ويقول « قم بنا يا شيخ . لقد متنا من الجوع . ما لنا نحن ولمشاكل هذا البلد ؟ خل هذا للنهار »

فيفض العمدة المجلس وينهض عن « الدوار » ويكر بنا راجعين الى العزبة حيث بيته الجديد الذى ابتناه ، وقدامنا ووراءنا ، وعن يميننا وشمالنا ، الخفراء بالبنادق ، فكنت أعجب لذلك وأعده افراطا فى اتخاذ مظاهر الابهة والسمت ، وكان يزيد فى عجبى انى زرت القرية فى عام سابق وفى شهر رمضان ، فكنا اذا قمنا عن الدوار الى البيت الذى فى العزبة نركب الحمير ، فان المسافة طويلة - والكلاب حولنا - وهى أكثر منا عددا - تملأ الأرض والسماء نباحا حتى نترجل وندخل البيت ونختفى عن عيونها ، وأنا أكره الكلاب - من حقيقية ومجازية - ولا أطبقها ، وكان البيت لافناء له الا الطريق ، فكنت لا أترجل الا اذا أحاط بى الخفراء وتلاصقوا وضمنت أن لا ينفذ الى من بينهم كلب . وكان الخفراء يتضحكون وأنا أمرهم - وإن كنت صعبا - أن يضموا سيقانهم ويتلاصقوا . والناس يقولون ان الكلاب وفية ، وانها لا تسيء الى من تألفه ، ولكن ماذا أصنع اذا كنت فى حياتى لم أستطع أن أكسب ود كلب؟ وأذكر انى كنت أسكن بيتا لجارى فيه كلب ، فكان لا ينفك ينيحنى ويهرنى كلما دخلت أو خرجت ، فقال جارى مرة « أعطه لقمة بالآلفك » فكنت أخجل أن أعطيه لقمة ، ولشد ما كنت أود لو يقبل منى قرشا !

وكلاب هذه القرية - أو على الاصح كلاب العمدة - عجيبة ، سقط له مرة طفل فى قناة صغيرة ولم يكن من الممكن أن يفرق الطفل لأن القناة ضيقة الغور شحيحة الماء ، على أن المهم أن كلبا من هذه الكلاب الضارية رآه وهو ينقلب فى القناة أو يقع فيها فعدا اليه وتناول ثوبه بين أسنانه وجره معه الى الأرض اليابسة . وقد شهدت هذا بعينى اللتين فى رأسى - أو فى وجهى أو لا أدرى أين هما على التحقيق - ومن الغريب أن هذا الصنيع زادنى خوفا من هذا الكلب على الخصوص ، ومن الكلاب على العموم .

وكانت أوبأتنا فى الليل خالية من ضجرات الكلاب ، ولا أدري ماذا صنعوا بها وكيف كفوها عنا ومنعوا أن ترافقنا بالنباح من حدود الغيط الى مداخل البيت ؟ وكنت أنكر هذا السكون الذى لا عهد لى به فى القرى ، وكان اختفاء الكلاب يرببني ، ولكنى أثرت

أن أجنب السؤال حتى لا ينقل عليهم فضولى ، وخفت اذا سألتهم أن ينتج السؤال اطلاق الكلاب - اذا صح انها كلاب محبوسة - غير أن غياب الكلاب لم يكن كل ما أنكرت من حال القوم فى هذه الزورة ، فقد كانوا يمشون صامتين - فلا لفظ كعادتهم ولا كلام ، حتى ولا همس . كأنهم فى ماتم ، حتى نبليخ الدار وندخل الحجرات ، فتنتطق اللسنة التى كانت معقولة ، وترتفع الاصوات ويكثر نداء هذا أو ذاك من الخدم أو الفلاحين ، وتنبسط أسارير الوجوه ، وتعود الى أصحابها الحياة . ولكنهم مع هذا كانوا لا يجلسون فى صحن الدار ولا يتعشون فى الرواق - وأعنى به المكان المسقف فى مقدمة المنزل - وانما كانوا يتخذون لمجلسهم اذا أرادوا الحديث أو الطعام ردهة ، بين الغرف ، يهيئونها لذلك .

وكان الوقت صيفا ، فضقت ذرعا بهذا الحال وشق على أن أقضى الليل محبوسا فى الغرف ، وكنت كلما هممت أن أحمل كرسي وأخرج به الى عرصة الدار منعونى وزجرونى عن ذلك ، وفى احدى الليالى كنت أستعد للنوم وكان الحر شديدا فأردت أن أجر السرير الى النافذة فقال لى ابن خالتى وكان له سرير آخر فى الغرفة

« لا تفعل . ويحسن أيضا أن نوصد الشباك . »

فكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، فقلت له

« ساعد حقيبتى ، وغدا صباحا أرحل عن هذه البلدة . »

فنظر الى مسغربا وسألنى « لماذا ؟ »

قلت « لماذا ؟ المقام لا يطيب لى هنا . هذا هو السبب »

فأقبل على يسألنى « هل ينقصك شىء ؟ أشكو تقصيرا أو .. »

فقلت مقاطعا « كلا . لا أشكو شيئا الا هذا الحر . وأظنك توافقنى على انى لم أجبى الى هنا لاجس بين الجدران .. وفى الليل أيضا ! معقول أن تعوذ بالغرف المغلقة من الحر ولفحه ، ولكن الليل .. الليل؟ الليل الطلق والجو السجسج والظلام الساجى ، لماذا تحرمونى طيب ذلك ؟ حتى النافذة تغلقها وتسدها وتمنعنى أن أتروح .. »

لا يا صاحبي متعك الله بهذه الحياة • أما أنا فراحل من الغد •
 فوجم وظل هنيهة مطرقا لا ينطق بشيء • ثم رفع رأسه وقال :
 « لا أدري • ولكنني أظن أن رحيلك يكون عملا غير لائق •
 فانفجرت صائحا • وهل يليق إن تخنقوني هكذا ؟ »
 قال • انتظر يوما أو يومين • لا أكثر • • •
 قلت • السفر غدا كالسفر بعد يومين • ولست أرى فرقا يوجب
 أن أبقى •
 قال • لا أعني هذا ، إنما أعني أن ما يسخطك لن يبقى أكثر من
 يومين •
 قلت • لست أرى اني فاهم شيئا • والحقيقة أن القرية قد تنكرت
 وتغير أهلها عما كنت أعهد •
 قال • لم يتغير فيها شيء • وما زالت كما كانت •
 قلت • ربما • على كل حال لا أراني راضيا بالاقامة فيها أو مطيقا
 لها وإذا لم يكن هذا عيبها فليكن عيبى • والأفضل الرحيل • •
 قال • بل تبقى • وتتحول الى الجزيرة من الغد • هي آمن لنا •
 وكانت الجزيرة - كاسمها - جزيرة ، يملكها العمدة وأخوته ،
 وقد بنوا في وسطها منزلا حسنا وأقاموا على ساحلها بيتا صغيرا
 من خشب لاستقبال الضيفان ، وكانت الاقامة في الجزيرة هي
 ما أبقى من أيام ولكنني لم أفض برغبتي الى أحد جرى لسان ابن
 خالتي بذكرها فقلت متعجبا
 « أمن ؟ ماذا تعنى ؟ »

قال • لا شيء سوى أنا هناك لا يصل إلينا الا من نبعث اليه
 بالزورق •

قلت • ولكنك قلت أنها آمن ، فهل عنيت شيئا غير هذا ؟
 وطاف براسي كل ما أنكرت من حال العمدة - نهوضه عن مجلس
 الدوار في أول الليل ، وطول صمته في الطريق الى منزله ، وكثرة

الحفراء حوله ، واختفاه الكلاب النابحة - كل هذا صار له معنى جديد عندي لما سمعت من ابن خالتي ان الجزيرة آمن ، ولم يخدعني تفسيره ، ولمحت فيه التعمل والتحمل ، وكان لا يكذب ولا يطيق الكذابين فقلت أفاجئه بسؤال مستقيم لا هروب منه وأخرج من جوابه ببعض الفهم :

« ألا يحسن أن تأتمنني وتشركني في العلم بما تكتمه ؟ »

فقال غير متردد « لا أملك هذا • هو سر غيبي »

قلت « غيرك ؟ تعني العمدة ؟ »

قال « لا تلج • فاضطر »

فأمسكت •

في اليوم التالي تحولنا إلى الجزيرة ، فعوضني الله خيرا ، وأحسن جزائي بما صبرت ، وكانت الجزيرة فردوسا صغيرا ، فلم أبرحها ولم أعد قط إلى القرية ، وصرت لا أرى العمدة إلا حين يزورني ، وكان ابن خالتي يلازمي ولا يفارقه ، ولم تستوحش نفسي لأن حولي من الاقارب الكفاية

وفي الجزيرة وقفت على سر ما أنكرت من حال العمدة ، فعرفت أن شريرا من أهل القرية انتفض على العمدة وذهب يبعث في القرية : يسمم المواشي ، ويحرق المحاصيل ، ويقلع القطن ، ويقتل من يعترضه ، ولا يقوى عليه أحد ، ولا يجرؤ أن يشي به أو يدل على مكانه مخلوق ، ففسد الأمن واضطرب حبله ، ورأى العمدة أن سلطانه يتقلص ظلّه شيئا فشيئا وإنه يفقد ما كان له من هيبة ، فسعى سعيه غير موفق فيه « وأعيته الحيلة وعزه القبض على هذا الشرير ، وزهى هذا - أعنى الشرير - بما أوقع في النفوس من الرهبة ، فبعث إلى العمدة يتوعده وينذره بالقتل ومن هنا ما لا خطت على سلوك العمدة • واستفاض خبر الانذار ، فكاد العمدة يجني - لاخوفا فقد كان جرى القلب ، بل غضبا وغيظا -

وقد عجبت لابن خالتي ومبالغته في التحفظ وغلوه في كتمان سر ذائع ، ولكن بعض الناس هكذا أبدا

وبعد بضعة أيام أقبل على واحد من فلاحي الجزيرة بوجه متهلل
وابتسامة عريضة وقال « مبروك يا أفندى »

قلت « بارك الله فيك • ماذا ؟ »

قال « البيه العمدة خلاص »

قلت « خلاص • • خلاص • • ماذا تعنى ؟ »

قال « اصطلح »

قلت « قبحك الله يا شيخ • • ألم تكن تستطيع أن تقول هذا من
أول الامر ؟ »

وكنّا على الشاطئ ، والنوتى - فى زورقه - قريب منا يرى
ويسمع فقال :

« لا تؤاخذنه يا أفندى • أى نعم تصالح هو وعلى • وسيسيزور
الجزيرة الليلة ، ويتعشى مع البك توكيدا للصالح واعلانا له »

ففرحت واشتقت أن أرى هذا الشقى اللعين الذى وسعه أن يقهر
العمدة الجبار ويظلم من كبريائه ، ويرغمه على المحاسنة ، واشتهيت
أن أعرف شروط هذا الصلح الغريب بين عمدة يمثل سلطان القانون
وشرير يمثل التمرد على القانون والانتقاض على النظام •

ومالت الشمس للمغيب فهبط على الجزيرة مارد أسود لم أر
وجهه من قبل ، قالوا لى انه جاء فى ركاب سيدات من أصحاب العمدة
نزلن بالجزيرة • وبعد العشاء نادى المنادون من الشاطئ « الآخر
يا على ! يا واد يا على ! » فدفع على الزورق عن المضحل حتى كان
يخرج به الى الغمر ووثب فيه وانطلق به يفرق الماء الى حيث
يدعونه • وبعد برهة عاد بالعمدة والشقى ونفر من شيوخ القرية
وكان ابن خالتي قد سبقهم اليها بساعات نامها كلها •

ورأيت الشقى فاذا هو شىء ضئيل قمى لا يملأ عينا ولا يفرع
قطة ولكن له عينين كعيني الثعبان ، وله بهأ نظرات ، يديرها
فينفض بها جميع ما حوله وهو لا يكاد يحرك رأسه أو يحول وجهه
الى شىء ، أو يلاوصك بها فكانما هو ينظر اليك من خلل باب أو

ستر ، أو يدومها فكأن حدقته فى فلكة ، أو يحجم فلا ترى جفنه
يطرف ، وقدينظر اليك بعين ويكسر أخرى ، ويميل وجهه فى شق ،
العين المفتوحة ، فتعجبت مو أمره ، ولم أستكشر عليه أن يخافه
الناس ويرهبوه .

وتعشيننا ودار الكلام وكثر الضحك وعلت القهقهات ، وراح كل
من يعرف نكتة يلقيها ، أو قصة طريفة يرويها . ولم يقل أحد
شيئا عن العمدة القديمة والصليح الجديد ، وكان الشقى لا يزيد
على الابتسام حتى قارب الليل الانتصاف ، فنهض الشقى مستأذنا
فصافحه العمدة وقرئت الفاتحة وتبودلت عبارات التحية والمجاملة ،
وانحدر صاحبا الى الزورق ، فلما صار فيه وهم النوتى أن يدفعه
أقبل المارد الزنجى وصاح بالمهنوتى أنه خذنى معك ، ولم ينتظر بل
خاض الماء ثم وثب فاذا هو فى الزورق قمضى بهما

وعاد الامر فى القرية فاستقام فى يد العمدة ولم يفلت منها العنان
بعدها أبدا .

دأرت سنوات وسنوات فاذا أنا وابن خالتى فى القرية مرة
أخرى نقضى أسابيع من الصيف . وكان العمدة قد انتقل الى جوار
ربه وجاء غيره من اخوته ، فقال لى ابن خالتى يوما ونحن نتمشى على
سيف الجزيرة :

« حل تذكر ؟ »

قلت « ماذا ؟ »

قال « سنة ٠٠ لما كنا هنا ٠٠ »

قلت « أذكر انى كنت هنا ٠ معك ٠ ولكنه تاريخ قديم وقد
أنسيته »

فذكرنى ثم قال :

« وهل تعرف ماذا جرى للشقى ؟ »

قلت « صالح العمدة ، أو صالحه العمدة . شئ كهذا والسلام »
فضحك وقال « يا أخى والله لقد كان ٠٠ حقيقة جبارا »
قلت « يعنى ايه ؟ ! »

قال « بعد أن ركب معه العبد وصارا في وسط النيل تحرش بالشقى ، فأدرك هذا أنه تدير مبيت ، وقال « أهو غدر ؟ » فقال العبد « وماذا كنت تظنه غير ذلك ؟ » وتناول رقبته فلواها فكسرها ثم شد إليه حجرا كان معدا في قاع الزورق ، وألقاه في الماء ،

قلت « هكذا كانت آخرته ؟ »

قال « نعم . وكان بهذه الميتة جديرا . »

قلت « لا أدري »

قال « كيف ؟ »

قلت « على كل حال ، حسابهما على الله لا على أنا »

قال « صدقت . »

الراعيان

صورة وصفية من العهد القديم

هما فتاة وفتى من أبناء الرعاة فيما يعلم الناس ويعلمان • لا يملكان
من حطام الدنيا سوى مرقعتين على بدنيهما وعصوين في يديهما •
يهشان بهما على الغنم حين يخرجان بها في البكرة المطولة • ويطلقانها
ترعى قبل أن يعلو النهار وتتوسط الشمس كبد السماء • ثم
يسوقانها بعد أن تميل الى المراعى النظرة • ثم يوردانها ويكران
بها الى حظائرهما عند انحدار الشمس الى المغيب ويقيمان عليهما
الكلاب تحرسها وتحميها وتمنع الذئاب أن تقع فيها وهما نائمان
وهكذا شبا بين المعيز والكباش • هي معازة ، وهو غنام • وان كانا
- لشبابهما - كثيرا ما يترك أحدهما الامر لصاحبه ويذهب هو
يلعب •

وجاءت مقدمة الربيع وأينعت الأزهار وأورق الشجر ورف النبات
فعلا وجه الأرض نظرة وخفق النحل على الورد يشاكبها الهوى
ويسارها ويشور جناها • وأرسلت العصفير صدحاتها فضية
خالصة • وانطلق نتاج الغنم يطفر ويتوثب فرحة بالحياة الجديدة •
وصاحبانا يريان الطبيعة في عيدها فتأخذهما نشوة الشباب وتتقد
الدماء في عروقهما فيفردان كالأطياف ويقفزان ويجريان كالأغنام •
ويقبلان كالنحل على الأزهار • يقطفانها ويتراشقان بها - ولا يفترقان
في ليل أو نهار •

واتفق مرة ان كبشين تناطحا وكان النطاح قويا فانكسر قرن
أحدهما فولى هاربا والكبش المنتصر في أثره ، ورأى الفتى ذلك
فهبط وتناول عصاه وذهب يعدو وراءهما ليردهما الى القطيع ويؤجرهما
عن الانتطاح • ولم يكن باله الى الطريق ، فاذا به على يديه ، ووجهه
في زحلوقة فنلت عنه صرخة غيظ • فاقبلت الفتاة وخاضت اليه

الطين وناولته يدها وعادا معا الى شجرتهما التى كانا فى ظلها ،
وجف الطين على ساقيه وذراعيه ووجهه وبعض صدره فقللا نغتسل
حين نورد الغنم . ولكن النظر الى وجهه الملطخ المشوه لم يكن يروقها
وبلغا الترفة وخلع قميصه والقى بجسمه فى الماء وخاضت هى
الى قريب منه ، وكان شعره أسود طويلا وجسمه أسمر كأن لونه
ظل شعره . فارتاحت عين الفتاة - وهى تفرك رجليها فى الماء - الى
منظر جسده ، وعجبت لجماله كيف لم تفتن اليه من قبل . وحدثت
نفسها لسذاجتها ان لعل الماء هو الذى اكسبه هذا ، ودنت منه ومدت
يدها الى ذراعه تمسحه له . ثم الى كتفه وصدره ووجهه ، ولان
جسمه للمسئها ، وأحسست هى برقته فعادت يدها تنثنى الى جسمها
هى لترى أيهما أرق والين . وانحدرت الشمس فعادا بقطعانها .
وليس فى ذهن الفتاة أو نفسها سوى الشوق الى رؤية صاحبها
يفتسل مرة أخرى .

وفى الصباح تركا الغنم ترعى وجلسا تحت الشجرة على عادتهما
ثم تناول الفتى مزماره ليزجى به الفراغ وأرسل أصواته وهو ضاجع
وعينه الى الغنم المحيطة به ، وكأنما أطربتها حلاوة ألحانه فعمت
اليه مصفية وكفت عن الرعى . والفتاة الى جانبه تلقى الى الغنم
نظرة . واليه عشرا وقد خيل اليها كأنما أصابعه قد أستحالت نسима
وانيا . وكان فى وجهه حسنا جديدا . وهو فى غفلة عنها . كأنه
ليس معها ، يلحظ الارض والسماء بعين شاردة الانسان . وهى
تعجب لنفسها لماذا تنزى . ولأصواته المألوفة ماذا أصارها بارعة
الاخذ مونة كالروض . أهو المزمار - سر مافى صاحبها من حلاوة ؟
وخطفته منه ونفخت فيه مثله ، ثم القته ودعته الى الماء ليفتسل .
فلما صار فيه جعلت تلحظه خلصة ثم مدت يدها ولمسته وهو يخرج
منه ولم تستطع وهى عائدة معه أن تكتمه اعجابها بحسنة .

ماذا أصابها ؟ لم تكن تدري . فقد كانت صغيرة ولم تكن تعرف
الا الاغنام . أما الحب فلم تسمع به أبدا . ولكن قلبها كان يقبضه

شيء . وكان صدرها يضيق بما لا تحرك . وكانت عينها لا تزالان .
تتلفتان هنا وهناك - بكرهما - وحديثها أبدا عن صاحبها ، ولم تعد
تجد في النوم راحة ولا في الطعام رغبة . وفتر نشاطها ، وأهملت
مميزها ، وكثر ضحكها وبكاؤها ، لغير سبب . وتداول وجهها
الشحوب والاضطراب . وصارت نظرتها كالحالة ، وتوالى أرقها ،
فالليل ليلان : واحد صبيحة يرتجى ، وليل هم ماله من نفاد .

وناجت نفسها يوما بكلام كهذا

« أنا مريضة .. أو هذا ظني . ولكن بماذا ؟ لأدرى . أحس
الما ولا أرى جرحا ، والالم شائع . شائع من قبة رأسي الى اخمص قلبي
وأراني حزينة ولم أفقد شاة . وفي جوفى نار ، والظل وارف تحت
الشجرة ، كم شعوك وخزنتى فلم أبك ! كم نحلة أبرتنى فلم أتوجع
فما لهذا الذى يخز قلبي ، أوجع ؟ هو جميل ، وكذلك الازهار .
وأصوات زمماره عذبة ولكن تغاريد الطيور حلوة كذلك .. ولست
أراني أعيا بالزهر أو الطير .. ليمتنى كنت زمماره لتلمسنى شفتاه
وتنفخا فى من روحه . ليمتنى كنت كبشنا ليرعاني ويحرسنى ..
ويج هذا الماء الذى جملة دونى .. »

وألغاه هو يوما نائمة فاستلقى الى جانبها . وامتدت يده عفا
وعن غير قصد الى زمماره ، ولكنه نظر اليها فجمدت يده ، وبقي
المزمار معلقا فى الفضاء لا هو الى فمه ولا هو يرتد . وكأنما لم تكن
له عين الا الساعة . فراعها شعرها الذهبى الذى كان فيه نارا
مضطربة ، ووجهها الابيض كاللبن الذى تحلبه بيديها .. ايه
ما أرقها وأدقها ! ..

وحنا عليها ليتأملها فأيقظتها أنفاسه الحارة - أو من يدرى ؟ -
لعلها لم تكن نائمة - فاتقد وجهها وصبغتة الحمرة ولكنها لم
تتحرك .. ورننت فى سكون كأن شيئا فى نظرتة خدر جسمها وفتر
أوصالها . واختلجت شفتاه واستدارتا فى اضطراب كأنما تدعوانه
فأهوى عليها بقبلة ارتد بعدها باهت اللون صامتا شارد الفكر .

* * *

وصار هو أيضا كلما خلا الى نفسه يناجيها بكلام كهذا

« ماذا دهاني من هذه القبلة ؟ ان شفيتها ارق من غلائل الزهر ،
وفمها احلى من العسل ، ولكن لقبلتها كيا .. ولما كوخز النحل .. »

« ما أكثر ما لثمت غنامي ، ولكن قبلتها نيس كمثلها شيء . ان قلبي
يشب الى شفتي كلما تذكرتها ، وروحي ترف ، وقوتي تذوب ومع
ذلك أشتاق أن أقبلها مرة أخرى ! أفي فمها نار ؟ لماذا اذن تلسع .
أفي شفيتها داء أعدتني به ؟ أتراها شربت سما قبل أن ألتها ؟
اذن كيف لم تمت ومزماري ! مزماري ! ما أحلى تغريد الطيور وهو
صامت . وتالله ما أرشق ثوب الخراف وأنا راقد ، والزهر ينفحني
أريجها ، لكنني لأبسط اليه كفا ولا أدنى منه أنفا . كل شيء ينضر
حيهتز ويربو وأنا وحدي أذبل وأجف . »

ومضى الربيع وجاء الصيف ، حامى الوقدة ، فالهبها واستوى
كل شيء ، وثقلت الاشجار بشمارها ، وتغطت الحقول بزعرها ،
ورقت تغاريد الطيور ، وحلا حتى غناء الصراصير وثغاء الاغنام
وجرى الماء في الاقنية يغنى والنسيم يصفر ويزمر بين أوراق
الشجر . وفتر الحر الثمار اليانعة فهوت ، وجردت الشمس
الطبيعية وحسرت عن مفاتنها لتلح عينها بسحرها فصار الفة
يختلف الى الماء يغمر جسده به ويكرغ منه ليطفئ وقده

وفي القيلولة يأويان الى ظل الشجرة ويقعدان يتراقشان - هي
مفتونه بقده واعتداله وقوته مع لينه ، فلا يسعها الا أن تنظر اليه
وهي ذائبة . وهو مسحور بعينيها وفمها وشعرها ، وقد يقبل كل
منهما ثوب الآخر حين ينام ، وقد يذهبان يتراميان بالثمار الناضجة
وقد يقعد يلقنها الالحان التي يزررها فيحلو لها أن تبيع المزمار
على شفيتها بعد شفتيه . ويسره هو أن يتلقاه بفمه بعدها .

واذا ننى الحر رأسها وأطبق جفونها اشتاق أن يختلس منها
قبلة ولكنه كان يكبح نفسه ويناجيها

« ما أحلى هذه الجفون المغمضة ! ملأرق هاتين الشفتين الورديتين !
ان لهما لعبقا ليس للتفاح ، ولكني أخاف أن الشهما فإن قبلتهما

لاذعة تطير الرأس وتذهب باللب • وأخاف أن أوقظها اذا قبلتها •
يا لهذه الصراصير التي لاتسكت ! انها تكاد تبعثها من رقادهما •
والاغنام أيضا تتناطح وتدب بأظلافها • فليت الذئب كان قد أكلها
جميعا •

ووقعت نحلة صغيرة على صدرها واعتدلت تمشي بين ثدييها •
فأفزعتها وأطارت نومها وصرخت ، ولما رأت صاحبها يضحك
عادت تفرك عينيها • وأزت النحلة بين نهديها فصرخت مرة أخرى
فضحك الفتى ثانية ودفع يمينه بين ثدييها وأخرج هذا الطفيلي
وأراها اياه ، فتناولته وقبلته والقت به حيث كان وتركته يمشي
ويغنى اذا استطاع

ولكن الفتى كف عن الضحك بعد أن لمست راحته صدرها
وأحس ثدييها ناهدين على جانبي يده ، وشعر بضلوعه تنطبق ،
وبقلبه يوجعه ، كان في جوفه سما ، وراح ينفخ ويلهث كأنما كان
قد قطع خمسين فرسخا جريا ، وزاغ بصره وصار يرى الشيء اثنين
وأربعة • فنهضت اليه تسأله ماله ؟ فارتدى على الأرض ووجهه الى
السما ، وهو لا يزال يزفر كأن في جوفه بركانا فرفعت رأسه
بكفها وحنث عليه تمسح له جبينه وخده بالآخرى ، فسرت رعدة
في بدنه تلاها مثل نار الحريق فطوقها وضماها الى صدره • وعرفا
بعدها ماذا بهما !

سيرة من السير

عرفته من المدرسة • وكان هو « اللفا » أى التلميذ الذى يוכל اليه الاشراف على نظام فرقته • ولم يكن ذلك لانه كان أبرعنا أو أذكانا أو أكثرنا تحصيلًا ، بل لان ادارة المدرسة توسمت فيه القدرة على الاضطلاع بهذا العبء • وكان طويلا له وقار وسمت ، وفيه قوة وصمت • فكنا نحن القصار نرفع اليه عيوننا اذ نحدثه • وكان هو يصوب الينا عينه • ونقول نحن ونبدى ونعيد ، وهو مصغ الينا فى سكون وحلم وعطف • فاذا فرغنا كان جوابه كلمة أو اشارة أو ابتسامة • وقلما كان يستعمل واحدة مكان الاخرى ، أو اثنتين اذا كانت فى احدهما الكفاية ، واذا تساوت الكلمة والايماة أثر الايماة وضمن بالكلمة • وكانت فرقته أحسن الفرق نظاما وأشدها اجتهدا • يندق الجرس فنسرع الى الصف وننتظم فيه – الاطول فالأقل طولا وهكذا – وتنثنى الرؤوس الى الاحذية وتنفض الايدي عنها الغبار بالنناديل أو الخرق ، لانه كان يحرم علينا أن نمسحها فى « بنطلوناتنا » وهو يراعيها من مكانه ويمر بعينه علينا دون أن يتحرك أو يتكلم • حتى اذا انتهينا نظرنا اليه جميعا فيوميء برأسه فنلور ونسير ويمضى كل منا الى مقعده • ويدخل هو آخرنا ويجلس ويفتح الدرج ويخرج الكتاب أو الكراسة أو غير ذلك مما يستلزمه الدرس المقبل ، ونفعل نحن مثله •

ثم نضطجع وننتظر • ويجيء المدرس فيكون هو أول الواقفين وأسبقهم الى رفع يده الى رأسه بالتحية • ونتلقى تحية المدرس ونرد عليها ونقعد دونه ، فانه يظل واقفا حتى ينتهى المعلم من وضع مامعه والتهيؤ للتدريس فيتقدم اليه بورقة « الغياب والحضور » ثم يعود •

ولم يكن حسن الثياب أو أنيق الھندام • ومن الذى يفكر فى الثياب وهو ينظر الى هذا الوجه الرزين ؟ ولا كان يتحيز الى أحدهما

لأنه كان عادلا دقيق الشعور بالواجب • ولم يكن يباهى بمركزه أو يسيء استعماله وكان من فريق لاعبي الكرة • ولكنه كان على خلافهم جميعا • تراه في آخر الشوط كما كان في أوله ، نشاطا وتصميما • ولم يكن يظهر شعوره أو يبدو لك كأنما يحاول كتمانها - كما كنت أفعل أنا - وهكذا حتى قاربنا ختام التعليم الثانوى •

ثم افترقنا سنوات لم أره في خلالها قط • لأنه لم يستطع أن يؤدى نفقات التعليم • ولم يكن ينقصه سوى عام واحد يتقدم بعده الى امتحان الشهادة الثانوية • ولم يفلح سعى الناظر - وكان انجليزيا - فى الحصول له على المجانية فعرض أن يجمع له اكتبابا ، فشكره وأبى وغاب •

ولقيته - وكنت قد تخرجت وأصبحت مدرسا - فقص على ما فاتنى من حياته ، وعلمت منه انه ذهب الى السودان والتحق بشركة انجليزية حتى يدرس « الاحتمالات » - على حد قوله - ويعد نفسه للحياة الحرة ، فلما بدا له أن فى وسعه أن يغامر بخصوص العباب ، ترك الشركة وشرع يتجر بالماشية ، يشتريها ويبعث بها الى مصر • ولم تكن تجارته واسعة لأن المال الذى كان قد أدخره لذلك ضئيل ، وأسفاره التى يضطر اليها كثيرة • وما ينفق من الماشية فى طريقها الى بلدان مصر يذهب بكثير من الربح •

وقلت له لما سمعت قصته « وكيف تطيق السودان وحره ؟ »
فقال مستغريا • • « حر السودان ؟ وهل أنا من القطب الشمالى ؟ »
فقلت ملحا « الوحدة ؟ »
قال « أى وحدة ؟ »

قلت « أعنى التخلي عن المدينة والانقطاع عن معاهد صباك »
فكان جوابه الموجز أن ضحك وقال « ينبغى أن يرى المرء غير موطنه »

ولم أر أنه اختلف عما عهدته • فلا ثيابه أنقى ولا هو أقل صرامة وجدا • وقلت له

« لو كنت أنا مكانك لما استطعت ألا أتزوج »
فصمت برهة ثم قال وهو يهز رأسه

« لا أستطيع أن أتزوج قبل أن أعد لامراتي مكانها » ان هذه
التجارة فى أول أمرها مقامرة »

وجعلنا نتلقى عشرة أيام ، وأنا دائم التفكير فيه - فى صمته
المخيم وفى وحدته وانقطاعه عن أهله وأصحابه ومعاهده ، وفى
مظاهر المدنية التى خيل الى أنه نفى يده منها وأشاح بوجهه عنها ،
وفى أسفاره الطويلة فى قياقى السودان المحرقة ، وفى اختلاطه
بأصحاب الماشية أو رعاتها أو تجارها ، وفيما عسى أن يكون مكابدا
من متاعب العيش والكدح وراء الرزق فى بلد ناء كالسودان مما
يمنعه احترامه لنفسه أن يبوح به . وجعلت أفحصه بعيني وأبحث
عن دلائل التأخر أو الانحطاط أو الخشونة أو اللين أو غير هذا
وذاك مما توهمت أن حياة كهذه حرية أن تقضى اليه - ولكنى لم
أقع على شيء . وكان ينفر من الشراب ويستحيى اذا ذكرت النساء
ويؤثر المشى على الركوب .

وسأله وأنا أودعه يوم أوبته .
« متى تعود إلينا وتقيم بيننا ؟ »

فقال وعلى شفثيه ابتسامة « أعود متى ارتحت الى ثمرة كدى ..
وأتزوج » قلت وترجع ثانية ؟ قال « أظن . أنى فقير كما تعلم . ولا
غنى بى عن العمل »

واضطربت الحرب ثم خمدت الوقدة . واضطربت مصر ثم سكنت
واستقرت . واتفق انى كنت أتمشى يوما على ساحل البحر فى
الاسكندرية واذا بصاحبى خارجا من الماء . فسررنى أنى لقيته وجلست
معه ساعة على الرمال ، وحدثنى أنه تزوج وان زوجته معه الآن .
ولكنه مضطر أن يدعها مع أهله لان حياته فى السودان أربقتها ولا قبل
لها بالعودة إليها . وأخبرنى ان فى نيته أن يؤوب ليصفى تجارتها
ثم يتننى الحياة من جديد فى مصر ، والا رحل الى سوريا أو غيرها

من البلدان التي تكون زوجته أقدر على احتمال العيش فيها . وبدالى من لهجته أنه يحب زوجته وأنه سيفتقدها حين يعود الى السودان وفى تفكير فى التضحية بتجارته التي استنفذت أخصب أيام عمره دليل قاطع على ذلك . ولكن حديثه كانت فيه مرارة ، وشت بشعوره بأن المرأة المصرية غل فى عنق الرجل المغامر .

وغاب سنة عن مصر وزوجته ، آب بعدها من آب مطرودا من السودان . وأخفقت جهوده كلها ، وحبطت حياته أيضا ، فقد اضطر أن يسرح زوجته لأنها لن تحفظ غيبته . ولكن شعوره العميق بالعدل جعله يكتب الى أبيها .

« . . . واسمح لى أن أؤكد لك أنى لأشعر بمرارة أو ألم الا مرارة الفراق وألم الاضطراب الى الطلاق . فليس يخفى على أنى أنا الملولم وأن الذنب لى ، ولا أقول دونها ، ولكنى لأستطيع أن اتصل من نصيبى من التبعة، وإذا كان الرجال لا يقوى الكثير منهم على احتمال الحياة فى السودان فكيف بالنساء ؟ وما عسى صبر فتاة مترفة نشأت فى نعمة وتربت فى كنف اللعة وظل المدنية - ما عسى أن يبلغ من صبرها على الجهاد الشاق المتواصل الذى كان لابد لى منه »

وانقضت سنتان لأدرى كيف ولا أين قضاهما ، وفى ليلة من ليالى الشتاء المطيرة ركبت سيارة الى بيتى ، وخيل الى وأنا مضطجع فيها أنى أعرف ظهر هذا السائق ، وكان شعره أبيض . فعدت أحضر الى ذهنى كيف ركبت فتذكرت انسى كنت مطاطيء الرأس وأن يد السائق فتحت الباب فدخلت دون أن أرفع عينى اتقاء للمطر .

ولما بلغت البيت ووقفت ببابه نظرت فاذا هو صاحبى فصحت

به .

« ما هذا ؟ »

فلم يمد الى يده . وقال وهو يبتسم .

« أكل العيش »

فقلت « دع السيارة وتعال نجلس قليلا ؟ »

فلما أشعل سيجارته سألته .

« ألم تكن تستطع أن تجد وظيفة ؟ »

« وظيفة ؟ كلا . لأصلح لهذا . ولأحسب أنى فكرت فيه . »
قلت : « لاحول ولا قوة الا بالله »

قال « يا صاحبي . إن حياتى لا بأس بها . أنا الآن سائق مأجور ولكنى أربح شيئا فوق أجرى . والذين كنت اعرفهم ظرفاء جدا ، أراد أحدهم مرة أن يهبني خمسة جنيهات فرفضتها لأنىها صدقة . ولم يسؤه رفضى لأنه يستطيع أن يفهم . وأنا الآن أدخر . وسأشتري سيارة وأسوقها بنفسى وسيكون ذلك أربح كثيرا . ثم أشتري غيرها ثم غيرها وهكذا . فلا تبتئس لى يا صاحبي . إن المستقبل كما ترى ليس بالمظلم . كلا ، إن رقعة الامل واسعة . واسعة جدا ، وأوسع منها مجال السعى وميدان العمل . »

فلم أستطع أن أقول شيئا . وبعد هنيهة قدمت له سيجارة أخرى فأبأها وقال :

« لست أدخن . لم أعتد شيئا . أتعرف ؟ لقد ركبت معى زوجتى السابقة مرة . . »

ففرغت وسألته :

« هل عرفتك . »

قال « لم أحاول أن أخفى وجهى »

قلت « وهى ؟ »

قال « ماذا يعنينى ؟ والسائق يجب أن يكون مؤدبا يا صديقى . »

قلت « ولكن لم تقل لك شيئا ؟ »

فهز كتفه وقال .

« لم تكن وحدها . »

فنهضت وقلت « من كان معها ؟ »

فلم يزد على أن ابتسم وقال :

أنى لى أن أعرف ؟ ليس فى سيارتى قلم لتحقيق الشخصيات ،
قلت :

« هل تريد أن تقول ... ؟ »

فقاطعتنى متمتما . « ان أمرها لايعنينى . نعم »

قلت ملحا . « ولكنك لاتستطيع أن تخدعنى . انك مازلت
تحبها . »

فطال وجهه وهو يقول . « كنت أحبها . هذا هو الصحيح . »
— والآن ؟

قال . « والآن أنا سائق سيارة أكتسب رزقى بعرق جبينى
وأطلع الى المستقبل وأرد عينى عن الماضى . »

فهزئت يده وقلت له . « انك رجل »

ولكن ثنائى عليه لم يسره . فهو لم يزل كما كان يكره « الشعور
بالذات »

صباح ومساء

« لم لاتستخدمين سائقا ؟ »

« لاثقة لى بسائق ، ولماذا اضع حياتى ومالى فى يد مخلوق آخر ؟ »

ثم قالت « ايضايقك انى اتولى القيادة ؟ »

فلم اجب لان السيارة فى يدها كانت تخطف وتطوى الارض كأنها من جن سليمان ، وكان الهواء على وجهى يسرق أنفاسى ، فقد كانت سيارة مكشوفة ذات مقعدين اثنين . والهانى ايضا عن الجواب أنا وقفنا بين لورى مقبل علينا ، وعربة تحمل الخضر الى يميننا .

فلما أفقت قلت :

« مااحسب سائقا يطول به العمر عندك »

قالت « على العكس - انهم يهرمون فى خدمتنا »

قلت « انى اصدق ذلك ؟ فقد أدركنى الكبر منذ ركبت معك »

فرمت الى نظرة وضيئة ، ولم تقل شيئا

وكنا على الطريق الزراعى - وهو واسع عريض - وكان السجناء - أو المذنبون كما يسمونهم - يرشونه ويسوونه فى مواضع ، والاسراع على الثرى البليل غير مأمون ، وكان أكبر ظنى ، كلما شارفنا زحلوقة اننا لامحالة منحدرون الى التربة ، غير أنها كانت حريصة ، تنحرف عن البلل الى الارض الجافة حتى اذا جازت مسافته كرت الى اليمين ، واستقامت على طريقها

وقالت وقد شاع الابتسام فى وجهها النضير :

« ميت من الخوف ؟ »

ققلت « ليس الى درجة الموت . فمازلت أحس بذراعى اليسرى -
أظنها تستمد الحياة والاحساس منك »

وكننت أنا الى يمينها ، فالقت الى نظرة عجلى لم أدرك كنهها -
فأثرت أن أعدل بالكلام عن مجراه وقلت

« والحقيقة ان أختى أعدت لغدائك « براما » محشوا بالارزوالدجاج
وأنا أحب هذا اللون من الطعام الريفى ولا أريد أن أحرمه فان فيه
لغنا ، وهو مظهر عناية »

قالت « صحيح ؟ ماأبدع هذا !! اذن فلنسرع لندركه »

قلت « انه يستطيع أن ينتظر فلن يأكل نفسه »

قالت « ولكنك تحبه جدا اليس كذلك ؟ »

قلت « هو الشئ الوحيد الذى أصرح بحبه وقد كنت فى صلباي
أجمعه واحفظه كما يجمع بعضهم طوابع البريد ، أم ترانا نتكلم عن
نرجس العيون ؟ »

قالت « بل عن بساط الريح ياجوعان »

وزادت السرعة ، فاضطجعت وتنهدت وأسلمت أمرى لله . وانعطفنا
فجأة ثم استوينا على الطريق ، فإذا أمامنا قافلة من الجمال ، فتمهلنا
حتى جازتها ، وليس أسرع من الجمال الى النفرة والاضطراب حين
تمر بها سيارة ، وأحسب هذا لان الجمل والسيارة رمزان لعصرين
لايجتمعان » ثم قالت :

« لست أخشى شيئا كما أخشى الجمال »

فقلت : « صدقت : وأرجو أن تتصورى ان الطريق غاص بهذه
المخلوقات المخيفة »

فضحكت ولم تقل شيئا

وبلغنا جسرا يسمى « الجسر الابيض » وان كان دهان حاجزيه
أسود ، والطريق بعده يذهب يمنا ويسرة فوقفت على آخر الجسر
تسألنى من أين ؟

فقلت كائى أحدث نفسى

« ومع ذلك تزعم أنها تستطيع أن تقطع الطريق معصوبة العينين ؟ »
فاحمر وجهها ودفعت السيارة الى الطريق الايسر ، وبعد دقائق
قالت بحدة :

« انى لم أدع هذا • ثم ان النسيان مقتفر وانك لتعلم انى ماسرت
فيه الا مرة واحدة من قبل • وكان السير ليلا أيضا »
فقلت وأنا شامت :

« لقد كنت أود على الرغم من خوفى أن تضىلى ، ولكنى أخاف أن
يبرد البرام » أو لا يبقى منه زوج أختى شيئا ، فإنه كما تعلمين ،
شره »

غير أنها أصرت على الصمت حتى بلغنا الدار وأدركنا البرام
وكان صباح

ثم كان مساء

وكنّا حول المائدة فقال « سالم » زوج أختى :

« هل من اساءة الادب أن يأمرك سيديك أن تناولييه هذه
الخوخة ؟ أم يجب أن ينهض السيد وينحنى على المائدة ويمد ذراعه
الى الطرف الآخر على مرأى من كل هؤلاء الطفيليين والطفيليات ؟ »
فتناولت زوجته الطبق وهمت بأن تدفع به اليه ، ثم لمع فى
عينيهما بريق العبث فسلطت على الخوخة أسنانها
أسفة • لم يبق فى الطبق خوخ »

فأضطجع وأخرج سيجارة أشعلها على مهل ثم قال :

« يا امرأة • سيعاقبك الله بحرمانى • سيصلى جسمك البض نارا
حامية • وسأحمل أنا اليها الفحم والحطب على كتفى هذه ••• أم
تراها توقد بالكهرباء ؟ »

فرشقه زوجته بالنواة

ولما انقطع الضحك قالت زوجته :

« أتشربون القهوة أم تخرجون الى الحديقة ؟ »

فهز الرجال رؤوسهم - سالم وأخوه حامد وأنا - وتراجع السيدات - الزوجتان وسميحة التى حملتنى فى سيارتها - بكراسيهن

وكانت السماء كالمخلمل الاسود الا انها مثقوبة فى بضعة ملايين من المواضع ، ولمع من كل ثقب ضوء خفاق يبدو فيما « تحس » العين كالبارد المقرر ، ولا عجب ، فالبرد فى السموات مرتقب ، ولم تكن النجوم تنير أو تجلو ظلاما ، ولكنها كانت ترينا أين هى وتدلنا بالتماها على مكانها ، وكان الشجر نائما لاتوقظ أوراقه نسمة ، وكانما تعاون الليل والريف على اتراع كأس السكون

والتفت سالم الى وسألنى
« ماذا تصنع اذا أردت أن تتذكر شيئا أنسيته ؟ »

قلت « لأضع شيئا - اترك الدر راسيا فى قاع اليم ، لاأحاول أن أفرض عنه غلاف الصدف المنطوى عليه »
فابتسم ساخرا وقال

« الدر ؟ ألا تزال تجهل ان رأسك الذى بين كتفيك ليس خيسرا من مزبلة ؟ » ونشئ وجهه الى زوجته وقال •

« يا امرأة - ماذا تصنعين اذا أردت أن تستحيى ذكرى تمعن فى الغمض ؟ اليس هذا تعبيراً لبقا ؟ »

فقلت أختى وهى تعبت بخاتمها :

« أنقل خاتمى من يد الى يد »

قال « ماأبرعه أبرعك ؟ ! »

قالت بسداجة « ان هذا يشعرنى . بأنى ناسية شيئا »

فقال متهمكاً « معلوم معلوم • ثم لايبقى بعد ذلك الا أن تتذكرى ماأنت ناسية ؟ شئ سهل جدا »

فقال أخوه حامد « أنا أدلك على ماأهو خير من هذا وأجدى - لتلبس جوربك فوق الحذاء فتعرف انك •• انك أحق »

واضفت انا « او تلبس الجاكته على جلدك السميك - اعنى تحت القميص - وبذلك تنقلب ظهرا لبطن وتعرف ماغاب عنك من الدفائن التى فى جوفك »

فقال باحتقار « اذهبا وغيرا وجهيكا - لانتظرا أن تنسيا شيئا - وأذيعا نبا التغير فى الصحف لتتلقيا رسائل الشكر »

ولما هدأت الثورة ووسعه أن ينهض على رجليه مرة أخرى ، وأن يصلح ثيابه ويسوى شعره ويتنفس بانتظام قالت سميحة بخبت « هل تذكرت الآن ماكنت ناسيا ؟ » فلم ينهزم ، وأمر كفه على جبينه وهو يقول :

« لقد غامت سماء هذا العقل السامى لحظة ، ولكن الصصفاء الطبيعى عاوده ، أو بعبارة أخرى أقرب الى مستوى أذهانكم الارضية .. »

فثرنايه مرة أخرى
ثم سكنت الضوضاء فقال :

« لو كان يشغلکم شيء عن بطونكم التى تحشونها بثمرات كدى وكدحى - لو كنتم تشكرون الله الذى من عليكم بى .. ولكن لاکرامة لنبى فى قومه • على كل حال .. »

وسكت ، فنظر بعضنا الى بعض وهمنا بالكلام أو استئناف المناوشة ، غير انه رفع يدا كابحة وقال

« حس ، لاتنطقوا بحرف • ان الحكيم يفكر ... هذا الرأس الكبير .. هذا البحر الطامى العميق الزاخر بالـ .. »
بالجيف

قالتها سميحة واطلقت وراءها ضحكة فضية النبرات فأدار اليها وجهه وقال

« انظروا كيف يكون كفران النعم ! هذا القم الدقيق الذى لايزال يجتر طعامى هو الذى يشتمنى .. »
فصاحت به النسوة محتجات •

وقالت اختى « ألا تقول ماذا ؟ لقد اختنقنا »
 فقال بتؤدة « تمهلي • ان الله مع الصابرين • لقد كنت أقول
 انى أغوص فى بحر فكرى - فى عبابه المصطفق الامواج - على
 ذخائر الحكمة وكنوزها • • »
 فأومات الى سميحة وقالت بضجر
 « هيا بنا الى الحديقة • »
 فصاح بنا ونحن خارجان « نعم اذهب • واغرق نفسك فى مستنقع
 لاتترك عنوانك • كلا »

ولما بلغنا الباب الخشبي للحديقة نظرت سميحة الى برقة وقالت :
 « نتسلق الباب أم تكون ملاكا ؟ »
 قلت « بجناحين ؟ »
 قالت « افتح الباب • »
 قلت مقاطعا « نعم • ليدخل آدم وحواء الجنة بلا عائق »
 قالت ضاحكة « كيف عرفت ؟ »
 قلت « بذلكى النادر • وهكذا أنا دائما بعد أن أكل ثمر الارز
 والدجاج »

وسميحة قريبة لى ، ولكن أباهما فى حياته كان يكره سالما ولا يطيق
 معيشته أو حديثه ، ويعلمه أوقح مخلوق دب على ظهر هذه الكرة ،
 فأبى على ابنته أن تزورنا أو تتصل بنا ، ولم تكن أمها ترى رأيه
 ولكن علاجه أعباها ، فلما اختاره الله الى جواره ، تواصل الاهل بعد
 التقاطع ، وصارت سميحة تختلف إلينا وتقضى معنا أسابيع كل
 بضعة شهور ، وأحببناها وأحببتنا ، فلما انتقلنا الى الريف فى مقدمة
 المصيف ، تخلفت أنا ، حتى تجرئ معى
 وتمشيننا تحت أشجار المانجو والجوافة والحوخ ، ثم التفت اليها
 فجأة وقلت
 « سميحة »
 فثنت الى عينيها منتظرة فقلت

« ألم أقل لك »

قالت « ماذا ؟ »

قلت « انى أحب »

قالت « من السعيدة ؟ »

قلت « أتظنينها تسعد بى ؟ »

قالت « نعم »

قلت : « أواثقة أنت ؟ »

قالت « بلا شك »

قلت « كل الوثوق ؟ لا ظل من الريب عندك ؟ »

فمدت يدها وقرصت أذنى فتوجعت فقالت :

« لن أخلى سبيلها حتى تخبرنى »

فضممتها الى صدرى وأهويت بالقبل على جبينها وخديها ، وهممت
أن ألثم فاهها ولكنها دفعت وجهى بشئ من العنف وصاحت بى

« كيف تحبها وتقبلنى ؟ »

قلت : « لو كنت تلبسين بنطلونا ؟ »

قالت : « لماذا ؟ »

قلت « اذن لا لقينك فى هذه القناة »

قالت بضحك « انى مستعدة أن ألكم مرة أخرى »

قلت « والله ان فعلت لا لقينك فى القناة بغض النظر عن
البنطلونات »

فلكمتنى

فحملتها على يدى وصرت أدنيتها شيئاً فشيئاً من الماء وهى تصيح ،
وترجو ، وتوسل ، وأنا أظهر العناد والاصرار وأتكلف الجهد والصراعة

فاستحلفتني بمن أحب ، فوضعتها على رجلها وقلت « يا خبيثة »
ولثمت فمها فطوقتني بذراعيها

لما رجعنا الى البيت وصرنا مع سائر الاسرة حدجنا سالم بنظرة
فاحصة وسال .

« هل أوصدتما الباب ؟ »

فقالت سميحة وهي تنظر الى « لقد نسينا »

فقال وهو يشير اليها « نسيا ؟! أتسمعون ؟ »

ثم التفت الى أختي وقال

« ألا ترين يا امرأة ؟ أم ترى تنقصك التجربة ؟ أم أنت تتباهين »

ونھض واقفا

ولا أدري لماذا ، ولكني أنا وسميحة وقفنا أيضا فرفعت أختي
عينها اليها ثم صاحت وأقيلت على سميحة تقبلها وتعانقها - وتبعها
الباقون

وأخيرا قال سالم :

« بصفتي سيد الاسرة ، وتاج رأس العائلة ، كان ينبغي أن أكون
أول من يقبلها كما كنت أول من قبض عليها متلبسة بالجريمة ،
لكن لا بأس . » والتفت الى « هذه ثالث مرة يرتفع فيها شأن
رجل من أسرتنا بالمصاهرة »

فقلت له « صدقت »

فقبلتني أختي

الشيخ قفة

لم يكن شيخا ولا كان فيه من « القفة » مشابه ، ولكن اسمه كان - فيما نعرف ويعرف أهل الحي - « الشيخ قفة » . ولم تكن ندعوه بذلك على سبيل التهكم أو الزراية أو المزاح ، ولا كنا نشعر حين نناديه أو نخاطبه أو نذكره فيما بيننا - ان في اسمه غرابة أو شذوذا عن المألوف ، ولا أحسب أن أحدا من اصدقائه عنى بأن يعرف كيف صار هذا الاسم يطلق عليه ، أو ماذا كان اسمه قبل أن يشتهر به ، حتى « البوليس » كان يستلم بالواقع من الامر ولا يخطر له أن يسأل عن الاسم الذي أطلقه عليه أبواه . وكان « عطارا » و « بقالا » في آن معا . وفي دكانه - على ضيقه - كل ما يحتاج اليه أهل الحي ويطلبونه ولا يجدونه عند سواء . وكان هذا الدكان أشبه بناد يلتقى فيه خليط عجيب من خلق الله . وكان الرجل يعرف القراءة والكتابة ولكنه لا يحسنهما ، وكان يحفظ القرآن ويعيد الكلام بالتركية وبواحدة أو اثنتين من لغات الهند ، وأحسبه تعلم التركية من « الاغوات » الذين كانوا من سكان ذلك الحي ، أما الهندية فقد تعلمها من الجنود الهنود الذين كان معسكرهم - في أيام الحرب الكبرى - على مقربة من دكانه . وكانوا - أعني الهنود - يختلفون اليه ويصفون اليه بالود ، ويستبضعون منه ما يحتاجون ، ولقد أنمرت محبتهم له اتهامه في وقت من الاوقات بأنه يبت فيهم روح الفتنة والتمرد ، فألقت السلطة العسكرية عليه القبض وحبسته أياما بلا سؤال أو تحقيق ، ثم دعاه اليه أحد الضباط وشرع يسأله - بواسطة مترجم - فتبأله الشيخ قفة وتظاهر بالسذاجة .

سأل الضابط « هل تعرف الشيخ شاوئش ؟

فقال الشيخ قفة « أين دكانه ؟ »

فكرر الضابط سؤاله « هل تعرف الشيخ شاوئش ؟ قل لا أو

نعم »

قال الشيخ قفة « ان لى ثلاثين سنة وأنا أتجر بمواد العطارة وأعرف تجارها جميعا ولكنى لم أسمع بهذا التاجر . فأين دكانه ؟ خبرونى لعل أذكره ان كنت ناسيا »

فتملأ الضابط ، ورأى أن ينتقل الى سؤال آخر فقال

« وهل تعرف فريد بك ؟ »

فصاح الشيخ قفة وهو يدق كفا بكف « أما ان هذا لغريب ؟ متى ظهر هؤلاء التجار ؟ لقد قلت لكم انى عطار منذ ثلاثين سنة وليس فى مصر تاجر كبير أو صغير الا وأنا أعرفه وهو يعرفنى ، فأين دكاكين هؤلاء ؟ قولوا أين ! واذا كانوا يبيعون بأرخص مما أبيع فأنا مستعد أن أقضى منهم حاجاتى »

وهكذا حتى ينس المحقق وأيقن أن الرجل أبله فاطلق سراحه .

وهكذا حتى ينس المحقق وأيقن أن الرجل أبله فاطلق سراحه . وكانت جلايبه جميعا متقاربة الألوان حتى ليعذر من يتوهم أنها واحدة لا تتغير ، وان لم تبد قط فى رأى العين الا نظيفة . ولسم يكن يحتذى الا « القبقاب » أما رأسه فعار أبدا صيفا وشتاء . وكان له حمار صغير معروق يستخدمه فى طحن البن ، وكان الشيخ قفة فى أوقات فراغه يتسلى بتعليم الحمار النهيق ؟ اى والله . كان صاحبنا يفعل ذلك ، ولم يكن أعجب من أمر الشيخ قفة الا أمر حماره ، فقد كان ساعى الحمار - يطيعه ، ويروح يمد عنقه ويشنى أذنيه الى الوراء ويرفع عقيرته بالنهيق كلما دعاه الشيخ قفة الى ذلك وأمره به ولكن صاحبنا موسيقى حساس الاذن ، ولم يكن على ما يظهر يرضيه نهيق حماره ، فكان يضربه ويصيح به

« ليس هكذا يا بهيم . اسمع : هاء . هاء . هاء »
ويطلقها نهقة قوية ثم يقول

« هكذا ينبغى ان تكون . والاآن فلنبدا من جديد . نعم ! »

فيعود الحمار الى النهيق ، ويعود الشيخ قفة الى الاعتراض والنقد مؤكدا الحمارة أن أنغامه كلها « نشاز »

ويتفق أن نكون مقلبين عليه من بعيد ، فنسمع الحمار ينهق
 فنحسبه الشيخ قفة يقلده أو يعلمه ، أو نسمع الشيخ قفة فنتوهمه
 حماره ، ولم تكن نستطيع التمييز بين الاصل والحكاية ، فقد كان
 صاحبنا بارعا في تقليد أصوات الحيوان والطيور ، حدثني صديق لى
 قال « دعينا مرة - أنا والشيخ قفة - الى عرس فقلنا نكتفى بالسماع
 وننتظر حتى ينقضى وقت العشاء ثم نذهب . وكان البيت فى حى
 لانعرفه معرفته ، فضللنا ، واحتجنا الى سؤال الناس . فلقينا فى
 بعض الطريق رجلا واقفا تحت مصباح ومسندا ظهره الى عموده ،
 فأقبلنا عليه نسأله « هل تعرف من فضلك أين البيت الذى فيه
 عرس فلان ؟ » وكان الرجل لسوء الحظ سكران ، فخيل اليه السكر
 أنا طفيليان نطلب طعام العرس ونتلطف عليه ولا نهتدى الى مكانه ،
 فجعل يتضحك بنا يركبنا بالمزاح الحشن الثقيل . فهممت بزجره
 ولكن الشيخ قفة ردنى عن ذلك بإيماءة ، وظل صابرا على نكاته
 السمجة ، محتملا عربدته ، وانه لفى احدى ضحكاته واذا بالشيخ
 قفة يفاجئه بمثل نباح الكلب ، فنعز المسكين وطار السكر من رأسه
 ووافق جدا وذهب يعدو كأن وراءه ألف شيطان »

وكان للشيخ قفة ابن فى الثانية عشرة من عمره ، وكان هو الذى
 بقى له من أكثر من عشرة أبناء جاء بهم الى الدنيا واختطفهم الموت منه
 واحدا بعد واحد ، وشاءت المقادير أن يلحق هذا الفتى باخوته ويذهب
 فى سبيلهم ، وسمعنا بما أصابه فقلنا نذهب لتعزيته ، وفى عصر
 اليوم الذى دفن فيه الغلام قصدنا اليه وفى ظننا أن نجد سرادقا
 أو نحو ذلك لاستقبال المعزين ، ولكننا وجدنا الشيخ قفة واقفا فى
 مكانه عارى الرأس على عادته ، وليس على وجهه ما يدل على انه
 احتسب ابنه العاشر أو الحادى عشر فى صبيحة ذلك اليوم ،
 فدهشنا ولكننا عدنا فقلنا : أحسن والله الرجل ، فان اقامة الماتم
 عمل لا جدوى منه ولا طائل تحته ، وأقبلنا عليه نصافحه ونعزيه ،
 فقدم لنا الكراسى وصنع لنا القهوة ثم جلس قبالتنا على دكة وفى
 يمينه فنجانة يترشف منها القهوة وهو يقول بلهجة الجد

« هل تعرفون رجال حاتا باتا ؟ »

فنظر بعضنا الى بعض ولم يفهم احد منا ماذا يعنى « رجال

حاتا باتا » وانعقدت السننتنا فى حلوقنا فلم نجب ، وشعرنا بشىء من الحرج ، ولم ينتظر هو جوابنا فضحك ضحكة مكتومة ارتجت لها أنحاؤه - وكان بدينا - وسالت قطرات من الفنجانة فمد ذراعه بها ليقصصها عن نيابه وقال :

« خرجنا بالولد وأمامه هؤلاء الفقهاء الذين لا يستطيع المرء أن يتبين ما يقولون . ومن أجل هذا اسميهم رجال « حاتا باتا » لان هذا هو الصوت الذى يخلص الى أذنى مما يرفعون به عقائريهم فى الجنائز . ألم تركبوا القطار قط ؟ انه يخرج من المحطة على مهل حتى اذا خلفها وراءه زاد سرعته شيئا فشيئا ثم ينطلق على وجهه ، كذلك كان يفعل رجال حاتا باتا اليوم . بدأوا يمشون أول الامر على مهل ويطلقون هذا الصوت فى تودة وأناة ، فلما جاوزنا الطرق العائرة أسرعوا أرجلهم ولاحتقتها حناجرهم . . . »

وكان هو يقص علينا ذلك ويصف لنا منظره ، يقد هذه الجماعة فى الانشاد ويحرك ذراعيه على نحو ما تتحرك ذراع القاطرة . فحزنا كيف نصنع ؟ أنضحك ؟ ان منظر الرجل يغرى بالضحك ، وحركاته وأصواته تخرج المرء عن وقاره واحتشامه ، ولكن المقام فيما كنا نحس لا ياذن لنا بمجاراته ، وليس هو بالبليد الاحساس الغليظ النفس ، انا لنعرفه ولا يخفى علينا انه يتكلف ويتصبر ويتشدد ، أم نتلقى فكاهته بالجمود ؟ فهذا خلىق أن يصلحه ويكرهه على سكون الحزن الذى يحاول بالمزاح أن يجنب الاضطراب اليه ، وأخيرا لم نجد مفرًا من مجاراته فأثرنا له ما أثر لنفسه ، ولم يكن لنا فضل فى هذه المجارة فانه هو الذى حملنا عليها ولم يدع لنا سبيلا الا اليها بما لج فيه من التفكه . ثم انصرفنا ولبثنا طول الطريق واجمين ، ولنا العذر . فما كان لنا عهد بمثل هذا التجلد ، ولقد كان هذا درسا لى حذقته ولم أزل بعد ذلك أروض نفسى عليه . وكلما أحسست أن نفسى تهم بأن تخور ذكرت الشيخ قفة وتصورت وصفه لجنازة ابنه ، فيذهب على الضعف

والشيخ قفة لا يقر الكتب ولا يعنى بالمطالعة والتحصيل ، ولكن له روح الاديب وحنته الى صنوه ، ومن أجل هذا كان مجلسه يحفل ايضا بالادباء والمتاديين ، ولم يكن الحديث يدور على أدب أو فلسفة

أو نحو ذلك ، ولكن شخصية الرجل كانت تجذب اليه الادباء وتحببه اليهم . وكان ربما زجل ، وكان الى هذا يحسن غناء ما يسمى « المواويل المربعة والمسبورة والحمراء » . خرج مرة مع ليف ممن يأنسون اليه ، وقصصوا جميعاً الى حدائق القبة ، وكان بينهم واحد ضعيف البصر غليظ الجسم عريض الدعوى . فلما صاروا الى الحديقة رجوا منه أن يحاضرهم في « قناة السويس » فوقف يخطبهم ، وراحوا هم يتراجعون خطوة فخطوة ، وهو يهضب بالكلام الفارغ ولا يرى ، حتى صار وحده ، فلم ينتبه الا على ضحك المارة ، فغضب وأراد الرجوع ، ولكن الشيخ قفة لم يزل يحاوره ويداوره حتى فاء به الرضى وأقنعه باستئناف المحاضرة ، وعاد يخطب ، وعاد اخوانه يتقهقرون ، وخالجه صاحبنا الشك فتقدم خطوات فاذا المكان قواء . فاشتد غضبه وحملت نغمته على اخوانه ، ولم تنفع فيه رقى الشيخ قفة . وركبوا في أوبتهم « الترولى » وجلس الشيخ قفة الى جانبه في مركبة واحدة ، وبقية الاخوان على مركبات أخرى ، فلما دفعها العامل الموكل بذلك وانطلقت تعدو رفع الشيخ قفة صوته بأغنية مرتجلة مطلعها « حلوفى ياما حلوفى » على وزن « عصفورى ياما عصفورى » .

« حلوفى ياما بيسرطع عمال يجعجع ويبعج

عامل محاضرة فى يوم أربع حلوفى ياما حلوفى »

وهكذا وصاحبنا يكاد صدره يتمزق من الغيظ فلو استطاع لوثب عن « الترولى » فلما بلغوا آخر المرحلة نزلوا وانطلق صاحبنا المحنق يقرع الشيخ قفة فصبر عليه هذا حتى افرغ مافى جوفه وأراح صدره من الغيظ المكتوم ثم التفت اليه وقال :

« لماذا توبخنى وقرعنى ؟ هل تنوهم أنك خير منى ؟ أترك أسمن منى أو اضخم جثة ؟ أظن أنك أحد منى بصرا أو انى انا اشد منك عمى ؟ » .

ولم يزل يعرض عليه وجوه هذه المقارنة العجيبة حتى اضطر صاحبنا الى الضحك وعادوت وجهه البشاشة

ذكرت الشيخ قفة منذ يام ، فمضيت الى حيث كان دكانه ، فلم أجده ولم أعر له على اثر ، فعدت أسفا لأدرى أحي يرزق أم اسرع به « رجال حتاباتا » . ولكنى أدرى انه لايبالى أين أو كيف يكون !

الحاج

— ألا تعرفينه يا أخت ؟
— « أنا ؟ »

وضحكت وهى تسوى الفراش وتضربه بكفها الرخصة ، ثم طرحت على السرير حبسا أبيض دقيق النسيج موقوما ، ومسحت عن جبينها قطرات لامعة من العرق المتصبب . وردت عن جبهتها العريضة الوضينة خضلا من شعرها الفيزان ، وقالت :
« أهو كهل ؟ »

فقالت روح — « لا بد ! على كل حال ليس صغيرا . فقد خرج يحج منذ عشر سنين ولم يعد وكنت يومئذ طفلة العب فى الحارة »
فسألته لولو « وكم كان عمره لما خرج الى الحج ؟ »

قالت الاخرى « لا أدرى ! ربما كان عشرين أو أكثر قليلا .
انتظري حتى أسأل ماما »

فاعترضت لولو على السؤال والخروج من أجله وعلى توهم الكبر فيمن لا يتجاوز عمره الثلاثين . وكانت هى معصرا تراهق العشرين ، ولم تكن اختا لصاحبها بل قريبة لها ، تقيم معها مذ مات أبوها وتزوجت أمها غيره وكانوا يدعونها «لولو» تدليلا لها وأن كان اسمها الحقيقى «فاطمة» أما الاخرى فلم يصيب اسمها تحريف فظل « روح »
كما كتب فى شهادة الميلاد . .

ودخلت عليهما من لا يعرف هذا التاريخ لها اسما ، فهى « ماما » أو « نينة » على لسان بنتها روح ، و « عمتى » اختصارا على لسان لولو ، و « السنت الكبيرة » على السنة الحدم ، و « بنت أم روح » حين يذكرها سواها فى غيابها ، وكانت قصيرة ربا الجسم فى غير زهم ، وضاحية المعيا ، دقيقة المعارف ، لها سميت ، وعليها وقار ؛ وفى نظرتها قوة وثبات .

وقالت وهي تدبر حملاتها في الغرفة :
« أما تزالان في هذا ؟ يا للكاغة ! ولم يبق الا ساعة على مقدمه ! »
فقال روح « انتهينا يانينة . انما كنا نتكلم عن خالى »

فحدجتهما بنظرتها التي يتحجر لها - من قوتها - ما يكون على وجه
الانسان من المعانى ، وقالت بصوت فيه بعض البرجمة
« وماذا كنتم تقولان ؟ »

فانسابت اليها (لولو) - وكان قلب (عمتى) يرق لها من الحنان
والعطف - وقالت وهي تمر أصابعها على الحيوط الملتوية فى ثوب
عمتها :

« كنا فى اختلاف : هى تقول كهل ، وأنا أقول شاب ، فايهما
هو يا عمتى ؟ »

فابتسمت لهما ، وأولتهما ظهرها وخرجت ولم تجب

لم يجرىء «الحال» المنتظر بعد ساعة كما قدرت « الست الكبيرة »
بل جاء بعد أن غابت الشمس ، ومع الظلام ، وكان دخوله فى وقت
صلاة العشاء ، فمال الى «المصلى» فى ناحية من فناء البيت ، والفتاتان
تنظران من ثقب الشباك المكور ، حتى فرغ من الصلاة وسلم ، ثم
استنداز على مهل ، وهو جالس ، واستقبل المسلمين من أتباع المرحوم
«الشيخ» - زوج أخته كان - وكانت «الست الكبيرة» قد أبت بعد
وفاة زوجها أن تشتت هؤلاء النفر ، وأصرت على أن تفتح لهم بيتها
ليقيموا فيه الصلاة والاذكار - يومى الخميس والجمعة - على عادتهم فى
حياة « الشيخ » وكان لها من مالها ومال زوجها ما يسمح لها بذلك
ولم يكن هذا يكلفها سوى الطفيف اليسير - أن يبيت هؤلاء الاتباع فى
الحجرات الكثيرة التى فى الفناء - والحجرات لا تاكل ولا تشرب كما
تقول « الست الكبيرة » ؛ ولكن حلالها يأكلون ويشربون ، كما تقول
روح ، وكان فيها بعض الكرازة - وكانت - أى الست الكبيرة تصنع
لهم فولا «نابتا» يوم الخميس تحشو به أرغفة صغيرة طرية توزع
عليهم بعد الفراغ من «الذكر» وانفضاض حلقتة ، والباقي يحمل الى
مدفن الشيخ بقرافة « المجاورين فى صباح الجمعة » وهناك تعقد حلقة

الذكر مرة أخرى ، ثم يأكل الذاكرون الرغفان والبقول ، ويترحمون على الشيخ ويدعون لزوجته التي صارت خير خلف له ، ثم يعودون .

وكان يوسف - خطيب « روح » وقريبها أيضا - يتمشى ضجرا في الفناء ويرمى نظرة بعد نظرة الى (الحاج) البطيء الذي لا يستعجل ولا يريد على ما يظهر أن ينصرف عن الاستماع الى الحافين به من اتباع الشيخ ، أو اتباع «الشيخة» كما يقول يوسف متهمكا - فلما نهض (الحاج) ، بعد أن عرف جملة ما فاتته في غيابه ، تشهد يوسف وتقدمه خطوات الى باب السلم ، كأنما يرجو بسبقه أن ينبهه الى وجوب الاسراع

غير أن الحاج كان طويلا ممشوقا وكانت فيه تؤدة شديدة ، فجعل يلحظ يوسف وهو يكاد يتوثب أمامه - وعلى شفقيه الرقيقتين المطبقتين طيف ابتسامة لا يظن اليها من لا يعرف الرجل ، ثم كأنما كره منظره فأشار اليه أن يسبقه ، ولم يدرك يوسف مراده فأنطلق يصعد السلالم بسرعة وهو يصفق ويصيح أن (افسحوا الطريق) فامتعض الحاج وأحس كأنما يعد يوسف نفسه من أهل البيت ويعدده هو غربا يحتاج أن يفسح له الطريق ، ولكنه كتم ما دار بنفسه وكظم غيظه

واستقبله النساء - أم ينبغي أن يقال «السيدات» ؟ - بالتاهيل والترحيب ، والعناق والتقبيل ، وهو جامد لا ينثنى ولا يلين ، ولا يزيد على أن يمنح خده لمن تبغى منهن لثمة ، وكن - لطوله - يحتجن أن يطفرن ليبلفن بشفاههن خسده - وقد أهملن يوسف حيث وقف وانصرفن عنه الى الحاج فكانه غير موجود .

ونظر الحاج الى «روح» نظرة فيها غض وتحديق ، فكانه يقوم سهما وقال :

« كبرت يا روح » ثم ثنى عينه الى لولو وتوضحها فاطرقت حياء وقال « وأنت أيضا ! كدت لا أعرفك » والنفت الى أخته وقال « من كان يصدق ؟ لم تكن الطفلة لولو تؤذن بأن تكون على هذا الجمال ! هيه ؟ »

وجلسوا الى مائدة مستطيلة . وكانت الوان الطعام كثيرة - حساء ،

شواء ، ومطجن ، وخضر مخلوطة ، وحشو مزيت ؛ وشعيريه صغيرة
القتل دقيقة الحيوط ، وفاكهة شتى - وكان الحاج يعجف نفسه عن
الطعام ، وكان يوسف على نقيضه ، أكلوا جرافا ، فلما اشتد المحاحن
عليه أن يقبل على الأكل قال وهو يلحظ يوسف ويبتسم

« من أدب الطعام إن أشبع المأكل »

فضحكت لولو ، ورفع يوسف عينه اليه منكرا متسخطا وقال :

« أهذه نكتة ؟ ان تكن فانها جافة »

فقال الحاج « لا عجب أن تكون . وما أظن بى الا أن إسفارى فى
البوادى وبين الهجج قد خشنتنى وأنستنى آداب الحضارة . ولست
أعتر فانى لمزهو بما فعلت مغتبطا بما لقيت . وما أحسب لمثلك
قدرة على مثل هذه الحياة »

فقال يوسف « كلا . على التحقيق » بلهجة الزراية
فقال الحاج « ولا أظنه فضلا لك أو مزية أن لا تقدر »
فقال يوسف « كيف ؟ ماذا تعنى ؟ »

فقال الحاج « انها حياة تتطلب الصلابة والمثانة لا الطراوة واللين »
فأحتقن وجه يوسف وهم بكلام ، ولكن «روح» تداركت الأمر
بقولها لحالها
« ألا تقص علينا بعض ما لقيت ؟ »

فاضطجع الحاج وقد انتشرت الابتسامة على وجهه وقال وهو لا يحول
عينه عن لولو :

« بعض ما لقيت ؟ انه كثير . نعم . كثير . . . خرجت فى احدى
حجباتى الى عرفات ، وكان أحد معارفى من مصر على جمل أمامى ، وكان
الزحام شديدا والشمس حامية حتى لقد اتخذنا مظلاتنا من نسيج
كثيف يتخذ لشرع السفن ، وكنا نرش ثيابنا بالماء لتندى . . . أوه
لقد كان يوما عصيبا . . . ولا أدري كيف حدث هذا . . . ولكن
خطام الجمل تدلى فتعثر فيه فهوى براكبه . . . »

وأمسك عن الكلام امسك من لا ينوى أن يعود اليه ، فقالت لولو
لما طال سكوته

« وماذا حدث ؟ ألا تخبرنا ؟ »

وكان قد أرخى جفنه فالتفت إليها كأنما يراها لأول مرة وقال :

« حدث ؟ آه ... لا شيء سوى أن الرجل تحطم تحت أخفاف
الجمال »

« ولكن من هو ؟ من هو ؟ »

قال « انه مسكين .. اسمه .. اسمه .. أتراني نسيتيه .. ؟
انتظري .. آه لقد تذكرت .. اسمه الخراط .. » عبده الخراط «
نعم هذا اسمه .. »

فصاح يوسف « ابن عمي ؟ مات هذه الميتة ؟
وشدت الست الكبيرة على كتف بنتها وهمت بالكلام ولكن الحاج
قال :

« مات على كفى هاتين .. وتاب قبل أن تفيض روحه بساعة »

فقال يوسف بحدة « أهذه نكتة أخرى من نكات الهمج الذين عشت
بينهم ؟ »

فقال الحاج « من نكاتي أنا يا يوسف . على أنها حقيقة مجردة
خيال فيها ولا مزاح . وقد زاملني المسكين ثلاثة شهور »

فقالت الست الكبيرة « رحمة الله عليه . لقد نعى إلينا ولكننا لم
نكن نظن أنه مات هكذا ... مسكين »

فقال الحاج وهو ينهض « والان يحسن بى أن أستريح فى غرفتى ..
لا مؤاخذه فأنى متعب »

و غسل يديه وعاد ، فلما صار فى مدخل الباب الذى يؤدى الى غرفته
وقف وأدار وجهه وقال :

« لقد أخبرنى يا يوسف ان كان مقابلا وانه أصلح لأختى بيتها
قبل سفره » ودخل ..

فى الصبح تفقدت الست الكبيرة أخاها فلم تجده ، وافت غرفته مضطربة ، وكل شىء مما كان فيها أوجد عليها من الحقائق والاخراج فى غير موضعه ، وأذهلها أمور ثلاثة :

الاول أن السرير فى وسط الغرفة ، والثانى ان خزانة ظهرت فى جوف الحائط لم تكن معروفة ، وقد رأت بابها مفتوحا ونظرت فإذا فيها أوراق صفراء مبعثرة . وعلى الأرض ما تساقط من الكلس الذى كان الحائط مطليا به ، والثالث أن على البساط فأسا صغيرة ، وعتلة ، ومعولا ، ومجرقة .

فنادت « روح » و « لولو » وقالت « انظرا ! »

فأما (روح) فدفقت صدرها بكفها وانطلقت تعرب عن دهشتها بألفاظ كثيرة تتخللها شهقات وصيحات ، وأما لولو فزوت ما بين حاجبيها ولزمت الصمت ، ثم لما أحست أن اللفظ أوشك أن ينضب معينة قالت لهما :

« ليس هذا مكانا لنا . فلنخرج »

فقالت الست الكبيرة « وندع الغرفة هكذا ؟ »

فقالت لولو « نعم ... كما تركها ... » وسيعود الى بعثرة ما فيها اذا رتبناه »

فقالت الست الكبيرة « ولكن هذه الخزانة ... لم أكن أعرف انها فى الحائط ... لم أسمع بها قط ... »

فلم تجبها لولو ، وتركتها وخرجت

* * *

وعاد الحاج قبيل الظهر ، وقال أنه خرج لصلاة الفجر وزيارة قبر الشيخ ، وأبلغ النسوة انه لا يتغذى وإنما يفطر ويتعشى فقط ، وأنه ذاهب لينام ويؤثر أن لا يزعجه أحد ، انه ينوى بعد العشاء أن يكر الى مقبرة « الشيخ » حيث ينام الى الصباح ، وقد حاولت أخته أن تثنى عزمه ، ولكن لولو غمزتها فكفت

وسالت الست الكبيرة لولو بعد انصرافه « لماذا غمزتني ؟ »
قالت لولو (لانه عنيد لا يلين ، فلا خير فى الرجاء والالاحاح)
فقالت الست (أهذا كل شىء ؟)
قالت لولو (نعم . واذكرى حال غرفته)

فانطلقت الست الكبيرة تثرثر هي وبناتها ، ولولو لا تنبس بكلمة
ولا يبدو عليها حتى انها مصغية ، وكانت تفكر فى الحاج وفيما أظهره
ولم يخفه من الكره ليوسف خطيب روح من أول ساعه ، وفى الحاحه
فى التعريض به والتنغيص عليه، وفى تبكيه فى الخروج وفيما فعل بالغرفة
وفى هذه الادوات العجيبة التى جاء بها معه ، واهتدائه الى هذه
الخزانة المحجوبة المجهولة ، واعتزازه بعد ذلك أن يقضى الليل فى
المقبرة . وكان هذا كله حقيقا أن يغرى بالتفكير ، ولكن الست
الكبيرة وبناتها شغلتهما الثروة والهذر الفارغ عما كان يجب أن
يلفتها من الامر .

وجاء يوسف فأمسكن وخضن فى حديث آخر بداته لولو ،
وانهن كذلك واذا بالحاج فى مدخل الباب يدعو أخته اليه فنهضت،
ولما صارت معه سألتها

« والآن كيف حالك ؟ »

قالت « بخير والحمد لله »

قال « وروح هل عقلت عليها لهذا الرجل »

قالت « لا . ولكن سنفعل قريبا »

قال « لا تفعلى . واسمعى . لقد عرفت من ابن عمه انه أخذ
مالك ومال لولو الذى تركه لها أبوها ، وانه يتجر لكما به »

قالت « صحيح . . ولكن هل تخشى منه على مالنا ؟ »

قال « لا بأس ! لا بأس ! ولا خوف على المال ولكنى أكره أن تكون
له روح »

فاطمأت وقالت « لماذا ؟ هلا أخبرتنى ؟ »

قال « استثقله ، هذا كل ما فى الامر ، على كل حال مافيه الخير
يقنعه الله ، والآن حدثيني عن نفسك .. »

★ ★ ★

ولم ينم كما قال ، بل برز بعد قليل فى ثياب جديدة ونادى
يوسف وقال له انه يريد أن يرى المدينة كيف صارت بعد عشر
سنوات طويلات فهل له أن يصحبه ؟ ، وكان يبتسم ويهش
ليوسف ، فارتاحت الست الكبيرة لانها كانت قد رجعت منه أن
يتلطف معه من أجل بنتها ، ولعلت عينا لولو وهى تجسه بهما
وتحاول أن تستشف معنى هذا التغير ، وأغضت « روح » حياء لانه
دار بنفسها ان حديثهما سيكون عليها .

وبات الحاج فى مقبرة الشيخ كما انذر ، وكانت فيها حجرات
كثيرة للجلوس والنوم ، مفروشه مؤثثة ، فلما كان الصباح جاء الى
البيت صبي من عمال القبور يدعوه الست الكبيرة والفتاتين أن
يوافين الحاج على قبر الشيخ ، فقمنا على عجل ومضين مستغربات
حتى هرن اليه فألفينه جالسا على كوم من التراب فى ثياب رثة
معفرة ، وبين أصابعه سيجارة يدخنها ، وفى وسط الحجرة ،
حجرة الجلوس ، حفرة كبيرة مظلمة ، أما اثاث الغرفة فمبعثر فى
نواح شتى من البناء .

واستقبلهن بإبتسامة عريضة ونهض وتقدمهن الى حيث المقاعد
المنشرة وقال

« لا يزعجكن ما تريننى فيه . وقد كنت أحب أن يكون يوسف
معكن ولكنى أحسبه لن يعود اليكن الا بعد ان يتم له جمع ما أخذ
من مالكن ليرده اليكن . لا تتعجلن .. خذى وانظرى »
وناول أخته « بنتو » وهو قطعة من النقود الذهبية الفرنسية
التي كانت متداوله فى مصر الى أوائل هذا القرن ، ثم بطل
استعمالها وحل محلها الجنيه الانجليزى

فأقبلت الفتاتان على الست الكبيرة تنظران معها وقالت روح

« ماهذا ؟ »

قال « هذه قطعة أخذتها من عبده الخراط .. لما حضرته الوفاة

بعد أن دأسته الجمال ، وأيقن أنه ملاق ربه بعد قليل ، وإن أجله لم تبق فيه فسحة ، أخبرني أن يوسف ابن عمه طمع فيكن ، وأنه أخذ مالكن وأدخله في تجارته وأصلح به حاله . واحتجت أنت الى اصلاح في البيت ، فوكلت ذلك الى عبده ابن عمه عملا بمشورة يوسف . وهذا طبيعي ولا بأس منه . ولكن عبده اهتدى الى الخزانة التي في حجرتي - اهتدى اليها وهو يجس الجدران والحوائط ويخبرها ، فمنع عن موضعها العمال - وعثر فيها على صرة من هذه النقود ، فأخفاها عنكن واقتسمها مع يوسف - لا أدري لماذا ، فقد كان في وسعه أن يخفيها عنه أيضا - وشاء حسن حظكن أن يأخذ الصرة ويدع الاوراق التي في الخزانة ، ولعله لم يعبا بها ، ثم كلس الجدار وسواه - بيديه هو كما أخبرني - فخفى مكان الخزانة وأمن الرجلان أن يفضح الله سرهما ويكشف سترهما ، ومن الغريب أنه خرج للحج بهذا المال المسروق ، ولكن الله أبى ذلك ، فوقع له ما وقع ، واعترف لي بما فعل قبل وفاته .

« فأسرعت عائدا اليكن لانقذكن من يوسف . ولم أطق صبرا ، فلم أكد أراني في حجرة الخزانة حتى حمدت الله وأيقنت أنه كتب لي التوفيق ، ولم أكن أتوقع شيئا معينا ، وانما كنت أريد أن أرى الخزانة ، ويخيل الى اني انما كنت ألتمس هذا الدليل لاقتنع بأن ما قاله عبده صحيح ، فلما اهتديت الى الخزانة وفتحتها وجدت هذه الاوراق التي استخف بها عبده ، وتركها حيث كانت ، وهي أوراق للشيخ وفيها بيان مال آخر - أكبر وأوفر - مدفون هنا في هذه المقبرة . ولو أن عبده لم يتعجل ولم يحتقر هذه الاوراق لضاع هذا المال أيضا . ولكن الله سلم . والحمد لله الذي ألهم الشيخ أن يخبيء ماله في موضعين والآن يجب أن أسوى الارض كما كانت وأعيد الفرش الى مواضعه . »

ونفض الى قلمي ، فتبعته لولو ، فلما أشرفا على الحفرة التفت اليها وقال « كنت أتمنى أن يكون لك في هذا المال نصيب يالولو . » قالت « أشكرك ، انما تبعتك لاعتذر اليك من سوء ظني بك . » قال « أعرف ذلك . كنت أقرؤه في عينك . ولو لم تفعل لي يا فتاتي ! »

قالت « ماذا ؟ »

قال « لما كنت أهلا لان أدعوك الى مشاطرتى حياتى فهل ترحلين
معى ؟ انى عائد الى أسفارى بأذن الله ؟ »

قالت فرحة « وتأخذنى معك ؟ »
فلم يجيبها وسألها

« لو خيرت بين هذا المال و ٠٠٠ » وامسك

فقالت بلهجة العتاب « أو تسأل ؟ »

قال « أتخجلين أن تعانقينى ؟ »

فضحكت وقالت « كلا »

ففتح لها ذراعيه ..

صور من اليوم



القديم والجديد

بيوتنا المصرية خليط عجيب من عصور شتى وأجيال عديدة يتجاور فيها القديم والحديث ويتزاحم الماضي والحاضر ويتشارك الجاهل والمخضرم والمولد ، ولقد يخطر لي وأنا أدور في البيت وأتأمل مختلف ما فيه كأن نفرا مسافرين من أمم شتى التقوا في موضع فجاء كل منهم بطعامه وجلسوا يأكلون معي ! وهي صورة مألوفة وما أكثر ماتقع العين على مناظر هذا الهداء بين الآثار المصرية في فصل الشتاء . كذلك أرى بيتي : الامر فيه واحد ولكنه على هذا خليط : في ناسه وملابسه . وفي متاعه وأوانيّه فهو أشبه بالمتحف منـه بالمسكن . ها هنا غرفة حديثة الطراز ولكن الوالدة - أطال الله عمرها (١) - تأبى الا ان تفرش أرضها تحت البساط بالحصير من الجدار الى الجدار - وأرى أنا أطراف هذه السقيفة بادية من الجهات الأربع ، ومفسدة منظر الغرفة ، ومجافية لكل ما فيها فأعترض فلا تسمع لي ولا تعبا بي ثم تروح تبين لي أن هذا الحصر يحصر الثراب ويقي البساط البلى ، وعبثا أحاول أن أفهمها أن من العسير ان يجمع المرء بين الزينة والمنفعة في كل شيء ، وكيف بالله يتفق طراز لويس الرابع عشر والحصير ؟ وأى ذوق يقبل أنه تطرح سجادة « للصلاة » في غرفة كهذه ومكتبتى أفردت لها غرفة صونا لما فيها ، وأغيب بعض النهار عنها ثم أغود فأدخلها فإذا بمكنسة على المكتب أو هاؤن تحت الدولاب أو قطعة كساء قديم أو ثوب بال بين مصراعى الدولاب ، وخرج كان معها في حجبها تخرج الكتب وتلسه مكانها ، وموقد عليه أدوات القهوة وحوله منابذ كثيرة تشهد بأن الغرفة كانت متخذة لمجلس الأسرة وشرب القهوة . وتحتاج الوالدة عفا الله عنها الى ورقة تلف بها شيئا فلا تسألني ولا تفكر في ، بل تعمد الى أى دفتر فتنزعه منه ما تشاء ، وقد يتفق أن يكون الدفتر فيه قصائد لي لم

(١) كتبت هذا قبل وفاتها عليها رحمة الله

تنشر أو مقالات أو مذكرات ، والحظ ذلك فأحتج فتقول فى بساطة
محببة وجهالة تخمد جذوة الغضب

« يا بنى ان الورق عندك كثير والدفاتر عديدة فما قيمة ورقة
واحدة أخذتها ؟ » فأقول « ولكن الورقة التى نزعناها قصيدة لى فماذا
اصنع الآن ؟ وكيف أنظمها مرة أخرى ؟ »

فتقهقه ثم تقول « نلظمها ؟ أنتكلم جادا ؟ »
فأقول « نعم » بلهجة التأكيد

فتقول « والله عمرى ما عرفت جدك من هزلك ! »
فأسأل « ولكن لماذا ؟ »

فتقول وهى مقطبة « أتضحك منى يا ولد ؟ تنظم ؟ ابلهاء أنا حتى
تقول لى انك تنظم ؟ »

وأظن الى الخطأ الذى وقعت فيه وأفهمها انى أعنى بالنظم قرض
الشعر لا نظم العقود ، فتحدق فى وجهى ثم تمصمص شفثيها وتهز
رأسها وتقول « شعر ! ما شاء الله ! لم يبق الا الشعر ؟! كان هذا
ينقصك ! يا خسارة يا خسارة ! »

فأمضى عنها يائسا ، وأقول لعلها أحسنت بتمزيق شعرى ! وفيه
أغضب وأنا قد كففت عن نظم الشعر ونفضت منه يدى ؟
وأنا بيب الماء فى البيت ، والحنفيات والاحواض قائمة فى مكانها ،
ولكن « الزير » لا بد منه ولا غنى عنه ، والكوز يجب أن تكون له
بلابل ، والاباريق والطمشوت أنواع ، وإن كان لا يستعملها أحد ،
والقوارير لا يأخذها احصاء ، وهى أشكال : منها القصير والطويل ،
والمديد العنق ، والضخم البطن ، والمضلع والمستدير ، الخ . ولأأدرى
ما حاجة البيت اليها لكن الذى أدريه ان كل زجاجة دواء تفرغ
تغسل وتنظف وتحفظ وترص مع اخواتها ، وعددها يزداد على الايام
حتى لا احسبنى ساحتاج الى غرفة خاصة بها ، أعرضها فيها ، والبيت مضاء
بالكهرباء ولكن المصابيح والمسارج مدخرة كأن من الممكن أن نرتد
فى حياتنا الى عصر الزيت أو الغاز . ولسنا نعجن أو نخبز لانا كفيرنا
نشتري الحبز من الحباز ، ولكن البيت غاص بالمعاجن كبيرها وصغيرها

والألواح التى تتخذ للتقريص ، والمحاور ، وأدهى من ذلك الإصرار على بناء فرن فى كل بيت نسكنه ، استعدادا للطوارئ ، أما آنية الأكل فمعرض كامل من أيام آدم الى عصرنا الحاضر . فيه الجفان والقصاع والملاعق الخشبية والصحاف من النحاس والصاج ، والحزف على أشكال شتى وصور متعددة ، والطواجن والبرانى والبرم - كل ذلك الى جانب الأواني الحديثة الخ الخ .

والخادم شىء عتيق جدا كالجبال ، ووجهه من كثرة الغضون كالمدينة تراها فى الليل من فوق مئذنة عالية ، وقد حملنى صغيرا وفى مرجوه على ما يبدو لى أن أحمله فى كبره ، والغريب أنه يشبه أبى حتى لأضحك أحيانا إذ أرانى أهم بأن أدعوه بذلك ، وعلى ذكر ذلك أقول انى لاحظت ان السن اذا ارتفعت جدا قلت الخصائص المميزة للوجه وصارت متشابهة ، وفى هذا الخادم تتجسد المحافظة على القديم والتشبث به ، فمن ذلك انى كلما طلبت أن يصنع لى قهوة أراه يجيئنى بفنجانة قوراء لها ظرف توضع فيه ولا تستقر عليه ، فاذا أدنيتها من فمى لارشف منها تمايلت وأريققت القهوة على ثيابى ، واذا طلبت فناجين من طراز حديث جاءنى باثنين مختلفين كأنى فى دكان تاجر يعرض على سلعا مختلفة ، ثم هو لا يجيئنى بالقهوة الا باردة لان « المرحوم الافندى كان يشربها كذلك » فأقول له « ولكنى أنا لست المرحوم الافندى فهاتها لى حرى كجهنم »

فيستعينه بالله ويهز يديه المعروقتين ويقول « لماذا تقول ذلك ؟ قل خيرا ! »

فأسأل « أتأسف جدا اذا رأيتنى بعد عمر طويل - طبعاً - مقذوفاً بى الى جهنم »

فلا يطبق أن يسمع هذا الكلام ، ويخرج سناخطا ويأرق الليل كله اشفاقاً على من نار السعير !

ولما صدر كتابى « صندوق الدنيا » حدث يوماً أن عدت الى البيت متعباً ، فسلمت من بعيد ، وهممت أن أمضى الى غرفتى ، ولكن زوجتى أشارت الى ، ولاحظت أنا أن والدتى لم ترد تحييتى ، فعلمت أن فى الامر شيئاً ، ووطنت نفسى على الحلم وطول البال ، ودخلت

على الوالدة وتعمدت أن أقبل عليها بوجه طلق ، وأن أضحك اليها
وأتخفى بها ، ولكنها أعرضت عني ولم تعن حتى بالنظر الى ،
ورفضت حفاوتي ، وصدتني بإشارة عنيفة ، فالتفت الى زوجتي
مستفسرا وغمزتها بعيني فقالت :

« ما هذا الكلام الفارغ الذي كتبته عنها ؟ »

وكان ينبغي أن أغضب ، أو أتصنع الغضب ولكني فكرت بسرعة
وقلت لنفسي ان الازمة حادة فلا يمكن حكيما فخلعت الطربوش
وجلست وقلت « ماذا تعنين ؟ »

وحاولت أن أشير اليها أن تكون عونا لي ، ولكنها خذلتني وقالت
« أعني أنه لا يليق أن تكذب عليها »

فوقفت والتفت الى والدتي وقلت ملاطفا « ولكن ما هي الحكاية ؟
بأي شيء كذبت عليك ؟ وماذا كتبت عنك ؟ » فانصرفت عني ولم
تجب ، فعدت الى زوجتي أسألها ، فما زادت هذه على أن خرجت
وما لبثت ان عادت بنسخة من « صندوق الدنيا » دفعتها الى ثم
قالت « انظر ماذا كتبت عنها هنا ؟ »

ففهمت - ذلك ان في الكتاب مقالا عن « الصغار والكبار » هو
عبارة عن حديث بيني وبين ابني ، اقترحت فيه عليه أن نقلب
الامر ونعكس الآية ، وأن نرسل الكبار الى المدرسة ونولي الصغار
الامر ، ومثلت له بجذته فقلت له « نقص لها شعرها ونلبسها مريده
ونبعث بها الى المدرسة »

وقلت لزوجتي « ماذا في الكتاب ؟ »

وهنا انفجرت والدتي « تسألها ماذا يا قليل الحياء ؟ أهذا جزاء
تربيتي لك وسهرى عليك وافناء صحتي وعافيتي من أجلك ؟ لعنة
الله عليك وعلى أمثالك ؟ » ان قلبي ساخط عليك الى يوم القيامة !
برئت منك فلست ابني ولا أعرفك ! حسبي الله ونعم الوكيل ! »

وتناولت سباحتها وأكبت عليها تتمتم . فقلت « ولكنك واهمة -
ليس فيما كتبت شيء يعاب . وسأقرأه لك لتقتنعي » فانتفضت
وصاحت بي « تريد أن تقرأه لي أيضا ؟ اخرج من امامي ! والله لولا

ضعفى الادبتك غير هذا الادب ! يا عديم التربية • أنا تقص لى شعرى
وتلبسنى مريلة ؟! أنا • أنا • بعد أن ابيض شعرى وأشابتنى
تربيتك • • ولكن ماذا أنتظر ممن يعاشر الانجليز والكفار • •
اخرج ! اخرج من هنا • عند الله تعالى ! »

فتألمت لها وأدركنى العطف عليها وأردت أن أعرف من الذى
دس لى عندها فقلت « ولكنى لم أقص لك شعرك • انه على رأسك •
فماذا يفضبك • »

فقلت « على رأبلى ؟ وهل كنت تريد أن تقصه بالفعل ؟ والله
كنت أقطع يدك يا • • • »

« ولكن من الذى كذب على ؟ »

« يقص لى شعرى ! ؟ ما شاء الله ! فى آخر الزمن اذهب الى
المدرسة والبس مريلة ؟ ولكن حسبى الله فيك ! اذهب عنى •
فلست أطيق النظر الى وجهك المسيح ! اذهب ! قلبى وربى غاضبان
عليك ! »

ذهبت • وماذا كان يسعنى غير ذلك فى فورة غضبها ؟ وعلمت
من زوجتى أن عجوزا بلهاء من قريباتها كانت تزور والده صديق
لى فأفهمها هذا الصديق اللعين انى قصصت لامي شعرها وألبستها
مريلة وأدخلتها مدرسة فقالت العجوز

« يا بنى حرام • »

قال « صديقى »

قالت « لقد كنت عندها منذ أيام فالفيتها على عهدى بها • لاشعرها
مقصوص ، ولا مريلة على صدرها ، الكذب حرام يا بنى ؟ انها سيده
تعرف ربها »

قال « ابنها هو الذى يقول عنها ذلك ، لا أنا »

قالت « ابنها ؟ من قال هذا ؟ »

قال • « حكاه فى كتاب وضعه والناس كلها تقرأه »

قالت « يا للفضيحة ! ولكن يا بنى هذا ليس بصحيح ؟ »

قال « هل يكذب ابنها عليها ؟ »

قالت « سأذهب اليها وأتأملها هذه المرة جيّدا • من يدري ؟
أتراها خرفت ؟ »

وقد كان • جاءت العجوز الى بيتنا وجلست الى جانب والدتى
وجعلت ترمقها وتجيل فيها عينها ، ووالدتى تعجب ولا تتكلم •
وضجرت العجوز واشتأقت أن تقف على الحقيقة فمدت يدها الى
راسها لتحسسها لتستوثق من شعرها أهو مقصوص أم على حاله •
والتفتت اليها والدتى وسألتها « ما هذا ؟ ماذا جرى لك ؟ »

فقالت العجوز « لا • كذب »

فسألتها • « ما هو الكذب ؟ »

قالت « ما يحكونه عنك »

فدهشت والدتى • « ما يحكونه عنى ؟ عنى أنا ؟ »

قالت « اى والله كذبوا • أعوذ بالله من أبناء هذه الايام ! لن
أصدق أحدا منهم بعد هذا »

وقصت عليها الحكاية ...

وهكذا عرفت الدسيسة ومصدرها ، ولكن والدتى لم تفيء الى
الرضا الا بعد جهاد طويل شاق • ولما اقتنعت بانها وقبعة صديقى
هذا ضحكت جدا ، ولا تزال كلما رأت قريبتها البلهاء تدير وجهها
عنها لتخفى ابتسامها •

أما صاحبي الذى كاد لي فقد أنذرتة انى لا محالة منتصف منه
فانى كما يقول ابن الرومى :

للخير والشر بقاء عندي كالارض مهما استودعت تؤدى
ومن يدري ؟ لعلى أتحت له فرصة أخرى للمعاينة •

رجل عادى

هو أنموذج حسن لذلك الطراز من الادميين الذين نطلق عليهم كلمة «الواسط العاديين» فيه تجتمع النقائص التى يعيب اجتماعها المثقفون ، والنقائص التى يزدريها ويتنزه عنها الاكثرون - مثقفين أو غير مثقفين - فهو مثلاً يكفر بالديمقراطية ولا يؤمن بالمساواة ويبدو ذلك منه فى زيه وبزته ومشيته وحديثه وخيالاته ، ومع ذلك يؤثر الجمهوريه على كل ما عداها من نظم الحكم ، ومن مبادئه العملية أن ليس اشد غفلة ممن يقرض غيره الا من يرد ما يقترض . ويتفق أن يمسر ببعض الفقراء فيفرغ فى أيديهم ما معه من مال قل أو كثر ، وهو الذى ربما ضن على صديق له بفنجانة قهوة ، وأحياناً يحب الناس أو يكرههم تبعاً لما يصدر عنهم ويكون منهم ، وأحياناً يكون حبه أو كرهه لهم لانهم يكونون كما خلقهم الله لا شراً أو خيراً مما خلقهم . ويصنع الجميل ويفسده بما هو أقبح من المن ، أعنى بالمجاهرة بالآلام البواعث عليه ، ويقامر بمستقبله - ويشرب ويفعل الاسوء ولا ينكر من سيرته شيئاً ولا يخجل أن يقر على نفسه بالشين وأن يبرئها من المحامد والفضائل .

وقد أحب - أعنى عشق - فى حياته مرتين والحب عنده «كالزكام» يجىء - كما يقول - من التعرض ، وإذا كان غيره يرتاح الى اعلان زكامة والسير به فى الطريق طلباً لعطف الاخوان ، فإنه هو يؤثر الحمية والاحتجاب حتى يبرأ ، كراهة لهذا العطف واستكباراً أن يكون بحيث يستحقه من الناس . وكان أخيب حبيه الثانى - والاخير - لان الخيبة فيه لم تكن لغدر أو نكث للعهد ممن أحبها - كما حدث فى حبه الاول - بل لان عمه - وأبا فتاته - هو الذى سد فى وجهه الطريق وأخذة عليه وعلى بنته . وكان عمه يرى فيه مثلاً للسقوط وفساد السريرة ، ويمقت حتى أن يراه ، ويعتقد أنه خدن سوء ، وان الاتصال به مجلبة

للشر ، فحرم عليه بيته ونهى ابنه عن مخالطته ، لما كان يسمح عنه من الجراح وركوب الحياة بالشباب ، ولم يكن صاحبنا صغيرا ، ولا محتاجا - على استرافه - لعمه ، ولا كان يعنيه أن يكايده أو يناوئه أو ينتصف لنفسه منه ، وقلما كان يفكر فيه أو يخطر بباله ، ولم يمنعه كره عمه له أن يتلقى ابنه كما يتلقى سواء . . . أعنى بالاحتمال والتجاوز وبالمروءة الناشئة عن الاستخفاف بالحياة لا عن كرم النفس ، وشاء القدر مع ذلك أو أتاحت الظروف أن يحب صاحبنا ابنة عمه ، وأن تبادلها هي أيضا حبا بحب وحفاظا بحفاظ .

وكان هو نفسه يعجب لهذا ، لا لحبه لها فانها في رايه تستحق ذلك منه ، بل لحبها هي له ، على الرغم من كره عمه له والحاحه بالظعن عليه ولجأته في تنقصه . وقد يتفلسف في تعليل ذلك فيقول . . . انه ما من فتاة تكف عن حب الرجل الذي يستولى على هواها من أجل ما يحصبه به غيره من التهم . وقد تنهم أنت حبيبها بالخسة وسقوط المروءة فتفتقر عن أعذب ابتساماتها ، فاذا كررت ذلك وذهبت تبدى فيه وتعيد ، فقد تسامك وتمل حديثك . وقد يكون حبيبها لصا . ولكن ما هي الدنيا اذا لم تكن مغارة لصوص . ان الناس لا يزال بعضهم يسرق بعضا ويسطوقويهم على ضعيفهم ويسقط متحفزهم على غافلهم ، والمستعد منهم على المفطر المهمل ، حتى الشهرة تسرق والحق والفضل ، وما شهرة القواد ؟ اليس اغتصابا لمجهود من دونهم من ضباط وجنود ؟ وربما كان حبيبها قاتلا سفاحا ، غير أن هذا لا يثنىها عن حبه ، وهى خلت الدنيا ممن يحسن أن يقتل ويخرج منها ؟ وقد يكون جباناً منخوب القواد ولكنه يحسن أن يغازل ويجيد الاعراب عن حبه وارضاه عاطفة المرأة على حين يتفق أن يكون الجرى القسوى القلب مملا فاترا ، وربما كان مقامرا ولكنه اليس الحظ نفسه قمارا رائعا ؟ . . . انما يصرف الفتاة عن حبها خيانة الرجل ، خيانة تثبت عليه لامية فيها ، وحتى هذه فيها قولان فقد تكون أشد اغراء وأسخر لحيال المرأة . . . الحقيقة انى لا أدري ، فان المرأة لغز ، ومن الغازها أن واحدة من بنات حواء تعبنى . . .

وجاء ابن عمه يوما ينبئه أن أباه مستعد أن يشتري انصرافه عن
ابنته بالثمن الذى يفرضه ، ففرك صاحبنا كفيه والتمعت عيناه
وقال :

« اذن قم بنا اليه فانى وحقق مفلس * »

وكان ابن عمه لا يعرف له جنا من هزل ، فلم يدر على اى وجه
يؤول ما يبدو من صفاره واستعداده للاتجار بقلبه * وصار فى
بيت العم فأصر صاحبنا على أن يكون ثمن التحول مائة جنيه وحكاية
- مائة جنيه يدفعها العم أمام الفتاة ، وحكاية تسمعها الفتاة ،
واسرتها حافة بها - أبوها وأمها وأخوها .

ولا نطيل - وما الفائدة ؟ - انتظم عقد الاسرة ووقف صاحبنا
قبالتها ، فقد أبى أن يجلس ، ومد يده وعلى فيه ابتسامه صاخرة ،
لتناول المائة المفروضة ، وأخرج محفظته فى بطء ووضعها فيها على
مهل بعد أن عدّها مرة أخرى فجلسها بعينه وأصابه ورقة ورقة ، ثم
طوى المحفظة ودسها فى جيبه ، وزرر الجاكته ، وأشعل سيجارة ،
ونفخ الدخان ، وأرسله يتلوى فى جو الغرفة ثم قال ووجهه الى
النافذة وعينه الى خيط من الشمس يعيث فيه الدخان ..

« يا فتاتى المسكينة ، لقد أبى على أبوك أن أحبك - وأخوك
أيضاً - وحسنا فعلاً * وان كنت لا أستطيع أن أتعهد بكرهك كما
أستطيع أن أتعهد بالبعد عنك ، والواقع أنى كنت أتوقع ذلك من
أبيك ولم يكن حبى لك الا حباله أنصبها لاقتناص المال من أبيك ..
ولكنى والله أشعر أنى بدأت أحبك مخلصاً ، وستشقين وأحشى
أن أشقى أنا أيضاً بعد اليوم * ولست أرى لأبيك حقاً أو سلطاناً
يحول دوننا اذا بقى حبك لى كما عهدته ، فانك أكبر من أن يكون
أمرك بيده ... »

فقاطعه العم مشمئزاً وقال : « انك أخس مما كنت أظن ، فقد
أخذت المال وحنثت »

فقال صاحبنا .. « دعنى أتكلم ولا تقاطعنى من فضلك * انك
ترين اصرار والدك على أنى خسيس بل أخس مما كان يظن .
وأحسبنى لم أعشك ولم أوهمك انى خير مما أنا ، ولم أكنمك انى

رجل سوء ، ولكن أباك يوليني شرف الاعتقاد بقدرتي لا على الانصراف عنك فحسب ، بل على اشقائك أيضا وربما كان على صواب ، فانه أبوك وعمي ، والآباء والاعمام والاخوال قلما يخطئون ، بل هم لا يخطئون قط . فاعلمي يا فتاتي اني ممن يصح أن يقال فيهم أن في وسعهم أن يؤلفوا كتابا يسردون فيه وقائع حياتهم ، ومعنى هذا - كما هو واضح بالبداهة - انهم صنعوا كل شيء الا تأليف الكتب . وهذا هو الاستثناء الوحيد ولست أنسى ان أولف كتابي الآن أو اتلوه كله عليك ، ولكني أنسى أن ألقى عليك فصلا واحدا منه .

« كنت يومئذ في مدرسة الحقوق ، وكان زملائي خيرا مني هندا ، وأنا أقوى منهم استعدادا لتلك الصفات التي لا تلبث أن تدفع المرء في طريق السقوط ، وكان أبي رحمه الله لا يجود على المال ، وكان لي زميل يتحلى بكل ما ينقصني - برقة القلب وكرم النفس واستقامة الضمير ، وكان لسوء حظه يحبني ويخلطني بنفسه ، فكنت كثيرا ما أقترض منه على نية السداد ، ولكن لا سداد ، وشاء القدر أن يحب زميلي فتاة ليس أجدر بها منه ولا به منها ، وكانت هي تحبه أيضا ، مخلصه ، لا طامعة في ماله ، وكان كثيرا ما يبشني هواه لها ويمتع نفسه بالافضاء الى بحديثها ، وبلغ من ثقته بي أن عرفني بها .

« وفي يوم من الايام اقترضت منه مائة جنيه بلا تعب ، فذهبت أخطب ود حبيبته وأغزو قلبها حتى نجحت ، ولا أطيل عليكم فان ذلك فن أظنني أنفرد دونكم باتقانه ، وهل بي من حاجة ان أصف لكم كيف بدأ اللال يدب في قلبها لصاحبي ، وكيف انها لم تنزل تعرض عنه حتى كانت النبوة ، ووقعت الجفوة ؟ كلا . لا حاجة بي الى ذلك ، وبحسبي أن أقول اني بعد ان حطمت قلبه انقلبت أحطم لها هي أيضا قلبها وأرمي بها عظمة بعد أن اكثتها لحما . . . هذه حكايتي . . . »

وأدار عينه في الاسرة وقال : « وأظنها حسبكم »

ثم صوب عينه الى حذائه وقال : « والآن ؟ . . »

فقال عمه : « انها حكاية فظيعة »

فقال صاحبنا : « تماما • والآن ، استودعكم الله • »

ومضى الى الباب وفتحه وقبل أن يوصده وراءه أدار وجهه اليهم وقال :

« آه • لقد أنسيت • سأحتفظ بهذه الجنيهات المائة • فان أسرتكم مدينة لى بها »

وقال العم مستغربا •• « ماذا يعنى ؟ أسرتنا مدينة له ؟ »

ونهضت الفتاة متثاقلة وقالت : « انى متعبة فساذهب الى مخدعى »

فقال أخوها : « بل تبقي لحظة • يا أبت لقد ظلم ابن عمى نفسه ارضاء لك • وقلب الحكاية فوضع نفسه فى موضعى »

فصاح الاب : « ماذا تقول ؟ »

فقال الابن : « أقول انه أشفق على شيخوختك ولم يشأ أن يفجعك فى ابنك

وهكذا صاحبنا أبدا : •

سياسة الزوجة

كثيرا ما أراى الآن أفكر فى المرأة أو أحداث اخوانى فى موضوعها، فهل هذا لانى عدت أشك فى صحة رأىى فيها وأرتاب فى سداد نظرى اليها ؟ أو هو لانى وصلت الى منحدر العمر فلا عجب اذا رحت التفت بعينى وبقلبى على سبيل التزود ، أو من قبيل التذكر ، قبل أن أهبط ، كما يلقي المرء نظرة عامة على الروض قبل أن ينصرف عنه ؟ لا أدرى . . ولكن الذى أدريه انى كنت مع صديق لى فما أسرع ما تدفق الحديث فى هذه المجرى فقال بلهجة مشوبة بمرارة الألم والحياة . .

« المرأة مخلوق عجيب »

قللت له : « وهذا عين ما تقوله المرأة لو سئلت عن رأيها فى الرجل وأرادت أن يلخصه فى ثلاث كلمات »

فلم يلتفت الى ملاحظتى ومضى يقص على حكاية خلاف مستفحل بينه وبين زوجته على قرب عهدهما بالزواج ويقول : « ان أغرب ما فى الأمر أن الخلاف لا أصل له »

قلت : « هذا معقول »

قال : « أنتهكم ؟ »

قلت : « كلا . ولكن تجربتى أثبتت لى أن ما يقع بين الزوجين كثيرا ما يكون عبارة عن سلسلة من المناوشات لا سبب لها ولا داعى لنشوبها الا حماقة الزوجين »

قال : « أؤكد لك انى دققت فى محاسبة نفسى وانى مقتنع بانى لست الملولم »

قلت : « ولا شك أنها هى أيضا مقتنعة بانها ليست الملولمة وان الذنب كله لك »

فضاق صدره وقال : « ما هذه المعارضة الساخرة؟ أترى من المعقول والطبيعى أن أكون أنا وزوجتى . . . »

قلت : « قل زوجتى وأنا »

قال : « انك متعبد . . أن أكون أنا وزوجتى فى خلاف على شيء عرض لنا فى يومنا فتذهب هى تعيب شيئا سمعته عنى قبل زواجنا بل قبل أن أعرفها وتعرفنى ؟ »

قلت : « نعم وبلا شك . ولو انها رجعت فى خلافها معك الى ما قبل ميلادك لما كانت فى نظرى الا أقرب الى العقل وأشبه بالطبيعة »

قال : « ماذا تريد أن تقول ؟ »

قلت : « أريد أن أقول انك ولا مؤاخذه مغفل »

قال : « وكيف كان ذلك ؟ »

قلت : « لو ذهبت الآن الى زوجتك هاشا باشا ، وعانقتها لغاب تل الخلاف الذى ارتفع ليفرق بيكنما . ان غلطتك الشنيعة هى انك تعاملها كأنها رجل وكان المنطق هو وسيلة الاقتناع . كلا . لا ينفع المنطق بين الرجل والمرأة »

قال : « وما الذى ينفع ؟ أنت متزوج مثلى فخبرنى »

قلت : ان المرأة لغز محير فى نظرى . فيجب أن أكون أنا أيضا لغزا محيرا لها ، وأول ما أتوخاه هو أن لا أدعها تفهم أو تعرف ماذا تتوقع منى ، فإذا بدا لى انها ترتقب الصلابة لنت ، أو اللين تشددت ، أو الغضب ضحككت ، أو الهياج تبلدت أو السكون ثرت »

قال : « وكيف تعرف أنها تتوقع هذا أو ذاك منك ؟ »

قلت : « من شففتيها وعينيها ونبرات صوتها وإشارتها — وبفضل ذكائى من ناحية أخرى . ولو كنت أنا زوج امرأتك لأريتك » فضحك وقال . « قبحك الله »

فتجاوزت عن هذا الدعاء وذكرت قول رصيف فاضل « قالوا للقرود

انك ستمسخ قال لاكون غزالا ؟ ، وكذلك انا ، ما لقبى مزيد ،
ومضيت فى كلامى فقلت ..

« ولكن هذا لا يمنع أن تكون مرة هى مخطئة ، فأؤكد لها انها
على صواب وأنى أنا المخطئ المعتذر . اذا رأيت أن هذا خير ما أصنع
وأنه أجلب للراحة وأنفى للمتاعب . والواقع أن من الخطأ أن يظن
الرجل ان عليه أن يكون صلبا متشبها فى كل موقف خلاف ، لتتقرر
سيادته ، وليظل هو القوام وهى الطائفة المدعنة التى لا تنبو فى
يديه . ان المسألة مسألة سياسة وحزامة لا مسألة مضاربة وعراك ،
ولتكن المسألة ما شئت فهى على التحقيق وعلى كل حال ليست مسألة
منطق أو عقل كما قلت لك . وأقص عليك موقفا يريك كيف تلين
الصعاب فى علاقة الرجل بامرأته . لا أعرف رجلا لم يكذب قط ، وأنا
كغبرى يحلو لى الكذب أحيانا ، وكثيرا ما أراى أكتب بلا داع وعلى
غير قصد . وكانت زوجتى رحمها الله تنقم منى هذا الكذب ولا تفتأ
تعنفنى عليه

« فحرت ماذا أصنع . الكذب لابد منه وهو يجىء عفوا فلا حيلة
فيه ، والاستهداف للتعنيف مرات كل يوم ليس بالسار المتسع ،
وأخيرا فتقت لى الضرورة حيلة فقصدت إليها جذلا مسرورا وقلت :

« اسمعى »

قالت : « خيرا ان شاء الله »

فلم أرتج لهذه المقابلة ولكنى تشجعت وقلت :

« ان الاقلاع عن الكذب جملة مستحيل »

فابتسمت ولم تجب فقلت :

« ان الحياة نفسها أكلوبة ضخمة »

فقال بلهجة المتبرم : « من فضلك لا تتفلسف »

قلت : « لافلسفة ولا شبهها . انما أريد أن أقول انك عايشتنى
سنوات طويلة ولا شك انك قد أيقنت لى مبتلى بالكذب . »

قالت : « أعوذ بالله ! أتتكلم جادا ؟ »

قلت : « لا تخافى . لن أكذب بعد الآن الا مرة واحدة كل يوم »

قالت مستغربة : « مرة كل يوم ؟ »

قلت : « نعم اسمح لى بكذبة واحدة كل يوم — أقل من هذا يفسد العلاج كله . ولست أستطيع أن أعين موعدا لكذبتى اليومية ، فقد تكون على ريق النفس ، أو فى وقت القيلولة من شدة الحر ، أو فى الليل من تعب النهار . كذبة واحدة والسلام »

واتفقنا على ذلك . فانطلقت أكذب كالمدفع الرشاش ، وكانت تظن الى الكذب فلا أكابر ، بل أعترف واثردف اعترافى بتذكيرها بأن هذه « أكذوبة اليوم » ونضحك وقد فض الاشكال واستراح البال . فهل تقدر أن تقول لى أين المنطق الذى أفادنا هذه الراحة ؟ »

فهز رأسه كالذى يفكر فقلت .

« لقد نفعتنى نصيحة أسدتها الى فى شبابى أخت جدتى . وكنتم قد تزوجت فجاءت تزورنا ، وكنا جميعا نحبتها ونستظرفها ونعجب بها ، وكان سر اعجابنا بها أنها تحسن ركوب الخيل كالرجال ، وشاء الحظ أن يقع خلاف يوم قدومها بينى وبين زوجتى فلزمت غرفتها ولم تجلس معنا على المائدة . فكدت أجن ولم أصب من الطعام الا قليلا . ولكن أخت جدتى كانت تأكل كأنما تدخر للمستقبل . فلما قمنا عن الطعام قالت لى :

« هذا أول خلاف بينكما ؟ »

فأسرعت تؤكد لها أن لا خلاف بيننا وانها مريضة لاتقوى على مبارحة الفراش فلم تعبأ بتأكيدى شيئا وقالت :

« وأنا سبب الخلاف ؟ »

فلم يسعنى أن أظل اكابر . وقلت : « دعينا من هذا »

فأصرت على أن لا تدعنى وقالت :

« لا أنك قلت لها لعلنى كيت وكيت فعز عليها أن تلومها على مسمع منى ؟ »

قلت : « ولكنى أكدت لها انى لم أكن ألومها • وجاهدت أن أقنعها بأنها تتجنى على »

قالت : انى امرأة فاصغ الى • لا تجادل امرأتك ولا تجاهد أبدا أن تقنعها • لو كنت ربت لها ذقنها وقبلتها أو اعترفت بخطئك لما احتاجت أن تصوم يومها فى غير رمضان »

قلت « ولكنى لم أجن ذنبا حتى أعترف بخطئى »

قالت : « كان فى مقدورك بعد أن تقر بالذنب أن تذهب الى المرأة فتخرج لسانك هازئا »

قلت : « ولكنها تتعود أن تتجنى على وأن أعذر لها »

قالت : « كلا • تسأيرها خطوة لتجرها بعد ذلك فرسغا »

وبعد أن فرغت من القهوة قالت : « اذهب الى أصدقائك وأقض معهم ساعة » فقمى • ولما هممت بالخروج أشارت الى وقالت : « انى أحس بدوار قليل • لقد هرمت • فاذا أغمى على ترشوا على وجهى ماء لنلا أموت • ولكن احضر لى معك قليلا من روح الحل »

وعلمت بعد ذلك انها لم تكذ تسمع الباب يوصد حتى قصدت الى غرفة زوجتى فلم تجدها لا نائمة ولا مريضة ولا متظاهرة بالمرض ، فقالت لها •

« لقد خرج • كان يشكو الى منك وهو لا يعدل قلامة يطيرها المقص من ظفرك »

فقالت زوجتى : « لقد آسسمعنى كلاما مرا لا نى قلت له كذا وكذا »

قالت هذه العجوز الحكيمة : « تعالى معى ولا تفكرى فيه • لو غيره لعبدك • أين كان يستطيع أن يجد مثلك جمالا وعقلا وأدبا • »

فارتاحت الى هذا الشئاء عليها من أخت جسدتى أنا ، واطمأنت الى تحيزها لها

فقالت : « لقد ظل يلومنى وأنا أحاول أن أفهمه انى لم أصنع شيئا .. »

فقالت تلك « عبتا تحاولين أن تفهمى الرجل شيئا . إن الرجال كالنواب لا يفهمون ولا يقتنعون الا بما فى رؤسهم الفارغة . فلا تفعلى هذا مرة أخرى . اياك ومجادلة الرجال فانهم لا يعقلون . »

فقالت : « ولكنى أفسم لك انى صادق »
فقالت تلك : « بلا شك . الرجال دائما هكذا يخطئون ويحملون المرأة تبعة خطئهم ، فليتك اذ لامك ضاحكته ودغدغت له خصره »

قالت : « ولكنى كيف أستطيع . »

قالت تلك غير ملتفتة الى سؤالها « اذن لانتهى الامر وسكنت الفورة وحل محلها البئر والايناس . لقد عاشرت زوجى أربعين عاما وكان شرسا شكسا وسع ذلك كنت أنا الذى أسيره لانى عرفت كيف ألين له من جانب ليسلس فى يدى قياده فيما عدا ذلك . »

ثم مسحت جبينها وأغمضت عينها فقالت زوجتى : « مالك ؟ »

قالت : « دوار خفيف يعترينى فى هذه الايام فقد هزمت يا بنيتى وأخشى أن يصيبنى الاغماء هنا . فاذا حدث فرشى وجهى بالماء واياك أن تنشقينى روح الحبل لثلا أموت »

وبعد قليل عادت . ولم أكد أضع رجلى فى الغرفة حتى رأيت أخت جدتى تقع كالهيئة ، وكانت زوجتى معها فتركتهما وأسهرت الى النافذة وتناولت قلة وعادت بها . فارتعت وسألتهما عما تنوى أن تصنع .

قالت : « أرش لها وجهها بماء »

فصحت بها : « احذرى .. هذا روح الحبل ، أنشقيها آياه »
وهممت برفع الغطاء عن الزجاجة فأمسكت بيدي وصاحت بدورها :
« احذر .. لثلا تموت . »

قلت : « كيف تموت وقد أوصتني أن انشقها روح الخل وكلفتني أن أشتريه لها ؟ »

قالت : « لقد أوصتني أنا منذ دقائق أن أرش وجهها بالماء وأن احذر انشقها روح الخل »

قلت : « هذا مستحيل • ولا يمكن أن أكون قد أسأت الفهم • إذ لماذا أجيء بروح الخل إذا كانت قد حذرتني منه ؟ كلا • »

قالت زوجتي : « لقد كان تحذيرها إياي واضحا جدا • رشي وجهي بالماء واحذري أن تنشقينى روح الخل • »

قلت : « لا بد • • اعنى أخشى أن تكونى قد فهمت الأمر على غير وجهه ولست أستطيع أن أدعك تقتلينها • »

فقالت : « ربما أكون قد أخطأت • فأفعل ما بدا لك » فساورتني المخاوف وقلت : « لعل أنا المخطئ • فأفعل ما أمرتك »

قالت : « كلا • بل أنا المخطئة • لا شك أنى أنا المخطئة • »

وردت القلة الى مكانها بين اخوانها فصحت بها :

« لا • لا • لا • هاتيها • انى بلا شك مخطئ • »

وفى هذه اللحظة انتفضت العجوز الماكرة وقالت وهى تبتسم :
« شئ جميل جدا • لا ماء ترشانه على وجهى ولا خل تنشقانى روحه • وأنا أموت ضحية لتبادل المجاملة • »

وقبلتنا

قال صاحبى : « انها لحكيمة »

قلت : « أحكم منها من يحسن الانتفاع بدرسها ».

فابتسم وقال : « سأجرب »

محادثة

« هل تعلم أنك آتستنى . »

« كلا »

ونفخ الدخان وحنى رأسه ، وهو ينفض رماد السيجارة ، وقال
متبما أو مستأنفا الكلام . .

« ثم ان هذا لا يعنينى »

فلم تسؤها هذه الصراحة وابتسمت له وقالت . .

« ولكنى أرتاح الى مجالستك . . حقيقة »

فسألها دون أن يبدي أكثرنا . . « لماذا بالله ؟ »

فأجابته بسؤال . . « ألا ترتاح أنت الى مجالستى ؟ »

فقال : « لا تطمعى أن تفتنينى . وان كان لك وجه . . وأقول لك
الحق انى أشد ارتياحا الى طعامك ؟ »

فضحكت ، وعاد هو الى الكلام فقال :

« وعلى ذكر الطعام . لقد فرغنا منه منذ أجيال ، فالى متى نظل
قاعدين الى هذه المائدة بعدما رفع عنها كل ما كان عليها ؟ أهى قاعدة
عندك ألا تدعى ضيفك ينهض حتى يهضم ما أكل ؟ »

« ألم أقل لك انى آنس بك وأسكن اليك . »

« مناوشة . سأعرب اذن . على الاقل الى الشرفة »

ونهضت وراءه وهى تقول :

« لا تخف فانى مثلك لم يعد لى قلب يؤسر . ولو أمهلتنى لكنت قد

بينت لك انى أرتاح اليك لانك لا تحاول أن تسبينى »

وجلسا على الشرفة وانطلقا يدخنان فى سكون ثم قال :

« سبكتك النار ؟ هه . »

« أما سبكتك أنت ؟ »

فلم يجب بلا او نعم ، وعادت هى تسأله بعد لحظة :

« ولماذا تخلت عنك ؟ »

« لم تتخل عني ولكن مللتها »

فظهرت على وجهها أمارات الاستهجان وسألته وهى مقطبة :

« كيف . ماذا تعنى ؟ »

فلم يكثرث لتهجمها وقال بلهجة السامان :

« اوه . أخرج مكرها حين يحلو لى أن الازم البيت ، واضطر الى السهر واحياء الليل على حين يحن رأسى الى الوصادة ، وأذهب الى دور السينما ومسارح التمثيل لاشهد ما لا أريد أن أراه . . الى آخره الى آخره . . »

« أنا أيضا كادت تجننى الحيرة والخوف والقلق و . . »

فقاطعها قائلا : دعينا . . ان الحب مرض والسلام . خبل يصيب المرء حيناً ثم يبرأ وينجو الى الابد »

فأطبقت فمها ولم تجب ، كأنها لم تسمع وبعد لحظة سألته :

« كيف كانت تلك التى أملتك ؟ حدثنى »

« جميلة »

« ولهذا مللتها ؟ »

« ولكنك اجمل منها »

« حاذر ! »

« اطمئنى . نعم أنت أفتن عينا وجيدا . جيدك ساحر ! لیتك

تريه ؟ وفمك على الخصوص - شفتك العليا مغرية التقويس . وكانى بها تهيب بالنظر اليها أن يهوى بالقبل عليها »

« يا صاحبي انك نوشك أن تفسد الامر . ان لفة صداقتنا فى خلوها من الحب ، كما تقول ، فاحذر النكسة فانها شر من المرض »
فأشار بيده مستخفا وقال

« لا تراعى ! اذا كان كل ما تخافين هو الانتكاس ، فانت آمنة . ثم انه يجب علينا أن لا نخلط ، فان كونى غير قابل للحسب ليس معناه ولا من مقتضياته أن أبخسك حقك وأن أذهب أزعم أنك ذميمة بفيضة لا لسبب سوى أن تطمئننى ، ووصف جمالك ليس معناه وصف حبي

فاحمر وجهها وقالت كانها تحاول أن تستدرجه :

« اذن ما معناه ؟ »

« معناه انى أنظر اليك كما أنظر الى صورة بديعة أو تمثال رائع الحسن ، ولو غيبت الصورة أو التمثال عن عيني ، لما آلمنى ذلك ولا حل فى نفسى ، ولا استوحش قلبى ، كذلك أنت . يعجبني حسنك ويحلولى أن أصغى الى صوتك شهرا كاملا بلا انقطاع ، ولكنك لو اختفيت فجأة - ابتلعتك الارض أو صعدت الى السماء - لما افتقدتك . قد تكون هذه الصراحة سوء أدب ولكنه ليس أعون منها على بقاء ودنا صحيحا وصداقتنا سليمة من الامراض . أنا أعجب بمحاسنك وأثنى على جيدك وفمك وانت تفتننن بآدبى . وأنا أتحدث عن سحر ك وظرفك بلا تأثر وانت تأنسين بى كما تقولين من غير أن يدور رأسك . فهل شئ أمتع من هذا ؟ »

فكانت بعد فترة سكوت . . « ولكن اليس من حقنا وواجبنا أن نخشى أن تتسرب الصداقة الجافة فى الحب المضطرم . »

فقال : « لا خوف على الإطلاق . أنت واحدة من مائة ألف لا تعبأ بالرجال ، ولا تريد أن يحبها أحد . وأنا لعل الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يغالب فتنتك ويصرف عن نفسه سحر ك . وفى وسعنا

بني نتناول كل موضوع وأن نتحدث في كل شيء من غير أن يسيء
أحدنا فهم صاحبه ،

فقلت وغمزت بعين : « ألا تعلم أن بعض الناس يتحدث عنا
كأننا خطيبان . »

فقال : « لأنهم يروننا متفقين »

قالت : « من يدري؟ اننا نظن اننا متفقان ، ولكننا قد نكون أشد
تباعدا من . . من . . »

قال : « ان الحديقة تبدو جميلة في جملتها والمرء يستطيع أن يأخذ
حسنها بنظرة ولكن من بعيد ، وهو خارج عنها ، والحياة على كل
حال كشريط السينما ، وصداقتنا هذه فصل ممتع . أما الزواج
فخاتمة . »

ونهض ووقف متكئا على سور الشرفة ثم سألها :

« ماذا نصنع غدا ؟ »

« وما حاجتنا الى صنع شيء ؟ »

نجلو صدا الصداقة »

قالت : « أشكرك »

قال : « العفو »

وبعد فترة قالت :

« أظنك محقا . فلنبكر غدا ولنخرج الى الاهرام » .

قاله : « يجب أن نتفاهم . فان الظهر هو الوقت الذي أفتح فيه
عينى على الدنيا »

قالت وانهضت الى جانبه : « الظهر ؟ عن أى شيء نتحدث ؟ أما أن
نخرج فى الفجر أو فى المساء »

فالتفت اليها مستغربا وقال : « الفجر ؟ لعلك تحسبيني من
الطيور . »

فعدت الى كرسيتها وقالت : « معذرة ! سأبحث عن رفيق آخر »
فقتل شاربه وقال بتؤدة : « اذا سمحت لي أن أرشح ابن عمك ؟ »
فأرسلت في الظلام نظرة حاملة وقالت : « ان من المصيبة أنه سيعد
دعوتي دليلا على .. على .. ويتخذ من ذلك مسوغا لمضايقتي »

قال . « هذا شيء يكون ثقيلا على النفس .

فقالت : « انك تدرك ما في هذا الموقف من الثقل فهلا كنت
لطيفا ؟ »

قال : « وكيف أكون كذلك ؟ علميني . »

قالت : « تحميني من ابن عمي »

قال : « هذا عجيب . ولكن كيف ؟ اني بطيء الذهن »

قالت : « تصحبنى أنت . انك متى استيقظت من نومك في الفجر
لا تعود تشعر بالحاجة الى النوم . »

قال : « صحيح . لقد سمعت هذا من قبل . واستطيع أن أوكد
لك اني مقتنع ، ولكن المسألة هي أن أستيقظ . »

فقالت : « اختر الوقت الذي يناسبك »

فانثنى اليها وقال برقة : « يا فتاتي المسكينة لن افسد عليك
نزهتك اذا كنت تحبين أن تخرجي في الفجر فليكن ما تشائين »

فوضعت كفيها على كتفيه وقالت : « أوه . ما أحلى هذا . ان لي
عمرا وانا أشتهد أن أخرج في نزهة كهذه ساعة الفجر . سيكون
الطريق خاليا - ملكا لنا - وتسرع بالسيارة . تخطف بها الارض
وتجعل قلبي يشب الى حلقى . ما أبدع هذا . »

قال بابتسام : « حسن . سأقف ببابك الساعة الثالثة وانتظر
ربع ساعة فاذا تأخرت عدت الى سريري . »

في فجر اليوم التالي كانا ينهبان الارض بالسيارة ، فلما جاوزا
الميزة مالا الى شجرة وأخذوا يدخنان ثم قال :

« هل صدقت ما قلته لك من أنى ؟

فلم تمهله وقطعته بقولها : « كلا . و . و . »

فقال مقاطعا بدوره : « ولا أنا صدقتك ، ان الرجل الذى يحبك
ثم يستطيع أن يدعك لا بد أن تكون به لوثة »

فقالت : « هل تغفر لى انى كنت أفتح لك بابا بعد باب وأكاد
أضع الكلام فى فمك . »

فمال اليها واهوى على فمها وهو يقول :

يا ساحرة . لقد كافحت وقاثلت شهورا ثم انهزمت - وكنت أحس
اذ أراك أن فى جنبى سيفا وأقسمت أمس أن أخرج من نارك بسلام
ومن غير أن تحترق شعرة من رأسى . ولكنى أخفقت »

قالت : « لقد فعلت ما أفعله من قبل وما لم أكن أحلم أن فى وسعى
أن أفعله . أغرقت كبريائى ودست غرورى وخنقت احترامى لنفسى .
عرضت عليك كل مفاتنى ، أفرغت روحي فى نظراتى - فى صوتى -
فأخفقت ولم أدر انى ظفرت الا هذه الساعة . »

فلثم فمها فصاحت به : « احذر فان الحب مرض - وقد أعديتك »

فقال : « أيتها الطفلة الحبيثة . انى أنا الذى أعديتك به . لقد
ظللت مصابا به منذ شهور ولكنى لم أتبين حقيقته الا . »

فسألته مقاطعة : « متى ؟ قل لى . »

فقال : « فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة ومن صباح
اليوم »

صورة لها قصة

كان لى فى قديم الزمان صديق قهوة - أعنى انى لم أكن ألقاه الا فى القهوة التى كنت أختلف اليها ولم تكن أعرف له بيتا أو عملا فالقهوة فيما كنت أرى - بيته ونادية والقعود فيها - على ما يبدو لى - كل عمله . وكان فيه شنوذ يفرينى بمعابثته وركوبه بالمزاح العملى . فكان رأيـه فى انى « فظيـع » . ثم ضرب الدهر بينى وبينه ، او على الاصح ، وبعبارة أخرى مفهومة ، اختفى هو فجأة كأنما انشقت عنه القهوة . ولم أعد أرى له أثرا أو أسمع عنه خيرا . وبعد سنين عديدة طويلة قامت فيها قيامة الدنيا ثم عادت فسكنت . واضطربت مصر ثم استقرت . وبينما كنت خارجا مساء يوم من حديقة الازبكية اصططعت برجل واقف تحت قبة عظيمة كالشمسية ، فشرعت أعتمر له واذا به يقول لى :

« آوه . كيف حالك ؟ ماذا كنت تصنع هنا ؟ »

فرفعت عينى اليه - وكان فيه طول - فلم أصدق ، ففكرت عيني وقلت له فى دهشة :

« أنت ؟ »

فقال : « ومن كنت تحسبنى ؟ تعال معى الى « الاتلييه » . »
« اتلييه ؟ »

« نعم الآن . أو تعال غدا الساعة العاشرة صباحا فانى أريد أن أصورك من زمن بعيد . »

فلم يعد لى لسان من فرط الدهشة . واكتفيت بأن أهز له رأسى موافقا فقال :

« رقم ١٥ شارع . شارع . لا أذكر اسم الشارع . تمشى من هنا - وأشار بيده - ثم تنعطف هناك - وأشار الى ناحيتين - . »
ثم . . .

فلم أطلق صبرا وقاطعته .

« اسمع يا صاحبي - إذا كنت تعنى القهوة فانا أعرفها وكل طريق يوصل إليها الا ما تصف - ان كنت تصف شيئا - اما ان كنت تحاول أن تزعم أن لك فى القاهرة أو فى سواها بيتا ؟ »
وامسكت يائسا فقال فى بساطة :

« لا . لا . لست أعنى البيت . انه الاتلييه يا أبله . إتحسب الاتلييه مسكنى ؟ »

قلت : « هذا أدهى . »
فجرنى وهو يقول : « تعال . »

وأوقف سيارة ودفعنى فيها وظل يقول لسائقها يمينا . يسارا . حتى بلغنا ما يسميه الاتلييه ، فى أفخم أحياء العاصمة وأشار الى أن أتبعه فبرزت رأسى وقلت :
« معذرة يا صاحبي . فلست أحب أن أدخل بيوت الاغراب فى غيبتهم »

قال : « ماذا تعنى ؟ وامام السائق أيضا ؟ »
قلت : « من أجل هذا امتنع »

وكانه لم يفهم فقال مفضبا : « ولكن ماذا تعنى ؟ »
قلت : « سيكون شاهدا على الجريمة . »

فهاج بى يلعننى ، ورأيت الاحزم أن اكف عن مهازلته فاكدت له أننى عرفت البيت - أعنى « الاتلييه » - وانى سأزوره فيهما - أى فيه - غدا صباحا . .

★ ★ ★

قلت لما دخلت الاتلييه وصارت يدى فى يده :
« ولكن أين آلة التصوير ؟ »

فسحب يده ورمانى بنظرة سوداء وقال :
« ماذا تعنى ؟ »

قلت : « ألا تعرف غير (ماذا تعنى) يا ببغاء ؟ »

وجلست دون أن ألثفت الى الصور العديدة المسندة الى الحيطان
والملقاة عليها وأشعلت سيجارة ووضعت رجلا على رجل . ثم قلت :
« لم اكن أعرفك فاسد النوق الى هذا الحد »

فترك ما كان فيه والتفت الى فجأة فقلت :
« هذا مخزن لا غرفة استقبال »

فايتسم وهز رأسه وعاد الى اللوح يثبت على الحوامل ثم أشار الى
كرسى وقال « هنا »

قلت « ان الكرسى الذى انا عليه أوتر . »
قال فى ضجر : « قم .. قم .. »

وصحبني ثم نزع طربوشى ورمى به حيثما اتفق . فجلست وجلس
أمام اللوح ثم نهض الى ركن ورسم لى دائرة باللون الاحمر وقال
« تنظر الى هنا »

وجلست ساعة لا اتحرك ولا أكاد أتنفس . ثم قمت أتمطى واتناب
وعدت الى الكرسى الاول فقال « ألا تنظر ؟ » وأشار الى اللوح فقلت :
« لقد نسيت . كنت أحلم وأنا قاعد أمامك . من هنا ؟ »

وكانت الصورة دقيقة وإن كانت غير تامة فراح يقول : « هذا ؟
هنا .. » ولا يزيد . فضحكت

فى الجلسة الثانية بدأ الرسم من جديد . لأن المسكين صدقنى ،
أو اثارت كلمتى الشك عنده ، فمحا الصورة الاولى فأسفت وكففت
عن مهازحه وشجعته فى غير تكلف ، ولكنه ظل لا يرضى عما يرسم .
غير انه فى الجلسة الرابعة أو الخامسة تقبل على عمله كالمحموم
يهذى ، ويتمتم ، يخرج أصواتا لا معنى لها . ثم وضع أصابع
لباستيل ونهض وتراجع خطوات ونظر الى الصورة الى وقال :
« أخيرا »

ولما رأيت الصورة صفقت فرحا بها واعجابا بحفقه وبراعته فقال :

« مهلا . مهلا . انها لا تزال ناقصة . الذقن غير محكمة ، مائلة
قليلا ، لم أصلحها اليوم لأننى عنيت بالرأس والجبين والعينين . بعد

غد أتمها • والشقة السفلى أيضا تحتاج الى مراجعة • يجب أن •
 فقلت مقاطعا : « أريدها هكذا • أنا قانع بها كما هي »
 قال : « ليس هذا شأنك • بعد غد الساعة العاشرة • لا تنس •
 ثم دار بى يرينى الصور التى يرسمها • وفى جملتها صورة زيتية
 لفتاة طال وقوفى أمامها فقال :
 « انى اشتغل بها الآن • أعجبته صورتك فهى تريد صورة أخرى
 بالباستيل • »

وفى الموعد المضروب كنت أنتظره فى الاتلييه ، فقد تأخر ، لا أدرى
 لماذا ؟ رانى لجالسى أدخل واذا بنقصر خفيف على الباب فقامت اليه
 وفتحته فدخلت الفتاة التى رايت صورتها فلما رأتنى وقفت
 وقالت « أوه »

قلت : « تفضلى سيحضر حالا • أنا صديق قديم - أعنى له -
 وقبمت لها كرسيها فترددت قليلا ثم قعدت وهى تقول : « لقد ضرب
 لى الساعة العاشرة »

قلت : « اعرف ذلك »
 قالت : « هل أخبرك ؟ »

قلت : « كلا • لعنة الله عليه ! لو فعل لبنت هنا »
 قالت : « معذرة ، ولكنى لا أعرفك • »

قلت : « عفوا يا سيدتى • ان صورتك تعرف صورتى • قليلا •
 وصورتى تعرف صورتك عن ظهر قلب • »

قالت بابتسام : « نعم ولكن أليس اليوم الثلاثاء ؟ »

قلت : « لا بد أن يكون ، لانه يومى السعيد »
 قالت : « انك فظيع »

قلت : « وصل وشى بى اليك ؟ »

قالت : « قليلا . حزنوني منك وهو يرينى صورتك »

قلت : « هل قرأ عليك السورة المحفوظة . »
قالت : « السورة »

قلت : « نعم . احترس من النشالين الخ . ان الواحها معلقة في كل ترام . ولكنى قاطع طريق لا نشال »

فضحكت وقالت : « ليس معى شىء فلا خوف منك »
قلت : « وهذه اللآلىء كلها »

قالت : أين ؟

قلت : « التى فى فمك »

قالت : « لم يكذب ولم يبالغ »
قلت : « نعم »

قلت : « ومع ذلك يضرب لنا موعدا واحدا »
قالت : « صحيح ؟ » بغضب

قلت : « ركيّف تعللين وجودى اذن ؟ اسمعى »

وقمت الى النافذة فرايت صاحبنا ينزل من السيارة فعدت اليها
وقلت :

« قومى أسرعى . هنا وراء الستار . بسرعة . لا تتحركى »
فتوارت وهى تضحك ، وقعدت أنا أدخن ، ودخل هو كالفيلة فلما
رأنى قال : « الحمد لله »

وخلع قبعبته وألقى بها فى ناحية ، وجاكتته ورماها على كرسى ،
وقعد وهو يقول : لقد حسبنى السائق مجرما فارا »

قلت : « ولم هذه العجلة ؟ »

قال : « لقد توهمت أنى ضربت الساعة العاشرة موعدا لهذا
الفتاة ، وأشار الى الصورة .
قلت ببرود « وأنا ؟ »

قال : « لقد نسيت . لم أقم من النوم الا منذ نصف ساعة »

قلت : « لا تعرف كيف تعتذر ؟ »

قال : « آوه . انك لاتهم » . « أعنى انك تستطيع أن تفهم »

قلت : « وهى ؟ »

قال : « انها امرأة ، وانت تعرف النساء ، لا يفهمن ولا يعذرن -
على أن هذه الفتاة لا بأس بها على العموم - تفهم قليلا ، تقدر الفن -
لم أقل لك ؟ »

قلت : « انها تائس ثوبا بنفسجيا . »
فاعتدل فى كرسيه وقال : « أين رأيتها ؟ »

قلت وأنا اضطجع وأدخن : « لا أدرى ليست بها ، على التحقيق »
فوثب عن الكرسي وقال : « ماذا تعنى ؟ »

قلت : « لا أعنى شيئا أيها المبتلى ، سوى انى ما زلت أنتظر
اعتذارك لى »

فسألنى بلهفة . « هل جاءت الى هنا ؟ »

قلت : « لماذا تضطرب ؟ لكأنى بك تحبها . فهل ادعوك
بالتوفيق ؟ »

فصاح يى : « يا مغفل ! »

فقلت : « أهذا اعتذار ؟ »

قال : « أنك لا تستحق سوى هذا »

قلت : « اليسى جميلة ؟ »

قال : « ما شأنى أنا بجمالها ؟ »

قلت : « كنت أحسبك انسانا »

وكان يروح ويبنى فى الغرفة كالنمر فى القفص ، فلما هم بالجلوس
قلت كأنى أحدث نفسى :

« لم أكن أحسبها هي »

فانتفض قائما قبل أن يلمس الكرسي وقال : « هل جاءت ؟ أجاب :
قلت : « لقد حسبتها ٠ ١٠ ٠ ١٠ نسيت الاسم الذي تطلقه عليهن ،

فانحنى على كالذي يهددني بالحق ، وجعل يسأل :
« من ؟ من ؟ انطق ! »

فلم أعره التفاتا ، ولا نظرت إليه ، وقلت بأقصى ما أستطيع من ضبط
النفس والبرود : « قلت لها انك لا تريد واحدة اليوم »

فارتد كأنما كنت قد ضربته بحجر على وجهه وكاد يتداعى فقلت :
« لقد كنت على موعد معي ، فلا يعقل أن تحتاج في الوقت نفسه
إلى ٠ آه ٠ تذكرت ٠ موديل »

فحملق في وجهي ، وفتح فمه جدا ، وقال :

« موديل ؟ انك ٠ انك ٠ لا أدري ماذا أنت ؟ أوقع مخلوق على ظهر
هذه الأرض »

قلت : « لم أرها من قبل فأنا معنور »

فصاح بي : « يا أعمى » أليست هذه صورتها التي وقفت ساعات
أمامها ؟

قلت : « ليس ذنبي ان الصورة لا تطابق الاصل »

فقال : « ها ؟ » ونظر الى الصورة وجعل يتأملها ويفحصها بعينه ،
ثم التفت الى وقال . « وهي ؟ أكانت عمياء مثلك »

قلت : « لقد لاحظت ٠ ٠ ٠ »

« نعم ؟ » وهو يتأملني في دهشة :

« ٠ ٠ ان عينيها سليمتان ، ولكن فيهما ٠ ٠ »

وسكت ، وبودي لو أرى وجهها وراء الستار ، وبعد هنيهة
« ٠ ٠ ولكن فيهما سحرا »

فصاح : « ويا حيوان . تقول لها انها موديل ؟ »

قلت : « لم أقل لها هذا بصراحة لأننى نسيت الكلمة ، ولكنى صرقتها بغير احتفال

فهوى الى كرسى كان ليس فى ثيابه شئ فلم أدعه وقلت : « هى ايضا لم تعرفنى وان كانت قد رأت صورتي فالذنب لك يا صاحبي كما ترى ،

فوضع رأسه بين كفيه لحظة ثم استوى قاعدا وقال بصوت خفيض « لقد أخفقت ،

فأدركنى العطف عليه ولم يخف على الله كمصور رسم اثنين رأى كل منهما الآخر فلما التقيا لم يعرف أحدهما صاحبه . فنهضت ودنوت منه ووضعت يدي على كتفه برفق وقلت :

« يا صديقي الى معجب بك وباخلاصك لفنك وباستاذيتك فيه . وسيكون لك اسم ضخم ولا شك ، وما كان يمكن الا أن أعرفها . ولقد عرفتني هى أيضا ، وقضينا هنا معا ساعة من أمتع ساعات الحياة بفضل هذا الغربال الواسع الخروق الذى ركبته الله لك بين كتفيك بدلا من الرأس ، وبعبارة موجزة تأمرنا عليك انتقاما لأنفسنا من نسيانك لنا ، وجمعك بيننا ، وان كنت قد أحسنت الينا بذلك . وعليها هى أن تحدثك بالباقي ان كن هناك باق ،

وعلى القارىء أيضا أن يتصور الباقي ، وما الباقي سوى طوفان من الشتائم واللعنات ، ووابل من الوسائد وقانى ما هو أصلب وأوجع منها وقوف هذه الفتاة الملائكية بيننا تتوسل اليه تارة وتطلق ضحكاتها القضيية تارة أخرى ، وأنا أتوارى وراء الكرسى حتى صرت الى صورتها نرفعتها كما رفع جنود معاوية المصحف فأمسك ، ولكن كانت فى جوفه بقية غيظ مكظوم فيكى كالطفل ، وقامت اليه تلالفه . وأخرجت منديلا مسحت له دموعه به . فلم أنفس عليه ذلك لأنه

استحققه . ولكنى مع ذلك تمنيت لو أنه كان قد جرح لى يدا لتضمدها
هى لى .

ولا تزال الصورة عندى تذكرنى بذلك العهد البعيد ، والشباب
الذى انقضى أوانه ، وبالفتاة التى أرجو أن تكون سعيدة ، وإن كانت
الحياة لا ترحم ، فقد كان ذلك اليوم هو كل عهدى بها .

قديم هوى أم جديد ؟

« لا أدري . . ربما كان الحب لا يموت جوعا »

وكان الليل ساجيا ، والقمر ساهما ، والهواء راكدا ، والشجر لا تهتز أوراقه فكانه صورة مرسومة ، وكنا ندخن فى سكون ، ولم يكن كلامنا المتقطع - قبل أن تعد الطبيعة بركودها - بسبيل من الحب فالتفت إليه بسرعة وقلت قبل أن أفكر :

« ماذا تعنى ؟ »

فكانه لم يسمع . ورفع يده بالسيجارة الى فمه على مهل ثم أرسله خيطا من الدخان لا يكاد يتلوى ، فحولت وجهى عنه وقد خيل الى أنه يتحدث نفسه . وأحسست كأن من واجبى إن أنأى عنه الى حيث لا أسمع اذا عاد الى الكلام ، ولكنه لم يلبث أن قطع شكى بقوله

« نعم . قد يموت كمدا أو يختنق أو يذوى . ولكنه لا يموت جوعا وعجيب هذا بعد عشر سنين . عشر ، أو أكثر . قبل خمس عشرة سنة بلا غداء . لا نظرة يتعلل بها القلب . ولا كلمة ولو من وراء حجاب بتصورها ضمير القزاد . لا شيء على الإطلاق . وتهضى الاعوام بطيئة أو سريعة . فارغة أو حافلة عامرة . ويقطع المرء فيافيها أو ينعم برياضها الحالية . . . وفى كل هذه الايام الطويلة - هذا العمر للديد - خمسة عشر عاما . تصور . . . لا تضطرب النفس ولا يتلفت القلب ولا تختلج فى الصدر ذكرى - أى شيء هناك يذكر ؟ ثم أكون فى الترام وفى يدى صحيفة أقرأها . ويقف الترام فى إحدى المحطات فأرفع عيني عن الصحيفة وأديرها فيما حولى واذا بها واقفة تنظر الى كما أنظر اليها وقد جمد اللحظان . . واستغرقنا هذا اللقاء المبالغت . ويستأنف الترام المسير . . وكلانا منهول حتى لنسينا أن نبتسم وأن نسلم . . . »

وأطبق شفتيه وترك السيجارة تنفلت من بين أصابعه وتهوى الى الارض على الحشائش المبللة ثم عاد يقوم ...

« لو رأي أحد وأنا في تلك الساعة لما جرى له في وهم أن في جوفي بركانا مضطربا يقذف بالحمم ، ويشيلني ويحطني ، وتطوى بي نيرانه السائلة - بدلا من السهول والجبال - خمسة عشر عاما . وتمحو - بدلا من المدن العامرة المانوسة ... عمرا من الحياة الرخية اللبب . جيلا من سكون النفس وراحة القلب . ولو فتح قلبي في تلك اللحظة لعيني انسان لهاله ذلك الاقيانوس الثائر » في أصبعين من حيزوم ، كما يقول شاعرك الذي تحبه واني الآن لا هدا . ولكن تبج هذا البحر لا يزال مربدا . وما أنفك موجه مقبلا مرتدا . يا لله . لكان جبلا تتقلع في صدري - هنا ، أحسها تتقلع فتقتلع معها أحشائي من جذورها . زلزال . يرج كياني يقوض بنياني . تتشقق له نفسى . يهوى شطر من حياتي . يختفى . وينتأ شطر آخر . لا . ليس شطرا ما بيننا ، هو لسان فقط ، لسان دقيق ، لم أعد أعرف صور حياتي . نسيت معالمها وجوهها . تغير كل شيء . نظرة واحدة . نظرة عجي . قصيرة . نصقها تفرس . والنصف مضت به الدهشة . نظرة كافية . لاحداث هذا كله . كافية أن تمحو وتثبت ... »

وأطرق وأنا ... لا أدري كيف كنت . فقد أذهلتني ثورته وصدمتني المفاجأة . ولم أكن أتوقع أن يكون وراء سكوته الظاهر وجوده البادى هذا الجحيم كله . فتركته يقذف الكلمات من فيه بجهد كأنما يخرجها بالة ماصة وعز على أن أراه يستقطر نفسه ويعتصرها ولكنى لم ار لى حيلة . وخير له وأجدى أن يقول بشجوه فان النفث راحة

والتفت الى فجأة وقال :

« هل تستطيع أن تقول لى ما هذا ؟ أهو الحب القديم ردت اليه الحياة ونشر بعد أن طوته السنون ، أم هو حب جديد مستقل عن الاول؟ أريد أن أسأل هل هذه النظرة هاجت حبا كامنا أو أنا أحب المرأة التى رأيته اليوم كما كان يمكن أن أحب أية امرأة اخرى كانت

عسى أن تقع من قلبي ؟؟ اعلم ان التمييز دقيق . ولكنى هل لو كانت هذه المرأة ليست هى التى أحببتها قبل خمسة عشر عاما أكنت أحبها اليوم حين رأيتهما ؟ أجبنى اذا استطعت »

فلم أستطع . ولم أر أن ادعه يمزق قلبه وحده فقلت :

« ان النتيجة واحدة يا صاحبي . وسيان فيما أرى أن يكون حبك لها جديدا أو أن يكون موصولا بقديم هواك . أنت تحبها والسلام . وخير لك أن تسأل نفسك ماذا تنوى أن تصنع ؟ »

فاطلقها ضحكة عصبية مجنونة وقال :

« ماذا أنوى أن أصنع . ؟ كما صنعت !! ائد حبها مرة أخرى . ادفنه حيا . اجعل قلبي قبرا له . ماذا أصنع غير ذلك . ؟ »

ولم يكن من حقي أن أجادله فسكت . ولكنه ما لبث أن قال :

« كان أهلها جيرانى وكانت هى بنت سبع سنين أو ثمان . وأنا فى الثالثة والعشرين ، وكنت أحنو عليها . . . نعم . . . لا تعجب . لم أكن أدعها كما أدع اباطال سواها . كلا . افهم شعورى على وجه الدقة كان احساسى حنوا عليها . عطفيا اذا شئت . . بل أقوى من العطف . كنت أنطوى لها على مثل حب الأب لبنته الوحيدة . وكان قلبي يهش اذ يراها . . . تتفتح نفسى اذ تقبل على . هل تستطيع أن تتصور احساس الزهرة حين يضربها سارى الطل ؟ كان هذا شعورى حين تعلق الى وذرعاها ممدوتان لتطوقنى بهما . وكان أحب شئ الى أن أجلسها أمامى وأرجل لها شعرها وأضفره وأفرقه على جبينها ثم اشمه وأقبله وأربت لها خدها الصغير . أنا الآن أب ولى من الابناء غير واحد ولكن طفولتها هى الطفولة المحببة الى نفسى . لكانها هى بنتى دون ابنائى . كلا . لم أنعم بطفولة ابنائى . لقد أفسدت على ذلك وحرمتني ، ام ترى حبنى لها فيما بعد هو الذى فعل ذلك ؟ لا أدرى . ولكنى أدرى انى كنت أحس وهى معى كان عظامى كانت جافة فسقتها وروتها . وكان عودى صار نضيرا رايبا رفاقا . وقد تضحك اذا قلت لك انى كنت أشعر وهى معى تكلمنى كانى أنا جميل . أى والله ، لا كذب ولا مبالغة . كانت تشيع هذه الطفلة ذلك

فى نفسى ذلك الاحساس بانى جميل وكنت بعد ان تذهب عنى تفر
حيويتى ويخيل الى انى تضاهلت ودنا بعض جسمى من بعضه . وأن
خلقتى شوهمت أو مسخت . وقد ارفع يدى الى وجهى وأمرها عليه
لامس دلائل الدمعة التى أصابتنى لفراقها فكنت أحزن اليها . اشتاقها
أصبو الى وجهها الصبيح وعينيها البريقتين وحديثها الساذج . . . أصبو
بقلبي وبقلبي - بأنفى . بفضى . بأذنى . بكل جارحة . . .

» ثم افترقت بنا السبل فتناهينا وبقي الود . وبعد سنوات لاأذكر
عدها اشتقت أن أرى طفلى . فاعتنمت فرصة ومضيت اليها وتخيرت
فى الطريق «لعبة» أعرف أن لها كلفا بها . فلما صرت الى الباب الفيتة
مواربا على العهد به . فدقته فلم يرد أحد . فهبط قلبى وقطعت الفناء
الى السلم ثم وقفت وصفقت مرة ثانية ، وبعد دهر طويل سمعت صوت
«قباق» فعدت الى التصفيق فهفا الى صوت ناعم « مين ؟ » قلت «فلان»
وتنحيت عن السلم مرتدا الى الفناء . وعاد القبقاب يدب ولكن على
السلم . فلما صار لابس عند أوله نادانى ذلك الصوت الملائكى
« تفضل » فأقبلت وأنا أحلم بطفلى وأتخيلها تجرى الى مرة أخرى
وتطوقنى وتعانقنى وتعضنى ، ثم تقبلنى حيث عضت ، وتتناول
يدى لتنظر ماذا فيها ، وتضرب كفها فى جيوبى واحدا بعد واحد
باحثة عما تعلم انى مخبئه لها . أقبلت على صاحبة الصوت الذى
يدعونى - وهذه الصور تتعاقب على ذهنى ، وعلى فمى ابتسامة
الرضى والجدل بما سوف ألقى . . . ولكن الابتسامة غاضت لما وقعت
عيني على الواقعة أمامى . . . من « كانت » طفلى قبل سنوات . .
ومن صارت فتاة حسناء تصعقنى بجمالها . . .

« حيثنى ، وأهلت بى ، وتلقتنى بكلتا يديها . ولكنى كنت كالذى
ضرب على أم رأسه فدارت به الأرض . ومددت لها كفى فى ذهول .
فهوت «اللعبة» على البلاط فتخطمت . فحنت عليها وحلت رثاقها
ورفعت عنها الورق الذى كانت ملففة فيه ، فلما تبينتها ندت عن
شفقتها آهة لا تزال ترن فى أذنى ، ونهضت بقاياها فى يديها ،
وألقت الى نظرة شكر وعتب .
وقالت « ألا تصعد ؟ » . . .

قلت « كلا يافتاتى الصغيرة • لقد اشتقت أن أراك وقد فعلت ،

فأخذت تحتج وتلع وتتوعدنى أن تغضب ، وتقسم ، وتفهمنى أن أهلها سيسوءهم كما يسوءها أن أذهب قبل أن يعودوا ويرونى ولكنى أبيت وأصررت وودعتها وهى تعجب ماذا غيرنى ؟••

« ثم لم أرها الى اليوم ،

وأشعل سيجارة وعاد يقول :

« عرفت انى أحببتها • لم يطل شكى فى ذلك • ذهبت الطفلة وصارت ذكرى ، وانطوت صفحاتها • أسفت لذلك • أسفت ؟؟ بل بكيت • أنا الذى لا تعرف عينه البكاء •• ولو سألتنى لقلت انى كنت أؤثر أن تخلد طفولتها ، ولم يكن يخطر لى قط أنها ستجاوز هذه الحداثة ، فلما رأيته فتاة ريا الحسن •• لم أصل هذه بتلك • وأحسست كأن طفلى مات ، وأن هذه الواقعة أمامى غيرها ، وقد تعجب كيف يجب مثلى من نظرة واحدة لا تعقبها أخرى، نظرة واحدة كشكة السيف تبلغ حبة القلب وتقطع نياطه وينتهى الامر فى لحظة ! الشكة تमित ، والضربات المتكررة تमित • كله موت ، فلا عبرة بالسرعة ولا بالبطء وليس من يقتل بشكة سيف واحدة بأقل موتاً أو أقرب الى الحياة ممن يلقى نجه بعد أن تنوشه السيوف من كل جانب وتشبعه جزاً وجزاً •

« وكنت متزوجاً فيجب أن أخنق هذا الحب • ولكن كيف •؟ هذه هى المسألة •• ليست عواطف المرء كتباً مرصوفة على رفوفها فترفع منها ما تشاء وتبقى ما تشاء ، بل هى تسيل وتجري مع دمائنا وتشيع فى كيان المرء وتستولى عليه ، الحب على الأقل يفعل هذا •

« واتفق انى كنت مساء يوم جالساً فى «صولت» وكان الوقت شتاء فاتخذت من مقعدى فى ركن منزل بعيد من التيارات ، وطالت جلستى وحدى ، فكنت لا أنفك أدير عيني فى المكان •• فلاحظت أن الفتاة الجالسة الى « الكيس » فيها مشابهة من فتاتى - قدها ولونها ومعارف وجهها وشعرها - فدار فى نفسى خاطر تعلقت به كالغريق ، وقلت كما قال النواسى «وداونى بالثى كانت هى الداء» فان لم تكن هى

بعينها فليكن الأمر كما يقول مهيار « أ إذا استوحشت أنست نفسى
بان أرى نظائر تصيبينى اليها واشباها »

« ومن تلك الليلة صارت جلستى فى «صولت» ، فى موعد لا يختلف
ومكان لا يتغير ، بين السابعة والتاسعة مساء حتى فى رمضان، وكنت
أكتفى بالنظر أخالسه ، فلم أحاول قط أن أكلمها أو أتودد اليها .
لأنه لم يكن فى حسابى أكثر من أن آتخذ من نظرها عوناً على السلوان
.. جسراً أعبره الى الناحية الأخرى .. زورقاً أقطع به اللجة التى
خشيت أن تغمرنى .. وقد كان .. بعد ستة شهور لم أختلف فيها
ليلة عن «صولت» استطعت أن أقف على قدمى ، وأن أهزم نفسى وأن
أقصرها على التزام طريق الواجب .. ولا أنكر انى علقت فتاة «الكيس»
وانى صرت أحس لها نوطه فى قلبى .. ولكنى استهنت بهذا ولم
أحفظه . وما قيمة الجدول الصغير الى جانب المحيط الأعظم؟ وبعد خمسة
عشر عاماً - اليوم فقط - ولكنك تعرف هذا » وأمسك ...

وبعد برهة نهض وهو يقول :

« كنت يومئذ فتياً . وكانت فى قوة . وأنا الآن كهل أحس انى
محطم وأسىء الظن بقوتى . هل تظن انى أقدر ؟ على كل حال . لا بد
مما ليس منه بد . قم بنا نمشى قليلاً .. »

فلما سرنا خطوات قال « ليت انا نستطيع أن نفنى هذه العاطفة
بالمشى كما نفنى الغضب مثلاً . ننفذها عنا عرقاً تصيبه .. اذن
لمشيت الى القطب الشمالى »

وضحك ...

الجازبند

تعلم من الرقص بضع خطوات ، وكانت نصيحة معلمته له . . أن
دع نفسك للموسيقى وأخط على وقعها ، واذكر انك أنت الفارس -
أى صاحب الرأى والتصرف - وان التى تخاصرها تماشيك وتتبعك وتمضى
معك فى حيثما تدور بها ، وثق بنفسك على كل حال ، ولا تجعل بالك
الى النظارة ، وأيقن أنه ما من جالس الا وهو يشتهى أن يكون مكانك
ويتمنى أن تكون رجله هى التى تدب ، وذراعه هى التى تلتف
بصاحبك

ولكن الثقة بالنفس يندر أن تكتسب ، وقد كان ف . هذا حساسا
دقيق الشعور بنفسه ، ولم تكن تخفى عليه عيوبه ، وقد نشأ - كما
نشأ جيله - فى عزلة عن النساء الا من هن من ذوى قرابته ، ولا خير
فى هؤلاء ، فاستقر فى نفسه ان المرأة لا تراقص الرجل الا اذا وقع من
نفسها وصبت اليه ، فالرقص عنده مظهر حب ، ولم يكن يدرك -
وانى له ذلك ؟ - انه ملهاة ورياضة للنفس والجسم ، وان أكثر من
يرقصون لا تكاد جسومهم تفترق وتتباعد حتى يذهل كل عن صاحبه
أو صاحبته ، وينساها وتنساه . وقد قالت له معلمته مرة . .
« لا تلازم امرأة واحدة فان هذا خليك أن ينأى بغيرها عنك ، واذا
وسعتك أن تراقص فى كل دور امرأة جديدة ، كان ذلك أفضل وأجدى
عليك وأشد امتاعا لك ، ان كل امرأة ليست كسكل امرأة ، وأخلق
بالتنقل أن يفيدك المرائنة والمرونة ، وأن يجعلك أقدر على الاجابة وعلى
استثارتها فى نفس زميلتك ، وليس أكفل من هذا على كل حال ، بأن
يضمن لك الاقبال عليك والرغبة فيك ، أعنى فى مراقصتك . انى
امرأة فصدقتى واصدر عن مشورتى ، النساء لا يقبلن على من يجتزى
بواحدة منهن ، نعم انهن يطالبن الرجل بالوفاء ، ولكنهن يفتنهن
الحول القلب . ولست امرأة اذا كنت لا أعرف ذلك ،

ولكنه لم يالف الا معلمته هذه ، ولم يكن يرتاح أو يلين الا حين يراقصها . ودارت الايام ، وفى ليلة من ليالى الشتاء الحميدة كانت ذراعها ملتفة بذراعه وهما ينزلان الى « البديوم » فى . . . واجتازا ممرا طويلا ضيقا يفضى الى قاعة الرقص ، فصافحت أسماعهما نغمات الجازباند . . . بطيئة ، شاكية ، نائجة ، وبلغا الباب فحياهما اثنان على جانبيه فى ثياب السهرة ، وفتح كل منهما مصراعا ، فوقفا هنيهة يديران اللحظ فى المكان ، وكان غاصسا بالراقصين والراقصات ، فهمست فى أذنه . . « فلندر بينهم » . ولكنه آثر الجلوس ، وأسلم معطفه وطربوشه لفتاة هناك ، وسار بمعلمته وراء خادم الى مقعدين . ونظر إليها فهزت رأسها فقال . . « ويسكى بالصودا »

وعاد الخادم وهو يرقص بما يحمل على صوت الموسيقى ويتخلل جموع المتخاصرين بمهارة ولباقة ، وقد رفع ذراعه بالويسكى فوق الرؤوس . وشربا كأسيهما دفعة واحدة ، وصفق فأوما الخادم من آخر القاعة ، وجاءهما بكاسين آخريين قالت بعدهما المعلمة بلهجة المستعطف ، وقد حن جسمها للرقص . . « دورة واحدة » ورأى فى عينيها بريقا لم يعهده ، وكان الويسكى قد صعدت نوازيه الى رأسه فنهض وطوقها بذراعه وعصرها الى صدره ، ومضى بها ينساب ، ونعالمها تزحف على الرخام ، وركبهما تحتك فى رفق ، ومن ورائهما ، وقدامهما وعن يمينهما ، وشمالهما النساء مع الرجال فى ثياب شتى وألوان تتألف منها مع كل خطوة صور جديدة وكأنما جن من أفراد الفرقة العازفة، ذلك الناقر على طبلته، فقد راح يطوح بعضويه فى الهواء فيتلقفهما وينقر بهما ويهز رأسه هزا عنيفا ، والناس من فرط الزحام يهتزون فى مواضعهم ولا يكادون يتنقلون والجسوم تتمايل والانفاس تلامس الحدود والعيون تحلق فى العيون ، الشفاه تختليج وتضطرب . ثم كفت الموسيقى فجأة وتهاتت الاذرع وتناهت الاجسام قبل أن تستقر الاقدام وتثبت على الارض ، وأخذ كل سمته الى مقعده . . ولكن الاجسام بعد أن سكنت الآلات الصاخبة، فقدت لينها وسحر تثنيها، وعلت الاصوات بالهذر والضحك ، وقرعت الكؤوس ، وعبت الافواه فى الويسكى ، ودارت الرؤوس ، وانطلقت فى القاعة صرخة فتلفتت كل عين الى مصدرها ، فاذا فتاة رشيقة ، الا أنها باهتة اللون ممتعة الوجه ،

واقفة تنظر الى امرأة ضخمة مترهلة جالسة مع رجلين ، والفتاة تصيح بها « سامزق جلدك قبل ثيابك بأظافرى هذه »

والمرأة السمينة مرتجة الانحاء من الضحك ، سخرا واستخفافا ، ورثب أحد الرجلين الى قدميه وقذف الفتاة بكأسه وهى ملاهى بالويسكى ، ولكن يده كانت ترتعش ، وذراعه غير مستدة فتهدشت الكأس على المرأة وهوى القاذف الارض كأنما هو الذى أصيب بها ، فحمله اثنان من الخدم وخرجوا به ، وأوما بعضهم فانطلقت الفرقة تصرخ وتعمل ، ونهض الجلوس كالمجانين ، وامتدت الاذرع ، والتفت بالظهور والحضور وصارت الاكف تصعد وتهبط على الجسوم ولا تستقر فى موضع ، وهمست المعلمة فى اذن صاحبها ..

« ادنى اليك أيها الطفل »

فحنا عليها بشفتيه يسألها .. « تحبيننى ؟ »

ولم يسمع جوابها فى ضوضاء الموسيقى الصارخة ، ولغط المتراقصين وأصوات الاقدام الزاحفة ، وثقل سمعه وزاغ بصره ، وخيل اليه أن الراقصين لم يعودا كل اثنين معا بل كل أربعة أو ستة ، وصارت المرايا تخطف عليها أضواء غريبة تمسخ الوجوه البادية فى صقالها ، والناس يخطون فى زوايا حادة ، ويوشك أن يقع بعضهم فوق بعض وصاحت المعلمة بالخدام وهى فى زحمة الرقص « شمبانيا » وقالت لصاحبها وهى تبغى فمه .. « فلنشرب قليلا قبل أن نخرج »

وتهاديا الى مقعديهما ، وكفت الموسيقى ، فاندفعت الاكف تصفق وسمع ف . نفسه يصيح « ساجن » .

وكانت الساعة الثانية لما وقفا بالباب ينتظران « التاكسى » والنسيم المqrور يصفح خلودهما وينعشهما ويردهما الى الحياة ، وركبا ، فقال السائق .

« الى أين ؟ »

وأحس ف . أنه أفاق فصاح بالسائق ...
« الى جهنم »

وأيدته معلمته « نعم الى جهنم »
فحك السائق رأسه ثم قال « أظنكما تعنيان ... »

وانطلق يخطف من غير أن ينتظر جوابهما
فقال ف. « أين هذا المكان ؟ ما هو ؟ »

قالت « هو مكان تسيل فيه السحبانياء كالماء ، قبلنى أيها الطفل »
ثم قالت « أتمنى أن أمزق لك قلبك »

فهتف بها .. « افعل ! إنه لك »

قالت .. « وإن أفرى جلدك »

فدفع إليها يديه وأمال خده

فقالت . « وإن أقطعك بسكين »

فابتسم

« وأن أجلدك بالسوط »

ولم تكذب ، فأهوت بأظافرها على ظهر كفه ، ورأت الدم ، فبكت ..
« أيها الطفل المسكين . مسكين » وضمدت له جراحه الصغير بمنديلها
وأقبلت عليه بفمها

ووقفت السيارة ، فنزل ف. فاشتبك جيب الجاكته بالباب فتمزق -
انهار نحو شبر ، ورأى الفتق بعد أن صار على الافريز فتناول طرف
الجاكته بيد ، وشد القطعة بيد أخرى فنزعها وألقاها على الأرض ،
وسار الى باب ضخيم لا يضيئه نور ، فوضعت المعلمة أصبعها على زر
وضغطت مرات ، فانفتح الباب على مدخل مظلم فسحبت صاحبها ،
وردت الباب وراءه ، ومضت فى شبه نفق الى باب آخر نقرت عليه
فانفتحت فيه كوة مستديرة ثم فتح المصراعان فهتمت اليهما أصوات
الموسيقى وجلبة الضحك من وراء الستار، وشربا قليلا ثم نحيا الستار
ودخلا قاعة كالحيمة - كل ألوانها أرجوانية ، سقفا وجدرانها -
وستائرهما ، وأرضها رخام مصقول تتعاقب عليه أضواء شتى ...
برتقالية وبنفسجية وخضراء ، وكانت الموسيقى مجنونة معولة ، كان
لها أظافر تمزق الصدر ، وشاكية صارخة كأنها صاعدة من قرارة
الجحيم ، وعلى الوجوه فتور العريضة .

وارتمت المعلمة بين ذراعيه فخاض بها العباب واندفع بها الى لجته الطاغية . واستجاب لها وهي تتثنى له ، وغمره سحر الاضواء ، واطار صوابه عويل الالخان ، ثم تقدمت امرأة ففرقت الموج وخلصت الى وسط القاعة فانقطعت الاضواء ، وخرست الموسيقى ، ولف المكان في شملة من الظلام وتراجعت الاقدام حتى لصقت الظهور بالستائر والجدران وارتمى ضوء أخضر على الرخام حيث وقفت المرأة ملفوفة في مثل العباءة السوداء ، وعاد المزمار ينوح ، وسمعت نقرة على الطلبة ، وتغير الضوء فصار أبيض متكسرا على سواد العباءة - ثم توالى النقر كتهزم الرعد ، واذا بالعباءة عند قدميها ، والفتاة عارية تتثنى وتتلوى ... فتوجع ف . وندت عن فمه آهه مكلوم ، وغطى وجهه بيديه ، فأرسلتها المعلمة ضحكة مجلجلة ووقفت أمامه تحجب عن عينيه هذا المنظر .

★ ★ ★

بعد بضعة أيام لقي معلمته فسألته ..

« هل أصبت الكفاية ؟ »

قال : « فوق الكفاية »

قالت : « والآن ؟ »

فقال : « لا فائدة . ان خطاي لا تتسق الا معك ، وفي جوك ، وفي

أرج أنفاسك . »

قالت : « أنذرك من الآن اني سأملك وأطرحك وألقيك عنى

كالعظمة . »

قال : « لن تفعل »

ولكنها فعلت حين رأت فتوره عنها ، وخافت أن يسبقها الى الجفوة

والملال .

الصورة الناقصة

لم أكن أعرفه أو أعرف ماذا هو . ولكنى كنت أراه كل يوم قبيل الغروب فى «مقهى» على مفترق طريقين . وكان لا يجلس الا على أحد المقاعد المصفوفة على الافريز ، فإذا لم يجد كرسيًا خاليا ذهب يتمشى على الافريز أو وقف عند آخره حتى ينهض جالس ويخلو كرسي . وأكثر ما كنت أراه فى عزلة تامة ، فهو بين الناس وليس معهم . وهو حاضر كغائب ، ومشاهد للناس غير مشاهد ، وناظر يرنو بعيني ناظم . وربما نهض بغتة وانطلق يعدو ثم لا يلبث أن يعود مهتود الكيان مقوس الظهر مثنى الرأس كأنما زيد عمره أعواما فى لحظة .

وألقت أن أراه ، واعتدت على الايام أن أحياه بيدي دو أن اجترئ عليه بلسانى . ثم اتفق ان جاءت ليلة ١٤ يوليو . فغصت الطرق بالخلق ، وازدحم المقهى ، ولم يجسد صاحبنا مكانا للجلوس أو الوقوف على الافريز ، فدخل ، وأبصرته . ولم يكن داخل المقهى بأخلى من خارجها . فقلت هذه فرصتى ، ووقفت وأشرت اليه فأقبل على مهموما فقلت أطمئنه .

« تفضل . انه مكان ككل مكان ، ولا بأس عليك منى ، فان فى وسعك أن تهملنى وتنسانى »

فقال « أستغفر الله وأشكرك »

وجعلت أفكر كيف أطلق لسانه وأحل عقده . فلم يهدنى التفكير الى شيء . فجلسنا صامتين برهة ثم التفت الى وقال :

« لا خير الليلة .. »

وأمسك ، فسأله « فى .. »

قال « فى ٠٠ فى هذا المكان ٠٠ لا الليلة ولا غدا ولا بعد غد
٠٠ قم معى ٠٠ أعنى اذا سمحت ٠ اذا لم يكن هناك ما يستوجب
بقائك ٠ ان مسكنى قريب من هنا ٠ على بعد دقائق أشكرك
تفضل »

وبلغنا البيت أو الجناح الذى يسكنه - بعد دقائق - وهو ثلاث
غرف يتوسطها دهليز ضيق ٠ على أحد جدرانه صورة زيتية كبيرة
ناطقة ولكنها ناقصة ٠ ولم نكد ندخل حتى تناول منفضة من
الريش الناعم الوثير وراح يطير التراب عن اطرافها بعناية ورفق
وحذر ثم قال لى
« أترى هذه الصورة ؟ انها كل السر ٠٠ جميلة ٠٠ فكيف لو
انها كانت تامة ٠٠ لو كان قدر لها أن تتم ؟ »

فسألته « صورة من هى ٠٠ ؟ اذا سمحت بهذا السؤال »
قال « لا أدرى ٠٠ »

فمجبت وسألته « كيف اذن وقعت لك ؟ » فقال وهو يعضى
أمامى الى حجرة الجلوس
« لم تقع لى ولكنى رسمتها ٠ »
- « أمصور أنت ؟ »

قال « نعم لسوء الحظ ٠٠ أتدخن ؟ هذا صينلوق
السجائر .. لا .. أنا لا أدخن الا حين أرق .. سأرى هل أستطيع
أن أصنع لك قهوة .. كلا .. ؟ لا تعب .. الخادمه تتركنى عند
المغرب ٠٠ وتعلى كل ما عسى أن أحتاج اليه ٠٠ »

ولج بى الشوق الى قصة هذه الصورة فقاطعته وعدت اليها
« ولكن الصورة ؟ لماذا لم تتمها وأنت راسمها ؟ »
قال « سأصنع القهوة أولا » ونهض ٠٠

★ ★ ★

« نعم أنا مصور ٠ ولكنى هاو لا محترف ٠ أعنى انى أصور
ما يروق لى ولا أبيع ما أصنع ٠ ولو شئت أن أكون محترفا ٠٠
ولكن دع هذا »

وتناول من فنجان القهوة رشفة ثم قال :

« جاءتنى صاحبة هذه الصورة صباح يوم ولم يكن عندى يومئذ خادم ، ورجت منى أن أصورها • فاعتذرت بأنى ماو وأن التصوير عندى سلوى وليس بمهنة • فألحت وأخرجت لى ثلاثين جنيتها رددتها اليها وكررت أسفى • فلم يثنها ذلك وقالت انها لن تبرح البيت حتى ارسمها • فحرت • وهى كما ترى - أو لعل الاصح أن أقول انها • كانت • (وعرض هذا الفعل) كما ترى من صورتها - جميلة .. ماذا أقول ..؟ جميلة ؟ جميلة ؟ آه • لو كنت شاعرا .. ولكننى لم أكنه ولن أكونه .. فما أعرف لسانى أنصف عواطفى قتل ، أو عبارتى نفست عنى • لست أحس بعد الكلام أنى ارتحت • كما أشعر بالسكينة بعد أن أفرغ من صورة منظر أو وجه • ولا أدرى لماذا كان الامر كذلك • والغريب انى حين يختلج بنفسى خاطر أو معنى أحس كأن لسانى موثق وكان أصابعى مخلوعة فأحتاج الى تحريكها وفركها .. ما علينا .. لم يسعنى الا أن أجيئها الى ما سألت • فانطلقت تتوثب وتطفز كالطفلة وشاع السرور فى كيانها ، وغمر الجذل أوصالها ، ومضت تقطع الغرفة راقصة مفردة وأنا أدور بعينى معها وأتأمل انسيابها كالماء الرقراق وأكاد أكلها بلحظى .. »

وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال :

« ناولنى سيجارة خانى أشعر بالحاجة اليها • ليس كالدخان فى بعض الاحيان • يضم الشتات ويجمع المتفرق فيحصر الذهن أو يعين على ذلك • أين وقفت بك • آه • كنت أقول • أظننى لم أبلغ هذا

« لا بأس • كانت الساعة العاشرة حين شرعت أصورها بالباستيل • - تعرف الباستيل - أصابع كالطباشير ملونة • أوقفتها وأخذت أصلح لها ثوبها وأحاذر أن المس جسمها • لا تادبا منى • كلا • بل مخافة أن توقد اللمة ناراً لا أقوى على اخمادها • ولما هممت بالرسم وقعدت على الكرسي أمام اللوح بدا لى أن تكون الصورة زيتية • لا أدرى لماذا • انه هاجس • وكأننى كنت أتنبأ •

كل ما خطر لي في تلك الساعة أن الزيت أثبت وأطول عمرا ،
ولبثت نحو ربع ساعة أحلق فيها حتى غامت عيني . ولم أعود
أراها ، وصارت فيما أبصر أربعا أو خمسا ، وامتلات الغرفة بها
تعددت أشخاصها المتداخلة . فالوجه وجوه يشف بعضها عن
بعض . وكذلك قديما في ثوبها البنفسجي الهفاهف . وخفت على
نفسى فرددتها الى اليقظة بجهد ، وهززت رأسي كمن ينفض الماء
عنه . وكانت تبتسم . وأخذت عيني هذه الابتسامة في محارها
وعلى شفيتها الرقيقتين فصحت بها أن تحافظ عليها وأقبلت على
اللوح أعاليج أن أنقلها اليه وأثبتتها فوقه . . . ومرت ساعة . .
ساعتان . . وأنا أعمل كالمجنون . . وهي واقفة كالتمثال -
لا تتحرك ، ولا تتأفف ، ولا تنأيلها ابتسامة ، حتى صارت الصورة
كما ترى . ثم تنبهت فأدركني العطف عليها وأشفقت أن يؤذيها
طول هذه الوقفة التي لا يصبر عليها جندي مدرب . ودعوتها الى
الجلوس فهوت الى كرسي كان ليس في ثوبها بدن . وأقبلت عليها
بالماء أسقيها منه قطرة فقطرة حتى تنهدت . .

« ليس هذا كل شيء . دعوتها أن تتغدى معي فضحكت وقالت .

« لا أرى في بيتك أحدا فماذا تريد أن تطعمني ؟ »

قلت « قد أجد قليلا من البيض وشيئا من الجبن واذا شئت
خرجت الى السوق »

فقاطعتني قائلة « اني أنا المسؤولة عن هذا القحط . فجزائي ان
أرضى بقسمتي » ثم ابتسمت وقالت

« أراضى أنت بأن أزيد القحط ببقائي ؟ »

قلت « نعم ، أنسيت المثل العامي . (بصلة الح . . .)
فقاطعتني « انك طيب »

قلت « أعلم ذلك »

قالت « امغوررون نحن أيضا ؟ »

قلت . وقد أعدتني ببشرها « أليس لنا العذر . . ؟ »

فقلت وهي تنهض « ونحسن المجاملة فوق ذلك ؟ » أين المطبخ ؟ ولكن ما سؤالى .. وببتك كالحق ،

وخرجت وأنا فى أثرها وهيات الطعام وناولتنيه فى أطباقه فجلسنا الى المائدة . هى إنا أكلة فى حياتى . أربع بيضات وقطعة جبن رومى ناشف وسردينتان تخلقتا من عشائى البارحة . هذا كل ما أكلنا .

ثم خرجت على أن تعود فى صباح اليوم الثانى .

★ ★ ★

ونفض وحمل الصورة الى الدهليز وعاد يقول « ان بى حاجة الى الهواء الطلق . فهل من سوء الادب أن أدعوك الى الخروج ؟ »

فقلت « كلا » ونهضت وراءه ، فلما صرنا الى حيث الصورة معلقة وقف وقال .

« كانت تتقمنى وبى خارجة ، ووقفت هنا ، ثم أدارت لى وجهها وقالت :

« لم أشكرك . هذا كفران لا أطيقه . فهالك فمى . قبلنى . »
لهذا علقت الصورة هنا

وخرجنا من الباب فسألته ونحن على رأس السلم .
« ولكن لماذا لم تتم الصورة ؟ »

فقال « لكأنى بك لم تفهم . لم تعد قط بعدها . تركت الصورة ولم تعد . وأنا أبحت عنها ولا أجدها . من يدرى ؟ من يدرى ؟
اتظنها حية ؟ »

★ ★ ★

وصرنا صديقين . ولكننا لا نتكلم حين نلتقى . وفى أى شىء
وقد أفضى الى بقصة حياته ؟

اليدس

وضع مضيقي يده على كتفى وقال :

« شارد الفكر مرة أخرى ؟ حدثنا أين كنت ؟ »

قلت ولم التفت إليه « لم أبعد - لقد كنت فى مدينه الفكر • الا تعرفها ؟ »

فقال وهو يجلس امامى « اظن • ولكن حدثنى عنها • »
فهمزت رأسى وقلت •

« ان كنت تعرفها فعن أى شىء أحدثك ؟ على أنى لا أكتمك أن
لى شغفا بالتطويق فى طرقها الواسعة الساكنة ، وهى ، كما تعلم ،
ذات أحياء ثلاثة - الماضى والحاضر والمستقبل - ومالا يحسب
الحاسب من الضواحي وأنا أعرف حى الماضى ٠٠٠ أعرفه جيدا وان
كنت أحيانا أضل فيه فانه رحيب ثم انه ينمو بسرعة • ولكنى
الآن كنت أجوب ٠٠٠ »

والتفت فاذا صغرى بناته الى يمينى وأصابعها على فمها وفى
عينها ابتسامه خبيثة ، فمضيت فى كلامى وأنا أراعيها بمؤخر
عينى •

« ٠٠٠ كنت أجوب حى الحاضر مفتونا بجمال عنقك يا فتاتى •
الا تعرفين أنى أحب الرقاب ؟ »

فضحك أبوها وقال : « ان من يسمعك يكون معذورا اذا اعتقد
أنك تجمع الرقاب كما يجمع طوابع البريد هواتها »

فقلت وأنا أحلق فى عنق ابنته « انها الحقيقة • ان للاعناق
الجميلة عندى متحفا قائما فى شارع السكاكينى • وسأفرد لعنقك
حجرة خاصة • »

فأهوت على خدى فعضته اللعينة وأنا أحسبها تقبلنى . ثم جذبتنى
من ذراعى وقالت : « قم من هنا . ان اخواتى ينتظرنك - جره معى
يا بابا . »

ففعلا . فليس أحق باللعن من الفتاة سوى أبيها . ولما صار بى
الى حيث الاسرة مجتمعة والقيأ بى بين « غيلانها » قال الابلى « لاشكر
على واجب . »

ولم يكن ثم بد من أن أقص أسطورة . فان عند مضيفى ذخيرة
كافية من المخسرات والوسائد تنطق الاخرس وتبعث الخيال
الرائد . فتوجعت ورفعت طرفى الى السقف وشرعت أستمد من
الذاكرة تارة وأستوحى خيالى طورا وكنت أقول « ووقفت الاميرة
مع الشاب الذى أنقذها . ودنا المؤكب . كان الجو راكدا كال موت ،
باردا كالحجارة . وتنحى الثور والغزلان - هذه الى اليمين وذلك الى
اليسار . وتقوم الرجل وكان مديد القامة عارى الرأس حتى من
الشعر ، وعلى بدنه ثوب أبيض محزوم الى وسطه بخرقة حمراء .
وقدماه كراسه - أعني أنهما حافيتان - ولم يكن فى يده شيء ولكن
أرج البخور كان يسطع فى الجو ، وتناولت الاميرة يد الشاب
واعترضها الرجل فوقف . ومال الثور فوقف الى جانب الشاب
وانثنت الغزلان فأحاطت بالاميرة . وقال الرجل « ما الحب ؟ »

فأجابه الثور « الحب هو الفهم - يرفع القلب ويطرد الخوف
وهو صبور عفيف وعون على البأساء »

قال الرجل « وما الفنى ؟ »

أجابت الغزلان

« لا غنى الا غنى الحب . لا يصدأ ولا يفسد ولا يسرق . ويبقى
إذا ذهب المال . ويحملة المراء معه ويخلف حبه حين يترك الدنيا . »

فسأل « وما الحياة ؟ »

فقال الثور والغزلان معا « الحياة هى الحب . لا نور ولا حياة
بغير الحب ولا شيء سوى الظلمة والملل والفتور . »

فرغ الرجل رأسه وقال « من وكيل هذا الشاب ؟ »

قال الثور « أنا »

فسأل « والفتاة ؟ »

قالت الغزلان « نحن »

فتناول يديهما وقال « كونا اذن زوجين . »

ثم استأنف السير . وعاشا فى التبات والنبات ، وخلفا صبياناً
وبنات مؤدبات ، لا يضربن الضيوف بالمخدرات ولا

ولم أتمها . . .

ولما عاد النظام قالت صغرى اللعينات كأنما تحدث نفسها

« لعلى لا أنسى أن أقول (يلىس) فى الصباح »

فلم أفهم وخفت أن يكون وراء ذلك شر يرتقب فالتفت إليها وقلت
« لا بد لك من قولها ؟ هيه ؟ ألا يحسن أن تكتبها ؟ »

قالت « لا . لا . لا . يجب أن تقولها والا فانها لا تحسب . »

قلت « شئ جميل . ولكنى كنت أظن أن كتابتها . . . »

فقاطعتنى « انك لا تعرف شيئاً . اسمع . . . »

فقلت « لست أصم فابعدى قليلاً . »

ولم تعبأ بى . وأقبلت على . وكنا جميعاً جلوساً على البساط ،
ووقفت على ركبتيهما ووضعت كففيها على كتفى وراحت تقول ، وهى
تعبث بشعري وأذنى .

« فى صباح يوم الوقفة اذا سبقتنى وقلت لى « يلىس » فان على أن
أقدم لك ما تطلب ، واذا سبقتك أنا فيجب عليك أن تعطينى
ما أطلب »

فنظرت الى أبيها وقلت « ألا تعلم ؟ »

قال « ماذا ؟ »

قلت « ان الشرع يحرم أن ينزل المرء ضيفاً على أحد ليلة الوقفة

لقد تذكرت الآن • فيجب أن أبيت في فندق ، ونهضت • فضحك
ورددني الى مكانى فقلت

« هو على الأقل يحرم نهب الضيوف »

قال « ان فرصتك أعظم »

فتنهدت ودعوت الله أن تكون فرصتى كما زعم • ودنت منى
اللعينة وقالت :

« لقد عرفت الآن • فاذا سبقتك غدا فانى أريد علبه ألوان
للرسم »

فقلت « من عينى يا فتاتى الملعونة ، واذا أمكن أن أذكر أنا
وأقولها لك قبل أن تقوليها فأرجو أن تعلمى أن لى سنوات وسنوات
وأنا أشتهى أن يكون عندى • • • »
وسكت حائرا •

فقال الكبرى بعد فترة صمت رهيب • « نعم ؟ ان الانتظار
مخيف »

فقلت « نجمية • ويجب أن تكون من الصنف الجيد »

فقال الفتاة وكأنها تفكر « نجمية ؟ »

قلت « نعم على وزن نملية • تجدونها فى المخازن الكبرى »

قالت « وهى تتلف • ولكن أى شئ هى ؟ »

قلت « هى شئ يجمع فيه ضوء النجوم ووميضها • واذا كان
صاحبها ماهرا فانه يستطيع أن يجمع فيها بعض النجوم أيضا
فأراها بلا معونة منكن فى الظهر الاحمر • »

استيقظت فى الصباح على صوت الخادمة تنجى الستائر ، فلما
رفعت رأسى مستغربا هذا السلوك ، دنت منى وقالت « سييدى
يقول لك أسعد الله صباحك ، ويدس • »

قلت « لعنة الله عليك وعلى سيدك • أبلغه لعناتى الحارة وأنبيئه
انه يجب أن يقولها بلسانه لى • »

ونَهَضَتْ فتسللت حافيا ، آملا أن أباحت أكبر عدد ممكن ،
وكلمة يدس على لساني أحبسها بجهد وتكاد تنطلق وحدها . وكم
فتحت فمي لارسلها وأنا أنعطف يمينا وشمالا أو أفتح بابا مخافة
أن يكون أحد وراءه مختبئا . ومررت بالحمام وكان بابيه مغلقا ،
وسمعت صوت يد تخبط فى الماء فترينت وفى عزمي أن أقولها .
وإذا بواحدة الى يميني تهمس فى أذني « يدس » . ومن فضلك ،
كيس نقود فضى »

قلت وقد هبط قلبي « ولسكن الكيس غال - اختارى شيئا
أرخص . »

قالت « كلا . وهذا جزأوك على ما تحاول ضد صغيرتنا . »

وأشارت الى الحمام . وفى هذه اللحظة سمعت حركة فى الحمام
وصوتا . خافتا ثم نقرأ على الباب ثم « يدس » لقد قلتها قبلك .
وكلت أنسى . »

فقلت « حسن . سأشتري لك علبة الالوان . »

قالت من وراء الباب « ولكن بابا سيشتريها لى . فهات لى أنت
« بنج بونج » . أربع كرات ومضربان والشبكة . ألا تعرف ؟ »

قلت « يا صغيرتي . أليس الاولى أن تطلبى سيارة صغيرة تركيبها
فى الحديقة ؟ ان وجودى هنا فرصة . أليس كذلك ؟ »

قالت « أوه . صحيح . لم يخطر لى هذا . أقول لك .. المرة
الآتية . »

قلت . « المرة الآتية سأكون قد لجأت الى كهف مخبوء فى جبل ، »

وقصدت الى غرفة الطعام فألفيتها فارغة فدخلت وهممت بالجلوس
ولكنني احترت فنظرت تحت المائدة فاذا اللعين الكبير - أعنى رب
الاسرة وصاحب البيت ورأس المؤامرة - قاعد تحتها ينتظر . فقلناها
معا « يدس » فى وقت واحد . ويظهر أن صوتنا كان عاليا جدا فقد
امتلاأت الغرفة بسرعة، ورأيتنى أتلقت فى كل ناحية وأصيح - كغبرى -
« يدس » .

نطقناهما معا فلا سبق لأحدنا • وحسب لى يدس واحد عند زوجته
وكانت قد غلبها الضحك فوضعت يدها على فمها • فلما صحت بها
« يدس » ارتبكت فأقبل عليها أبناؤها يطرونها وإبلا من هذا
« اليدس » وقيدت على خسارتان أخريان فجعله خسائري أربع •
أما صاحبي فقد انهزم على طول الخط •

وقال لى ونحن نشرب القهوة • المكر السيء يحيق بأهله • اعترف
انى دبرت هذا كله • ولكنك يجب أن تعترف أن الاولاد نسوا انى
أبوهم • •

فضحكت وقلت « قم بنا نشتر لهم يدساتهم »

قال « انك مجنون • سيذهبون معنا لينتقوا • الثقة معلومة بنا
يا صاحبي • • »

في الكازينو

« عمن تبحث ؟ »

« سيرى معى أولا اخبرك بعد ذلك »

وكانت الاضواء المنبعثة من داخل « الكازينو » خافتة ضئيلة ، والناس يتمشون على شاطئ البحر - او البلاج - وهم خليط من الرجال والنساء والاطفال ومن كل جنس وسن وفي كل زى ، يتلاغطون بأصوات عالية أو خفيضة ، يتضحكون ويتمسايلون ، ويتفرقون ويتجمعون ، وكل رجل يحس بعينه كل امرأة ، وكل امرأة تراعى كل رجل ، فالاحداق غير ثابتة ، والنظرات فى كل اتجاه ، والرؤوس الى كل ناحية ، والضحكات والحركات بعضها عن جنل ، وأكثرها للتعمية حتى لا يقيه الزميل عن زميله أو اشارته أو ابتسامته .

وقالت الفتاة لما بلغا آخر « البلاج » واستدارا ليرجعا الى أوله .

« أرى الهواء هنا يوافقك - صحتك أحسن »

فقال وهو يتناول ذراعها .

« نعم . صار وزننى خمسة وأربعين كيلو . وزننى الصافى ٠٠٠ أعنى فى الحمام ٠٠٠ ومن غير الجوارب أيضا »

فضحكت وقالت وهى تشير بعينها الى حيث المرقص

« ألا نعبى الى هناك ؟ »

فقال : « واحملك ؟ لكن الزحام شديد والتيار قوى والموج عنيف » فلم تزد على أن ابتسمت فمضى وهو يقول .

« لا تعجبنى . كثيرا ما يخيل الى اننا - أنا وأنت - يمكن أن نكون بهلوانين بارعين . وهل ينقصنا الا سلم وحبل وقليل من التدريب ؟ »

وأنا الضمين بعد ساعات بأن ارفعك بأسنانى ، ولا حاجة أن يعرف
انك أخف من غلالة الورد »

فنظرت اليه بعين يومض فيها السرور والحبث أيضا وسأله .
« لقد سرت معك ، أفلا تقول لى عمن تبحث »

وكان قد عرفها فى الليلة السابقة وهو جالس فى المكان المفرد للسينما
فجاءت ومعها اثنتان أخريان وجلسن الى جانبه واتفق أن ظهرت على
اللوحة رسالة خطية .

فقال « ما أردأ هذا الخط . لكانه خطى »

فابتسمت . فسألها عن كلمة فرنسية ما معناها
فسأله . « ألا تعرف الفرنسية ؟ »

فقال « أعرف منها جملا قصيرة مثل . كيف صحتك؟ ما أسعدنى!
وهناك جملة ثالثة أهتم جدا بأن أنطقها صحيحة » وسكت .

فسألت « ما هى ؟ »

قال « ما هو اسمك ؟ »

فضحكت ولم تجب ، وبعد برهة همس فى أذنها

« هل أخطأت ؟ »

فهزت رأسها وقالت « غدا »

ولما انتهت السينما اغتنم فرصة الزحام والاضطراب فقال لها . .

« هل قلت لى أن اسمك مارى بيكفورد ؟ »

قالت « كلا . كلا » وضحكت ثم أسرت اليه انه سيقام فى الليلة
التالية مهرجان فخم وانها ستحضر ، فتواعدا على اللقاء .

فلما عثرت به كان بحثه عنها وتلقته طلبا لها ، غير أنه كنتم هذا
وقال وهو يجيل عينه فى معرض الألوان حوله . .
« أبحث عن صوت »

ولم تكن تتوقع شيئا من هذا فسألته في دهشة ،
« عن صوت ؟ »

قال « نعم » ولم يبتسم
فقالته ملحة « أى صوت ؟ صوت من ؟ »
فقال وهو لا يفتأ يتلفت

« هذا ما لا علم لى به • أعرف الصوت • ولا أعرف وجه صاحبه •
وهي هنا الليلة • ولعلها منى قريبة • أما اسمها فلا بد أن يكون
الزهرة » وأقل ما أرضى به اسما لها « ملك • • • »

فابتسمت وهي تقول • • « وبجناحين ؟ »

ثم رآته منصرفا عنها فتكلفت الجدة وهي تقول :

« هل تظن ان حياتك رهن بالاهتداء اليها ؟ أعنى ان الامر اصعب
من الاهتداء الى ابرة فى كوم من القش »
فهز كتفيه وقال •

« من يدري ؟ »

فضغطت ذراعه وقالت •

« نعم ويمكنك أن تسقط من حسابك صوتها فلن تسمعه ،
واسمها أيضا - كائنا ما كان - فلن تعلقه على صدرها ، فماذا يبقى
لك ؟ »

فقال • « صوتها • انه فى اذنى »

فالتفتت اليه وقالت :

« اذا لم تتكلم بعقل فانى سأتركك »

فقال بسرعة « لا • لا تفعل • اذكرى كيف أرقصتنى بين هذا
الحلق وأنا أدور فى كل ناحية باحثا عنك »

فندت عنها آهة صغيرة وأسرعت راحتها الى صدرها ، ومضى هو فى كلامه فقال .

« ثم أذكرى أيضا الرقصات الكثيرة التى ستجودين بها على الليلة جزاء لى بما صبرت واحتملت قبل أن ألكاك »

فرفعت اليه وجهها الدقيق المعارف ، وقد استدار فمها كأنما يتهيأ للتقبيل ، وقالت .

« هيا بنا اذن فقد بدأت الموسيقى »

ولم يكن يعرف من الرقص خطوة ، ولا كان يدري ما الفرق بين « الفوكس تروت » و « التانجو » ولكنه رأى المرقص غاصا بالرجال والنساء حتى لا موضع فيه لقدم ، فضلا عن أربع ، وكان يشتاق أن يخاصرها ويضمها الى صدره ولا سبيل الى ذلك ألا اذا خطر معها على أرض المرقص ، فمضى بها حتى بلغا السلم ، وهناك تردد فهمس فى اذنها .

« لا أرى لنا مكانا فلنمل الى البوفيه ريثما يخف الزحام »

فهزت رأسها وقالت :

« كلا . بل نرقص أولا . هذا الدور فقط . وبعده المرطبات »

فصعد الدرجة وراءها ودارت اليه تواجهه فاستقبلها بذراعيه ، ولامر ما لم يطوقها دفعة واحدة . فاستراحت أطراف أصابعه أولا بين كتفيها ثم صارت كفه تنحدر حتى كانت على خصرها ثم امتدت ذراعه شيئا فشيئا حتى أحاطت بها . ولم يكن خطوهما رقصا ولكنما كان زحفا بطيئا لافن فيه ولا قواعد له ، وكل ما كان من اطاعتهما للموسيقى ومن سيرهما على ايقاعها ، بحركة الجسم ، ولم تعبأ هى بذلك شيئا فوهبته صدرها وأراحت ثدييهما المستديرين الراسخين على صدره ، وألانت خصرها تحت ذراعه ، وكان خدها الى فمه ، وأنفاسه تعبث بخصل شعرها ، وشفتاه تلامسان وجنتيها

وضغطهما جمهور الراقصين والراقصات فتأوه فقالت :

« ماذا ؟ »

قال « قلبي »

قالت بلهفة ، وهوت ينحما عن كتفه . « ماذا أصابه ؟ »

فقال بابتسامة « كان سليما قبل الرقص »

فقرصت اذنه عقابا له على افزاعها ، وكانا قد بلغا آخر المرقص فاتكأ على الحاجز الخشبي وقال .

« حسبي حسبي . لقد خلت رثاى من الهواء . ان الرقص هنا كالغوص فى الماء . فاذا كان لابد من الرقص فيحسن أن نجهر انفسنا بأنايب تمدنا بحاجتنا من الهواء النقي »

فقالت « تشجع »

فقال « ظمآن .. »

ومالا الى ركن

وصار المكان كخلية النحل وارتفع كل حجاز بين الناس ، واجتزأ بعضهم على بعض بالكلام والمزاح ، فقد دارت الرؤوس وانتشت القلوب ، ولم يعد أحد يتحرج أن يلبس طربوشا من الورق أو يستتشف أن يحمل فى يده لعبة ، واتسعت دائرة المرقص وشملت الممرات وما بين المقاعد والموائد وكل رقعة تتسع - أو لا تتسع - لاثنتين - وانعكست الآية فى كثير من الاحايين فصارت المرأة هى « الفارس » تخاصر الرجل وتدور به وهو ينقاد لها ويضحك . وخاض صاحبنا مع فتاته المعصية ومضى يطوف بها مصرا عليها منفردا بها ، وكان ربما قرصه بعضهم فى ساقه ، أو دغدغته المرأة فى خصره وصعدت حميا الخمر الى رأسه فراح يصنع بالناس كما يصنعون به ، وكان الرجل ربما تخلى عن زميلته ومال الى غيرها ، وانتزعها من زميلها ومضى بها ، لا هى ساخطة ولا هو عابى . أى امرأة هى التى بين ذراعه وصدره ، وقد يخونه الحظ فيلفى بين ذراعيه رجلا طويل اللحية ، أو أصلع الرأس ، فيضحكان وقد يتدافعان ، وهكذا بلا حرج أو احتشام

وتعب صاحبانا فمضيا الى « البلاج » يستريحان ، وارتمت الفتاة على كرسي واغمضت عينيها وجلس هو الى جانبها يتأملها ويعجب بها ثم مال عليها فلتشها فاعتدلت وسأله .

« لماذا فعلت ذلك ؟ »

فقال . « سأخبرك . بينما كنت نائمة خفقت على شفتيك ابتسامة . وقد اسرت الى ابتسامتك أن لها اختين شقيقتين في عينيك فأردت أن أراها . »

فقالت : « لقد رأيتهما الآن ، اليس كذلك ؟ »

فحلق في وجهها مليا ثم قال
« لست أراها فلملها خرجتا »

فضحكت على الرغم من تشدهما وتكلفها الجد ومضى فقال . .
« كلا . لم تخرجا . وقد همست شفتك أيضا . »

فقالت « ماذا ؟ »

قال « أخبرتاني ان لا ابتسامتهما أختا هي الكبرى تسكن قلبك »
قالت « صحيح ؟ »

فقال « نعم . وقد شجعني هذا ، والا لما اجترأت . فالذنب للابتسامة بارك الله فيها . ألم أقل لك ؟ »

فسأله . . « ماذا ؟ »

فقال . . « اني أحبك ؟ »

قالت . . « لا أظن ذلك »

فقال . . « بل قلت على التحقيق . لعلك كنت نائمة »

فقالت وحملت صوتها كل ما في وسعها من الاستنكار . .

« نائمة ؟ لقد كنت مستيقظه طول الوقت كدت أموت وانت تنحني على لتقبلني »

فصاح بها . « أيتها الساحرة »

ثم نهضا ، ولما آن أن يفترقا سالها .
« تأذنين أن أراك مرة أخرى ؟ »
قالت . « بختى سيكون جميلا فيما أتوقع »
قال : « بلا شك » بلهجة الموقن
فقالت : « اننى أعنى الجو والرقص والموسيقى يالعين . »
وافترقا الى لقاء ..

زوجها الواحد

كان الليل قد انتصف حين وقفت أمام البوابة - أفحص الأرض بعصاي وأفكر فيما أنا لا محالة ملاقيه من الجزاء - وليس من عادة احد ان يحاسبني - ولكنني قد رجوت من زوجتي وضيوغي ان يؤخروا العشاء نصف ساعة ، الى التاسعة ، لاتناوله معهم . والححت عليهم فى ذلك حتى قبلوا . وما أنذا لا أعود الا بعد نصف الليل .

وقلت . . أدخل فى سكون . وأتسلل الى مخدعي . حتى يطلع الصبح . وعسى أن يجيء النهار بالفرج . فدرت بالبيت أنظر الى نوافذه فلم أرضوا فاطمأنت نفسى . وعمدت الى الباب الخلفى - أو باب الجبل كما نسميه - ففتحته . ونفذت منه الى الحديقة وخفقت الوطء كما أوصى المعرى ، ولكن وقع الحذاء على الرمال كان له مثل صوت الغنم وهى تطحن الفول بأسنانها . وكانت نوافذ الحديقة مفتحة . وحجرة زوجتى فى هذه الناحية . وهى خفيفة النوم حتى ليوقظها مشى الهرة على السجادة - أو هكذا تزعم هى أو تصف خفة نومها - وزادنى قلقا انى سمعت - وأنا واقف مرهف الاذنين - حفيف ثوب يعدو لابسهمسرا فى خفة . وأنا أعرف زوجتى معرفتها . فأيقنت انى وقعت . وقلت لنفسى . ان الحيلة أن أقلب الفر كرا ، والدفاع هجوما . فما يفوز بالطيبات غير الفاتك اللهج . كما يقول بشار فيما أذكر ، فليس لى الآن ذهن يعنى .

وهكذا كان ، فمشيت كالجندي أدب على الارض ، ودخلت غرفة الطعام فى جراءة واضحة التكلف . وضغطت أزرار الكهرباء جميعا . والقيت نظرة سريعة الى المائدة فتبينت انها غاصمة بالاطباق واستخلصت من ذلك ان هناك استعدادا للطف والتسامح . ثم مضيت الى غرفة الزوجة وقلت بأعلى صوت . .

« نائمة ؟ وسيدك وتاج رأسك وزينة حياتك يتضور جوعا ؟ »

وكان لابد أن يوقظها هذا الصوت ، ولكنها لم تقم ، فعرفت أنها متناومة ، وظننت لجهل انى فى أمان من المخاوف . وتشجعت ومضيت الى موضع قدميها من السرير وجرتها منهما - برفق - الى الارض وهى تضحك ، وأنا أقول مغتبطا راضيا عن حظي .. « هكذا يجب ان تكونى حين يدخل السيد - واقفة .. رشيقة .. »

فصاحت بى وقد غالبت ضحكها فغلبتها . « كيف تجرؤ .. ؟ »

فقلت . « أجرؤ ؟ ان الذى يعود مثلى فى هذه الساعة بعد أن يلقى ما لقيت ويجوع كما جعت . لاجرم يكون يائسا لا تنقصه الجرة . »

فقالت . « أنا أعرف أكاذيبك فلا تجربها معنا الليلة . »

فلم أجبها ومضيت عنها الى حجرة الاولاد وهى فى اثرى تزمجر تارة وتتوعد أخرى وتضحك طورا وتلعن طورا آخر . ولكنى لم أحفل ذلك كله وقلت ان الشجاعة تغلب الكثرة ، ولم أزل بالاولاد أقرصهم وأدغدغ أوساطهم حتى ثاروا بى وأوسعوني عضا وضربا . ثم جرجوا يعدون خلفى وأنا أحاورهم من غرفة الى أخرى ..

ولا أطيل - نهض كل من فى البيت ، رجالا ونساء وأطفالا ، وتألّبوا على وأحاطوا بى وأشبعوني .. مزاحا .

وقال أخو زوجتى .. « هل أدلك لك ذراعك ؟ »

فصحت به أخرسه فعاد يقول : « هذا لا يدع لنا الا العلاج النفسى - المداواة بالايمان والاعتقاد . فإذا قلت « واحد » فإنه يجب عليك ان تخلى رأسك من كل شيء - تجعله فارغا - وهذا فيما أرى ليس أسهل منه عليك - كل ما ينبغي هو أن تعتقد ان الالم الذى تحسه ، خيالى ، ثم تغمض عينيك .. هيه . واحد . حسن . انت الان فارغ العقل ، ومتى صحت « اثنين .. »

فقلت بضعف « اذهب . اذهب . ولا تترك عنوانك »

فقال . . « يالك من عامى . اسمع . واذا بلغ الالم الجنون
فتمرغ على الارض راتل ورد الشاذلى . . واذا . . »

فاسكتته الزوجتين . . زوجته وزوجتى .
فعاد يقول . « انما عنيت . . »

فقال زوجتى . « اسكت . نحن نعرف ماذا تعنى »

فقال . « اواقفة أنت ؟ حسن . انى أكرر انى مستعد اذا كنت
غير واثقة . . . »

فقمتم اليه وقرصته وتركته يصرخ وجلست الى المائدة وانا
أسال . « هل نى هذه الاطباق شىء يؤكل ؟ »

فقال اللعين . « كلا . فيها ملابس . وعلى ذكر الملابس أود أن
أخبركم أن على واجبات شتى . . أولها انى أريد أن أبتاع حمالة
لجواربى ثانيا . يجب ان أتخير جوارب للحمالة . فهل هذا واضح ؟
وأخيرا . . »

فقال زوجتى . « ألا تؤجل هذا البيان الى الصباح . انى
جائعة . »

فقال . « ولكنه الصباح الآن يا أختى البلهاء ! ثم ان الامر على
عظم جانب . . »

فوضعت زوجته راحتها على فمه .

ولما شرعنا ناكل انقطع التيار الكهربائى فجأة ، وكان الاولاد
لحسن الحظ قد أعيدوا الى مضاجعهم فقامت زوجتى تتلمس طريقها
الى شمعة أو اثنتين تضيئهما حتى ترى ما يكون، فقلت لاخى زوجتى .
« ناولنى الملح من فضلك فانى لا أراه »

فمد يده بشىء لم أكد ألمسه حتى أحسست شيئا لزجا فعرفت
أنه المربى . فكطمت غيظى . وقالت زوجته . « اذا كنت قد فرغت
من الملح فهاته »

فناولتها المربى أسفا فصرخت ، ومضت تعنفنى بما أستحق .

فلم أقل شيئا • وكانت زوجتى قد جاءت بالشموع ولكنها لم تكد تضعها حتى عاد التيار • وإذا باللعين قد أتى فى الظلام على الموز وهو كل ما كان هناك من الفاكهة

ولما أشعلنا السجائر ودفعنا الكراسى الى الوراء قالت زوجتى • • « والان ماذا أخرك ؟ وعلى ذكر هذا • هل أحضرت الصور ؟ »

فقلت بفتور : « أعفنى بالله فحسبى ما لقيت »
فقال أخوها • • « نعم دعيه ينعم بالسيجارة التى لا يستحقها »

فانفجرت صائحا • « هل آكون مبالغا فى الطلب اذا رجوت منك أن تغطى وجهك ، لم يوجه اليك الخطاب أحد • ولا أظن أحدا يريد أن يخاطبك • وأزيد على ذلك أنه ما من أحد • • »

وكففت لان أنفى أصابته قطعة جامدة من الشوكلاته سددها زوجته فالتفت اليها وقلت : « انك ماهرة فى الرماية • تستحقين سيجارة • أو - لا - ارمنى مرة أخرى • فان سجائرى قليلة وزوجك كز لئيم »

فقلت : « قد لا أصيبك مرة أخرى وان كان الهدف لا يخطئه أعمى ثم ان الشوكولاته خسارة »

فقال زوجها وهو ينهض • • « ألا أجمع قليلا من الحصى • »
وفتح النافذة فسألته • « ألا يزال الجو صحوا • »
فقال • • « نعم • »

فقلت لزوجتى لاصرفها عن مسألتى • « انى أهنتك يا حبيبتى بصباح جديد مشرق كخديك أتمنى لك فيه كل سعادة » فسألت وهى تبتسم • • « أتظن الحال ستظل كذلك • »

قلت « هما كلمتان لا يلحقهما تبديل • • حبى خالد • ولو انى تركته فى مخزن احدى المحطات لوجدته حين أعود اليه أزهى وأنضر واعذب مما كان - صدقيني »

فقلت • « يا أبله ! لقد كنت أسأل عن الجو »
فقلت • • « صدمة • ولكن هل أبالى ؟ الطمىنى على خد أدر لك

الخد الثاني . كلا . لم أنس شيئاً حين تزوجتك ، ولنعد الى الجو ،
فقالت . « كلا . لنعدع الجو ولنعد اليك . هات سبب التأخير ،
فقلت وأنا اتنهّد . » لقد كنت معلقاً فى الجو . » لبثت معلقاً
ساعتين هذا هو السبب »

قدّار أخوها يقول . « ما أبدع هذه الصورة . معلق كالكرة
الارضية بقوة الجاذبية السماوية أو بقوة طرد الارض لك . أم
ترى كان حول رقبته حبل ؟ ألم أذكرك من قبل ؟ »
فرميته بقشرة الموز فلم يعبا وأنشأ يقول لزوجته . « انى منتظر
وأنت منتظرة . ولننتظر »

فسأله بلهجة حادة . « ماذا تنتظر ؟ »
فقال « التطورات . هيه ؟ ماذا تظنين ؟ ألا ترين كأس مولاك
فارغة ؟ »

فقالت . « أوه . »
قال « تماماً . ولكن هل عندك شىء تصيينه هذا ؟ »
فقالت وهى تتحسس ثيابها وتضحك « لقد نسيتته فى المحفظة
هى على . . »

فنهض وعو يقول . . « أخدم نفسى ولى زوجة !! » ثم قال
لى . . « لا شك أن صورتك معلقاً فى القضاء هى التى أذهلتها عن
واجبها ولذلك اغتفر لها التقصير . أم ترى نسيت مثلها صورتك ؟
لا بأس ! صف لنا غيرها . . قل كيف كنت تبدو فى الحانة »

فقالت زوجته . « ألم أقل لكم ؟ »
فقلت « أعرف ذلك »
قالت « انك لا تعرف ماذا قلت لهم »
قلت « أعرف ان ظنا لك قد أصاب . وفى هذا الكفاية »
قالت « حسن . وأين كنت معلقاً ؟ »
قلت « ألم أقل لكم ؟ »
قالت « فى الهواء . ولكن كيف ؟ لماذا . لا تكن سخيفاً »

قلت « يا امرأة • متصلين فارا حامية في الآخرة جزاء وفاقا لك على ما تتوقحن به على مولاك »

فقالت « ياسيمى وقاج راسى هل كنت معلقا من رجلك ؟ »
قلت .. كلا .

قالت .. من يدريك ؟

قلت .. كلا

قالت .. من وسطك ؟

قلت .. كلا

قالت .. من عنقك ؟

فقال أخوها • « بالتأكيد ! »

فبلغت ريقى واستخرت الله وقلت • « المسألة ان المصعد فى بيت المصور كان فاسدا وضغطت زر الدور الثالث بدلا من الثانى فاذا بى فوق سطح الدور الثالث ، وهو ينقصه البناء ولا سور له ولا سلم هناك • فجعلت أضغط كل زر لينزل فلم يفعل • ولما تعبت من الصياح والتحشى على السطح توكلت على الله ونويت أن أقضى ليلتى فى المصعد • وبعد ساعتين أمكن انقاذى »

فقال أخوها • « ألم يخطر لك أن تلقى نفسك من فوق السطح ؟ »

فلم أعبا به ومضيت أدخن وقد أحسست بالراحة بعد ان حططت اللعب عن صدرى

وقالت زوجتى « ولكن .. ألم يكن هناك شعف على الجدران فتنزل عليها ؟ »

فقلت : « هل تظنين يا امرأة انك تزوجت بهلوانا ؟ شكرا لك »

ثم ضحكت وقد تذكرت كيف دعانى العمال أن أفعل ذلك — أعنى أن أنزل فوق الخشب المشدودة الى الجدران ، وكيف كانوا يقسمون لى أن لا خوف على • وأنا أكاد أموت من الخوف • وأقسم لهم بدورى انى مستريح جدا ، وأن فى المصعد مقعدا وثيرا • وان

المبيت فيه لا يضرني أبداً . . الى آخر ذلك مما يستطيع القارىء أن يتصوره

ولم يتركونى حتى قصصت عليهم ذلك كله . فلما فرغت سألتنى زوجتى : والصور ؟ ،

فقلت يائسا : عند المصور . لما نزلت كان هو قد أغلق محله وخرج ، فنهض أخوها وهو يقول : « سأنام . أعنى سأحاول أن أنام . وأعلموا من الآن انى ابتداء من الغد سأغير سيرتى فى الحياة وأتجنب الفضيلة وأتوخى طريق الرذيلة . لا تقاطعونى . انى أعلم أن للفضيلة جزاءها الحسن أحيانا . . فليكن . ولكن الرذيلة أكرم وأسخرى الست معذورا ؟ ها هو ذا طعامى ما أكلت معكم . وشرابى . . سلوا الزوجه فانها تنسأه دائما . واذا ذكرته فهل هى تذكر انى احتاج شيئا غير النبيذ الرخيص ؟ وهذا الفاجر يقضى الليل كله حيث كان فى سرور وجبور وفى خمور وأمور . . وأراهن انه تعشى وشرب شمبانيا . ثم يجيء بعد أن يقضى أوطاره جميعا . . ويزعجنا من نومنا ويزعم انه جائع وانه كان معلقا فى الهواء . وعلى ذكر ذلك من كانت الفتاة ؟ ،

فشرت به الفنه . وأمدتنى الزوجتان بالعون اللازم ففر وأغلق الباب وراءه ، وجلست أدخن مغمض العينين وقد اغتبطت بهذا الثار . ثم شعرت بكف غضة تمسح لى شعرى ففتحت عينى على زوجتى تبسم فى عينى وتقول : « الواقع انى . . اننا كنا قلقين عليك »

فقال أخوها . . محتجا من وراء الباب . : كيف تدافعين عنه ؟ ،

فقالت . . وقد عادت تمسح لى شعرى . « معذرة . فليس لى غير زوج واحد »

فلثمت يدها شاكرا . وهكذا زوجتى أبدا .

توحة

لبثنا ساعة أو نحو ذلك نحاول ان نرفع عجلات السيارة من الطين الذى انفرزت فيه الى محاورها، فلما أعيانا أن نخرجها بأيدينا تارة ، وبالإلة الرافعة تارة أخرى - لأنها كانت تغوص تحت ثقل المركبة - عدنا الى مقاعدنا صامتين مطرقين . وكان صاحبها يسوقها فى أول الامر ومعه الى جانبه زوجه فلما جاوزنا البلدة وغابت عن عيوننا مئذنة المسجد وصرنا الى السكة الزراعية تولت الزوجة قيادة السيارة على الرغم من اعتراضنا ، فقد كان الجو عاصفا والظلام حالكا والمصابيح ضعيفة لا تلقى ضواها الى أبعد من أمتار ، وكان المطر قد انقطع ولكن السماء لم تزل غائمة والنجوم محتجبة . وقطعنا بعض الطريق فى سلام ، وكانت الرياح تصفر فى آذاننا وصوت انزلاق العجلات على الأرض الطرية يضافح مسامعنا ، ولكن الطمأنينة عادت إلينا مع الوقت فانطلقت اللسنة وانصرفت الاذهان عن تصور المخاوف والتفكير فى المحاذير ، وإذا بالسيدة ترسل صرخة خافتة وتميل بالسيارة الى اليسار كأنما أرادت أن تتقى الاصطدام بشئ ، ونحاول أن نرتد الى الاستقامة ، ولكن العجلات كانت قد غاصت فوقف المحرك وبقيت السيارة ملتوية وسط الطريق

لم نقل شيئا لما حدث ذلك بأسرع مما قصصته ، فقد فوجئنا به ، ولما تنبهنا كنا قد وقفنا وتبيننا انه لم يصبنا - لا نحن ولا السيارة - سوء ، ولم نشأ أن نؤلم السيدة فلزمنا الصمت ، ولكن زوجها اغتنم الفرصة وهمس فى اذنها أن اسمحى لى ، فتزحزحت له وخطا فوقها ، منحنيًا ، الى مركز القيادة ، فتنفستنا الصعداء وقلت أنا لاحول التفات الباقين عن صاحبنا وزوجته .

» ان هذه الطرق فضيحة فما فى مصر كلها طريق واحد صالح

للسيارات • وليس العجب ان تقع الحوادث بل العجب أن لا تقع
فى كل ساعة »

وقال أخو الزوجة وكان رئيس نيابه • « وماذا تريد ؟ ليس
فى وسع ايه حكومة أن تتكفل بإنشاء الطرق بين نواحي القطر
وتمهيدها ونعملها بالاصلاح والترميم على حسابها وحدها ، فان
الذين يستخدمون هذه الطرق وينتفعون بها ويستغلونها يجب ان
يؤدوا أجرا على ذلك ، وهذا ما حدث فى البلاد الاخرى ، ولكن مصر
نهب للاجانب ، وليس من العدل ان تفرض ضريبة على المصريين
وحدهم وأن تعفى الاجانب من مثلها • وما دام الاجانب يتوسعون
فى فهم الامتيازات الى حد انهم يسمحون لانفسهم أن يعيشوا فى
البلاد وأن يستغلوا كل ما فيها وأن يرفضوا مع هذا أن يؤدوا
شيئا فى مقابل ذلك فماذا تنتظر ؟ بأى حق تنحى على حكومتك
وحدها باللام ؟ ان المسألة هى • • »

ولم يبين لنا ما هى المسألة فقد التفت الينا صاحب السيارة
وقال لنا « انزلوا »

وصحنا كلنا فى دهشة « نزل ! »
قال « نعم • فقد غاصت العجلات فى الوحل وهى فى حاجة
الى معونتك لرفعها ، وأرجو ان يكون ذلك ميسورا والا ، فقلت
مستحنا « نعم والا • • ؟ »

فقال وهو يبتسم « والا اضطررنا أن نبقى حيث نحن الى ان
يرسل الله من ينقذنا • »

ولكننا لم نرفعها بل لعلنا زدناها غوصا ، فقد كنا اذا رفعناها
بعد الجهد والنصب مقدار اصبع واحد نعود من فرط الاعياء فندعها
تهوى فتنحط بكل ثقلها بعد تخليتها عنها ، فيزداد غوصها فى التربة
الطرية ولم تبق لنا حيلة فنفضنا أيدينا يائسين ورجعنا الى مقاعدنا
ونحن نلهث وأيدينا ووأرجلنا موحلة ، تركنا الانوار مضاءة تنبيهها
لمن عسى ان يمر بنا • وقلت بعد فترة وجوم طبعى •
« ولم لا ؟ فلنجرب حياة المتشردين • نحن على الاقل على مقاعد
وثيرة • • »

ولكن رئيس النيابة لم يعجبه هذا فقال بلهجة حادة .
 « أى متشردين ؟ اننا لا نحيا حياتهم ولم نألف خشونة عيشتهم
 فنحن أعجز منهم عن احتمال ما يحتملون بالعادة . أجسامنا لم
 تكتسب ذلك القدر من المناعة الذى اكتسبته أجسامهم بالتعرض
 والتجرد . وهم جهلة وخيالهم محدود فمتاعبهم هى المتاعب المادية
 وحدها . ونحن متعلمون مصقولون مترفون ولنا خيال أوسع من
 خيالهم ، وهذا الخيال يضيف الى ما تكابد ، ألوانا من الشقاء
 والعذاب لا تجرى ببال المتشرد فهو لا يعرفها ولا يحسها . لا ياسيدى
 لو كانت مكاننا طائفة من المتشردين لكان من دواعى اغتباطهم أن
 يجنوا مثل هذه المقاعد اللينة المريحة ولناموا ملء عيونهم ولما
 خطر لهم أن يضيئوا المصابيح تنبيهها أو تحذيرا أو طلبا للنجدة
 بل لما خطر لهم أنهم معرضون لخطر وسط هذا الطريق . »

فوافق الآخرون - لأن ملاحظته فضلا عن سدادها صادرة عن
 « رئيس نيابة » ، والذى هو رئيس نيابة لا بد أن يكون أدرى وأعلم
 ممن ليس كذلك . وأحسست أنا أن المواقفة ليس مرجعها الى
 الاقتناع بل الى مركز التكلم ، ولم يكن لاحساسى هذا من علة سوى
 كثرة ما اهتزت الرؤوس وهو يتكلم ، فجنحت الى العناد وقلت
 مغالطا أو عادلا بالكلام عن جهته

« ولكنه لاخير فى التفرع . وليست المهارة ان نحسن الاعتذار
 من تذرنا وتلمنا بل أن نحسن احتمال الحالة التى نحن فيها .
 والمسألة ليست اننا معذورون أو غير معذورين اذا تأملنا ، وانما هى
 ان نقضى ليلتنا كأحسن ما نستطيع وان لاندع خيالنا يجسم لنا
 سوء ما نحن فيه . »

ولم يكن رئيس النيابة أقل منى عنادا ، وكان أبرع فى اختيار
 نقطة الهجوم فقال وهو يشور بيده .

« لو كنا جميعا من الرجال لما جادلتك . ولكن هذه أختى . .
 لا أظنك تريد ان تطالبها بهذا . . »

ولم يتمها ، فقد وثب زوجها فجأة ، وفتح الباب من ناحيته ،

وانتزع مصباحا صغيرا معلقا بالقرب من الزجاج المواجه للمقعد
الامامي وقال « كبريت » فاندفعت ايدينا الى جيوبنا وناوله أحدا
علبة . فسألته « ماذا تريد ان تصنع ؟ »

فقال وهو يدنى المصباح من زوجته وهي تقدح عود الثقاب
لتشعله له

« سأنظر هل هنا بيت أو كوخ قريب يصلح للمبيت . »

فقالت زوجته وهو يمضى عنها « والسيارة ؟ » فلم يزد على أن
لوح بذراعه

وعاد بعد مدة كانت فيما نحس أطول مما هي في الحقيقة ،
وكان حديثنا في خلالها متقطعا ، ولم يكن أحدا يزد على الكلمة
أو الكلمتين وربما بدأ الواحد الكلام ثم قطعه ، فقد فتر الانتظار
الرغبة في الحديث وأغرانا بالنظر والتطلع ، على أمل كان يكبر
كلما خيل إلينا أننا سمع شيئا ، ثم لا يلبث أن يهزل وينتسخ حين
نعلم أننا واهمون ، وما أكثر ما كنا ننسى ان مع صاحبنا مصباحا
مضيئا وأن هذا المصباح رمزه الذي لا يكذب، وعنوانه الذي لا يضل
ولكننا كنا ننتظر على قلق فلا بدع اذا كان ما يجريه الوهم والامل
والقلق في أول الخاطر غير مطرد في سياق من الانتظام مع حقائق
الموقف .

ولم ندع شيئا محتملا أو غير محتمل الا تصورناه : فهو - فيما
كنا نتخيل - يعود مرة مخفقا والمصباح في يده مطفأ ، وتارة ينادينا
ويدعوننا أن نهرع اليه فقد وجد بيتا حسنا ، وطورا يكبر في وهمنا
انه راجع إلينا في جماعة من الفلاحين أقوياء السواعد ينقلون
السيارة الى الارض الجامدة فنشكرهم ونستأنف السير ، وتارة
أخرى يقوم في وهمنا انه لعله اصابه مكروه من انسان أو وحش -
وان كان لا وحش هناك الا أن يكون انسانا - مرة نتصوره قد
أخذ منه الكلال واضناه خوض الحول فكف عن البحث وارتد إلينا
وهو ينتفض من البرد ويرعش من الحمى .. وهكذا
فلما عاد كان أعجب ما حدث أننا سمعنا صوته قبل ان نرى

مصباحه المضيء . وان كان منا قريبا ، فأسرعنا الى الابواب نفتحها وننزل حتى لنسينا أن نأخذ بيد زوجته من فرط العجلة ودهشة السرور بأوبته وبدعوته المبشرة بالحير ، وأمطرناه وابلا من الاسئلة من غير أن ننتظر جوابا ، فلم يزد على أن قال .

« لا أدري . . ولكن قرويا دلتني على بيت قال انه الوحيد في هذه المنطقة » بيت توحه .

فقال رئيس النياية « توحه ؟ »
قال « نعم هل تعرفه ؟ »

قال « لا . ولكن الاسم مع ذلك عجيب . أين هذا البيت ؟ أهو بعيد من هنا ؟ »

قال « ربع ساعة اذا سرنا على مهل . تعالوا . »
وصرنا الى الباب ، فوقفنا عنده ندقه وننادى فرادى ومعا « توحه . توحه . . ياتووحاه . . »

قلم يجيبنا أحد . وطال دقنا للباب ونداؤنا توحه هذا ، حتى مللنا ، ونفذ صبر أحدنا فأهوى على الباب يضربه برجله مرة ، ويدفعه بكتفه مرة أخرى ، حتى انخلع فاندفع داخلا ، ولكن رئيس النياية وقف مترددا يراجع نفسه ويراجعنا ويحاول ان يصدنا عن اقتحام البيت لكننا سخرنا منه ومن هذه « الحرفية » القضائية

وكانت الغرفة التي دخلناها عجيبة . ذلك ان أرضها مفروشة بحصير على مداره مما يلي جدارين حشيتان رقيقتان طويلتان ، وفي احد الاركان غرارة كبيرة الى جانب صندوق ساذج ، وكرسی واطي . عليه قلتان كفيء على احدهما كوز ، وعلى أحد الجدران مصباح صغير جلس مواجهها له على كرسی له متكتان رجل وحف الشعر متهضم الوجه ثابت الحملاق . فتقدم اليه الذي كسر الباب وقال « هل انت توحه ؟ »

ولكنه لم يتحرك ولم يتكلم ولم يحول عينه الى مخاطبته فهمست في أذن جاري
« لعله أصم . »

قدنا منه هذا وصاح بأعلى صوته « ياتوحه • هل أنت توحه ؟ »
فلم يحفلنا ولم يولنا أقل عناية ، فضاق صدر مخاطبه وأقبل
عليه يهز كتفيه ، فما راعنا الا انه غاص في كرسيه حتى لخيّل
الينا انه تقوض أو دخل بعضه في بعض ، فقال رئيس النيابة
« كفوا ! ان الرجل مشلول بلا شك • »

وتناولوه من تحت ابطه ورفعوه وسواه على مقعده كما كان • وفي
هذه اللحظة سمعنا صوتا عذبا من ناحية الباب يقول « أنا توحه ؟ »

فالتفتنا مذعورين ، فاخذت عيوننا على ضوء المصباح الخافت
امراة سمراء مستديرة المحيا دقيقة المعارف رقيقة النظرة ، في
ابتسامتها المرتسمة على فمها الجميل معان من السرور والسخر
والالم والجلد ، فاعتذرنا وقصصنا حكايتنا ، وكانت تستمع الينا
وهي واقفة في مدخل الباب وذراعاها على الجدارين ، فلما فرغنا
دعتنا الى الجلوس وقالت « ألا آتيكم بطعام ؟ لا تقولوا • لا • ولكن
قولوا • نعم • وتعالوا ساعدوني على تهيئته »

فأعدانا بشرها ، وشرحت صدورنا سماحة نفسها ، فقمنّا معها
الى غرفة - ان صحت تسميتها كذلك - غير مسقوفة لها باب معاذ
لباب الغرفة الاخرى وفيها سلم ينتهى الى السطح ، وسألتنا وهي
ترشدنا الى ما نصنع •

« كيف لم تروا الباب الآخر ؟ لو طرقتموه لما احتجتم الى كسر
ذاك • فانه لا يوصد أبدا • »

وفي هذه اللحظة شعرنا بشيء يحك جسمه بالباب فالتفتنا منه
اليها فقالت •

« هذا خفيرى اتحبون أن تروه ؟ »
وفتحت الباب فدخل كلب ضخّم لم يكد يرانا حتى بدأ يزوم
وينظر اليها فوضعت كفها على رأسه ملاحظة له وقالت « لاتخافوا
فانه لا يؤذى ضيوفى • »

ثم أولته ظهرها وقالت وهي تبتسم :

« من حسن حظكم انه كان معى حين جنتم ! فاشكروا لى
غيبتي . »

ولم يكن فى حركاتها ولا فى كلامها شىء ريفى فقد كان لها
ظرف الحضرية ورفقتها وكياستها فى الحديث ، فأدهشنا ذلك ولم
يسع رئيس النيابة الا ان يسألها .

لقد ظننا تومة هذا أسم رجل وحيناه فى اول الامر هذا
الجالس هناك فهل هو بوك ؟
فقالت « وجزء » كلا . »

قال « أخوك اذن ؟ »

« كلا . »

« زوجك ؟ »

« لا ، (ممطوطة) »

فاقتصر وكف عن مسائلتها ، وقد شعر بالخرج ، وقالت هى
وهى تحمل الطعام الى الغرفة التى كنا فيها .
« هذا حمد »

فزادت الامر غموضا بهذا البيان

وصنعت لنا قهوة بعد الطعام وجلست الى جانب حمد - على
الارض - وتناولت يده فى كفها وجعلت تمسحها وهى تقول :

« لقد كنت فى الاسكندرية قبل ذلك - قبل ان اجىء الى هنا
وجمعت قدرا من المال لا بأس به . أكثره حلى . وكان حمد يعرفنى
يعرفنى فقط . وكان له مال غير كثير أنفق معظمه على . وفى
احدى الليالى جاء الى بيتى وانحط على كرسى ولم يقم بعدها أبدا . »
وردت رأسها الى الوراء حتى حجب الكرسى وجهها عن عيوننا
ومضت تقول

« قال لى الاطباء الذين فحصوه انه سيظل هكذا أبدا . سيبقى
كالطفل الرضيع الذى لا يستغنى عن عناية الام . وقالوا ان هذا
راجع الى اسرافه فى حياته . ولم يكن لى طفل فاشتقت ان اتخذه

طفلى وان اتعهد بعنايتي وان ابذل له امومتى . اليس قد انفق على ماله ليصير طفلى ؟؟ وكرهت بعد ذلك مقامى فى الاسكنندرية وحياتى فيها . لقد انتهى ذلك لما وجدت طفلى . بعث حلى واشتريت قطعة ارض صغيرة هنا هى حسبنا بل هى فوى الكفاية وابتليت هذا الكوخ ، وما حاجتى الى اكبر منه ؟ ليس معى غير حمد . وهو كما ترون تكفيه رقعة الكرسي . وقد كان المقام فى أول الامر عسيرا وكانت الوحدة مضنية ، ولكنى وطنت نفسى عليها ورضتها على السكون الى العزلة مع حمد . ثم وجدت هذا الرفيق . . وجدته ضالا فأخذته وربيته فهو الان رفيقى وانيسى لا يتركنى قط . هو خفى أينما ذهبت ، يخرج معى ويؤوب معى . وهو راض عني وقانع بى لا يسألنى عن شيء ، ولا يتقبنى ، كما كان يتقبنى أهل هذه الناحية على انهم أدركوا انهم لا حاجة بهم الى تكلف اتقائى فانى بعيدة عنهم . وهم الان يبذلون لى معونتهم اذا طلبتها . نعم ؟ ،
 ثم نهضت وهى تقول « ألا تنامون ؟ ليس عندى غير هذه الغرفة . فمعدرة . »

وخرجت وغابت مدة تقرب من نصف ساعة . وكنا فى أول الامر صامتين توقعا لعودتها بسرعة ، فلما طال غيابها نظر بعضنا الى بعض واقبلنا نتكلم ، الا الزوجة فقد كان وجهها ناطقا بمقت توحه واحتقارها .

ورجعت توحه فالقت الينا بطانية من الصوف ولحافا وقالت :
 « هذا للسيدة وتلك لكم جميعا . ومعدرة مرة أخرى . »

وجاءت بوسادة صغيرة وضعتها تحت قلسمى « حمد » ووضعت رأسها عليها الى جانب قدميه ونامت .

لما أصبحنا لم نجد توحه ولم نعر على أثر لها فى البيت ولا فى الحقول المجاورة . وكانت الشمس قد ارتفعت فتقدمنا واحدا بعد واحد الى « حمد » نصافحه ونودعه ونعد له فى كرسيه بعد كل مصافحة .

وكررنا الى حيث السيارة فالفيناها قد نقلت الى الحافة اليمنى

على أرض يابسة فلم يخامرنا شك فى أن هذا بعض فضل توحه ،
فانطلقنا بها فى جو مشمس رائق حتى بلغنا الاسكندرية ، وكانت
غايتنا • ولم نكد ندخل الفندق ، وندع السيدة فى غرفتها لتصلح
من شأنها وتستريح ، حتى دعانا أخوها رئيس النيابة الى « البار »
« قال لما وقفنا صفا الى جانبه

« هذا نخب توحه • بارك الله فيها • »

من يدري ؟ ربما !

ماء...

« الا أقولها لك ؟ لقد أخطانا حين تزوجنا ، ولم تبق فائدة من المغالطة »

وانحنى ليتناول ثيابه الداخلية ، ولم يسمع جوابا فلفت إليها وجهه وسألها :

« اليس هذا رأيك أيضا ؟ »

فبلعت ريقها وقالت « نعم »

وكان قد جثا على ركبتيه ومد ذراعه تحت الكنبه ليخرج القبقاب ، ثم قعد وقال :

« ولست أرى علاجاً فيحسن اذن أن ... ألا نفترق »

فهزت رأسها موافقة ، ومضى هو فى كلامه فقال :

« بلا ضوضاء .. وإذا كنا لم نستطع أن نعيش زوجين فإن من الممكن أن نظل صديقين .. اليس كذلك ؟ »

فلم تزدد على ان قالت « طبعاً »

ومضى هو الى الحمام

وكان هذا ختام الخلاف الذى احتملاه بضعة شهور ولم يدع أحدا من أهلها أو معارفهما يشعر به ، ولو أن هؤلاء الأقارب والاصدقاء سئلوا عن أسعد زوجين لما ترددوا فى الجزم بأنهما « فريدة وصابر » وكانت فريدة فى الثالثة والعشرين من عمرها - بارعة الشكل ، شعرها تاج ، ونظرتها سحر ، وصوتها تغريد ؛ وكان الذكور من أقاربها يسمونها « فله » اعجابا بها وتديلا لها ، أما صابر فكان أكبر منها بشماني سنوات ولكنه كان يبدو أصغر

من سنه ، وكان أنيس المحضر حسن البزة خفيف الظل على الرجال
محببا الى النساء ، يعدى المجلس ببشره وضحكه ، وكان كلاهما
فيه فكاهة ونزوع الى المرح ، وقد عاشا سنتين أو نحو ذلك متحابين
متفقين ثم دب بينهما الخلاف وظل يستشري ويتفاقم حتى وقعت
النبوة وانفجرت الحال ولم يعد لاحدهما طاقة على الاحتمال ، ومن
العجيب أن الصفات والمزايا التي كانت حقيقة أن تنقد الموقف هي
بعينها التي وسعت الهوة وافسدت الامر

وكان هو يؤثر أن يكون طعامه ونظام بيته على الاسلوب الغربى ،
وهى على نقيضه تكره الغرب وإن كان كرهها له لا يمنعا أن تنسج
على منواله فيما يوافق مزاجها ، فجاءها يوما بافرنجية شواء قال

انها « كنز » وحملها اعباء البيت ، فلم تستأنس بها « فريدة » ولم
ترتح الى وجهها العابس ، ولم تستطع أن تروض نفسها على السكون
الى تصرفها ، فلم تمض بضعة أيام حتى بدأت تشكو الى زوجها
كزازة « ألين » وبخلها وتقتربها وانها جعلت نظام البيت أشبه
بنظام المدرسة أو المعسكر ، فلا راحة ولا تمط ولا كسل ، ولا شعور
بان للانسان أن يتمتع بما هو فيه من نعمة ، فما جاء ضيف الا أثار
وجوده مشكلا . فالين تقول ان هذا الضيف غير داخل فى حسابها ،
وفريدة تقول ان ألين تفضلها بهذا التقتير ، وانها لا تستطيع
أن تفهم كيف لا يكون فى البيت - فى أى وقت - من
الطعام الا ما يكفى المقيمين فيه على الدوام ، هذا الى أن فريدة تكاد
تموت جوعا لانها لا تستمرىء الطعام الذى تهيفه « ألين » فالخضر
كلها تصنع توابل ولا تطبخ واللوخية لا تسبيل اليها ولا أمل فيها ،
وألوان الطعام الاخرى ناشفة ، وقصارى القول انها لم تعد تعرف
بيتها وانها تجس بوحشة وحيرة وانها تؤثر أن تعيش مصرية كما
كانت .

وقال لها « صابر » مرة بعد أن سمع شكاتها
« ولكن المصرية ليس معناها الفوضى وسوء النظام »

فحز فى نفسها هذا التعريض ولكنها سكنت فقال :
« لقد استرحنا على الاقل من البعثة وصار كل واحد يستطيع
أن يعرف أين هو - وأن يهتدى الى ما يريد بسهولة »

فقالت بلا تفكير « فى وسع كل منا أن يستيقظ نصف ساعة قبل موعده اذا كان ينقصنا النظام أو الترتيب »

فقال صابر متهمكا « من سوء الحظ أن أهلى أهملوا تربيتى ، فلم أتعلم كيف أرتب الثياب أو أكويها أو أرقعها أو أرفو الجوارب . ثم ان هذا واجبك أنت اذا كان واجب أحد منا ، ثم اننى أخيرا سئمت هذه الحالة »

« فقالت فريدة « اتفاق عجيب - وكذلك أنا »

ولم يمنعها كونها متعلمة أن تتغلب عليها الطبيعة النسوية فأضافت الى ذلك

« ان نومك عميق - لا أرق فيه - لقد لاحظتك »

فقال وقد نهجم « معنى هذا انك تبينين مسهدة ؟ الحكاية القديمة !! معذرة يا شهيدة الوفاء - واذا كان نومى العميق يؤرق جفنيك فأرجو أن تأمرى بنقل سريرى الى غرفة أخرى ، واذا كان يعز عليك أن تتعبى الخدم من أجل فانى مستعد أن أستأجر من ينقله »

على أنه حسنا للنزاع استغنى عن الين ، ورأى مبالغة منه فى تأليفها واسترضائها أن يبتاع لها قطعة من الحرير لتصنع منها « فساتين » وقال وهو يرمى بها فى حجرها

« لا تعربى عن آيات الشكر فانى واثق بأن صدرك يفيض بها ، فدهشه أنها نظرت الى الحرير ثم اليه وقالت :

« لا أدرى لماذا تزوجتك »

فساءه منها هذا ، ولكنه أثر أن يحمله على محمل الفكاهة فضبط نفسه وقال يمازحها .

« جمال زوجى . خفة دمي . هو ذاك . لقد بهركن جميعا »

فلم تبسّم وقالت « بل تزوجتك اشفاقا عليك ورحمة بك »
فألمته الوحزة ولكنه تجلد وقال :

« طبعاً • طبعاً • لذلك لم أكد أتقدم خاطباً حتى بادرتم الى القبول »

فقلت وقد خرج صوتها عن الاتزان قليلاً :
« هل تظن انك كنت فرصتي الوحيدة ؟ »

فسره انه استطاع أن يهيجها وقال :
« لا أدري • ولكن اذا لم تكن الوحيدة فلا شك انكم عددتموها كذلك - أعنى خير فرصة »

فقلت وقد جف ريقها « لقد إخطانا اذن - وما من خطأ الا وهو قابل للإصلاح »

فنفخ وهو يقول « اشفاق ؟ خطأ ؟ وماذا أيضاً ؟ »
فصاحت به « أتراك تزوجت امرأة أم اشتريت دبة ؟ »

فقال « معذرة ولكنى لا أفهم »
فضحكت ضحكة عصبية وقالت :

« هذا هو الذى يريد أن ينظم بيته على الطريقة الغربية - ومع ذلك لا يعنى بأن يشاور زوجته فيما يشتريه لها - اذا كنت تكره أن أرافقك فهل كان يعجزك أن تجيئنى بقصاصات من الاقمشة ؟ »
فأثارة هذا الذى لم يخطر له فى بال ، وأسخطه شعوره بأنه مخطئ ، وانها محقة فقال :

« دعى هذا الاعتراض وقولى أولاً - هل تنكرين أن عنايتى بأن أشتري لك هذه القطع عمل مشكور فى ذاته ؟ »
فألقت اليه بالقطع وقالت :

« اذا كانت قد أعجبتك فخذها لك »
فلم يسهه الا أن يضحك وقال :

« لا تصلح لى مع الاسف • ومع ذلك ... »
فصاحت به « لا أريها • • أفهمت ؟ لن اضعها على جسمى - انى أمقتها ... »

فطواها فى ورقتها وقال بلهجة الكمد :
« حسن .. قد يسمح الرجل بردها فلا داعى للكلام .. انتهينا »

وقال « صابر » مساء ذلك اليوم الذى انتهى فيه الى وجوب الفراق
« لقد دعوت أخاك .. معذرة اذا كنت لم استشرك .. ولكنك متفقين
فيما اعتقد على الاستعانة به »

فقالت « أخى عاقل وكثوم .. وقد أحسنت .. وليس هناك غيره ..
ولكن علينا نحن أن نتفق قبل مجيئه »
« فقال « لا شك .. على أننا اتفقنا على الفراق بلا ضوضاء .. اليس
كذلك ؟ »

قالت « نعم .. فلا داعى لاي ضجة .. ولذلك اقترح أن أدع أنا
البيت كما هو - الى حين - وانتقل أنا الى بيت أخى »

فقال صابر - « كلا يا عزيزتى .. بل تبقيين فى البيت حتى
لا يلاحظ أحد شيئاً - وانتقل أنا الى الفندق أو ما يشبهه .. فإن
الذى أعنيه هو مجرد الفراق لا الطلاق .. وأرجو أن تسمحى لى
بزيارة من حين الى حين .. مرة فى الاسبوع أو الاسبوعين أو كل
بضعة أيام .. اذا شئت .. سترا للمظاهر السنا متفقين على
أن نظل صديقين - أشكرك - مرة فى كل أسبوع أو اثنين تدعيننى
الى الغداء أو الى العشاء .. العشاء أفضل عندى لنقضى السهرة
معا .. الحديث .. ما ألد هذا .. كما يفعل الاصدقاء سيكون
سلوكنا بدعة ظريفة .. وطريفة أيضاً وسيقول كل من يطلع
على الحقيقة ما أعقلهما .. ومن يدري »

وأقصر ..

وجاء أخوها « فوزى » وكان كما وصفته حكيماً كتوماً مجرباً -
فلما سمع قصتهما سألها

« أمصران أنتما على هذا الفراق الغريب ؟ »

فقالت فريدة « نعم .. كل الإصرار .. لقد تبينا خطانا منذ عدة

شهور ولم تعد هناك جدوى من التكلف ،

فسالهما « هل فكرتما في مقتضيات هذا الفراق ؟ »

فاجاباه بسؤال « ماذا تعنى ؟ »

قال أعنى أن هذا الفراق طلاق غير رسمى • لا ينقصه الا الورقة والشهود • فاذا كنتما جادين وكارهيين فى الوقت نفسه لفكرة الطلاق أملا فى امكان عود الائتلاف (أصوات • كلا • أبدا • مستحيل •) لا بأس • صبرا • أقول اذا كنتما جادين فيجب أن يفهم كل منكما أن لا سلطان لاحد على الآخر ولا شأن له به أى أن كلا منكما يسترد حريته - أعنى الحرية فى دائرتها المعقولة • • الحرية التى لا تجر مشاكل ولا تورث المتاعب والآلام »

فوافقاه وقال صابر « اذا كنت أخاها فانك ابن عمى أيضا »

فقال فوزى « طبعاً • وثق أنى طوح أمرك فى كل وقت • اذا نشأ أى مشكل فلا تترددا فى دعوتى أو الحضور الى »

★ ★ ★

وجرت الامور بضعة أسابيع على ما اتفقا عليه • • هى مقبلة فى البيت كما كانت وكان صابرا لم يبرحه وهو يزورها مرة كل بضعة أيام ومن حين الى حين اجابة لدعوتها ويتناول العشاء معها على مائدتها ويبقى الى ساعة متأخرة ثم ينصرف • وكثيرا ما التقيا فى بيوت أقربائهما فى أيام الاسبوع الأخرى حتى جرى فى ظن هؤلاء الأقرباء أن هذه المقابلات ليست عفوا • • •

وكان سلوكهما فى هذه المقابلات مبعث دهشة شديدة لأقاربهما • فقد كان سلوكا حافلا بالود والمجاملة واشيا بالشوق فى غير لهفه • ولم يشيرا قط فى هذه المجتمعات ، لا باللفظ الصريح ولا بالإشارة ، الى موقفهما و ما كان بينهما • • فلم يسع أهلها الا أن يجاورهما فيما كانوا يصفونه فيما بينهم « بالسلوك الشاذ المضحك » وبخاصة لان فوزى حتم عليهم التزام الصمت واجتناب كل تعرض لهما • وكان له من النفوذ والكلمة المسموعة ما يستطيع به أن يفرض ارادته على الاسرة كلها

واففق أن صابرا كان يتعشى ليلة مع فريدة فلما جاءت الفاكهة قال وهو يقشر الموز

« الحق يا عزيزتى ان هذا الفراق - على أسلوبنا - أمتع من الزواج ولو أمكن أن تجرى الحياة الزوجية على هذا النحو لكأنت أبقي »

فقالت فريدة وعينها الى الطبق « كلا . لا أظن ذلك . . . »

فابتسم صابر وقال مقاطعا

« هل أفهم أنك مللت . . . »

فقاطعته بدورها قائلة « كلا . لا تفهم شيئا من هذا . انما أعنى أن المرأة تتزوج - أو دعنى أقول انى أنا تزوجت لانى اشتيت ذلك - كما أشتى أن البس فستانا معينا حتى اذا قضيت ماربى منه . . اذا شبت . . رميته . . خلعت على خديجة الخادمة . . فلا سبيل الى استرداده بعد ذلك . . ولا يمكن أن أشتيه مرة أخرى . . »

فامتقع لونه وقال وهو مطرق واصابع يده على حافه الطبق

« كالثوب تلبستينه ثم تخلعينه . . . قد يكون هذا رأى المرأة فى الزواج . . . أما رأى الرجل . . . رأى أنا . . . أو على الاصح دافعى أنا الى الزواج فهو أنى . . . معذرة اذا أسأت التعبير . . . سمعت ثغائك (١) . . . نادانى جمالك . . . دعانى اليه فأسرعت ملييا . . . سمعت الثغاء فعدوت . . . »

ثم رفع رأسه وقال بصوت متهدج « أرجو يا فريدة . . . أرجو . . . اذا . . . اذا اشتقت الى ثوب جديد . . فستان طريف . . ان . . ان تلعينى أعلم . . أعنى أنه يكفى . . صعب جدا . . أن تصارحينى . . ولكن يكفى . . ألا تدعينى الى العشاء . . فافهم . . فما أريد أن تظلى مقيدة بى مشدودة الى اذا نازعتك نفسك أن

(١) الثغاء : صوت الغنم حين تقول (ماء . ماء .)

تقطعى الجبل لتصليه من ناحية أخرى .. بغىرى .. و .. اظنك
تعذر يننى . أليس كذلك ؟
فبدلت له الوعد الذى طلبه

★ ★ ★

ومرت بضعة أسابيع أخرى على هذه المحاورة نسياما فى خلالها
وقلت مقابلاتهما فى بيوت أقاربهما لان صابرا كان يضطر الى السفر
الى ضيعته لمباشرة شؤونه . فى احدى الاسابيع بعثت فريدة الى
صابر تعذر اليه من عدم استطاعتها دعوته « غدا » - كماداتها -
لاضطرارها الى شهود عقد زواج احدى صواحبها - وكانت صادقة
- ولو أنها لم تفاجأ بالدعوة الى حضور عقد صاحبها لاستطاعت
أن تقدم موعد العشاء مع صابر - ليلة - فلما أرسلت اعتذارها
تذكرت تلك المحاورة فأخذت تعنف نفسها وتتهمها بالغباء والتسرع
وتقول لو تذكرت لدعوته الى العشاء بعد غد - فالآن سيستوهم
بفضل حماقتى انى أريد الطلاق ...

وجرت الى أخيها .. قصصت اليه فى مكتبه - وكان مهندسا
مقاولا واسع الاعمال . ولم تطق أن تنتظره حتى تلقاه فى بيته .
ولم تكد تدخل عليه حتى ابتدرته بقولها
« لقد هدمت البيت على رأسى ... فماذا أصنع ... عجل ...
بسرعة »

فقال وهو يتناول سماعة التليفون ليرد على طلب « مهلا .. دقيقة
واحدة .. نعم ينتظر فى غرفتك .. سأحضر اليه حالا »
والتفت اليها وقال ببرود

« والآن ماذا تريدین ؟ » قولى وأوجزى فان وقتى هنا ضيق .
والا فانتظرى حتى ينتهى عملى فأمر بك أو تسبقينى انت الى البيت .
فصاحت به « كلا . كلا . ان المسألة لا تحتمل اضاءة دقيقة » .
فقال بهدوء « اذن أشرحها باختصار وبصوت خافت . »
فحككت له ما حدث . فهز رأسه وقال :
« لا أرى لى حيلة . »

فنهضت ودنت منه وقالت وهى تجذبه .

« كيف تعدم حيلة ؟ أرجو . أتوسل . لقد لبثت هذه المسدة
 اتلف على عودته . وها أنذا أقصيه عنى الى الأبد بحماقتي .
 فاصنع معروفا . فوزى . لا تخذلنى . »
 فكتم الضحك وقال وهو ينهض « انتظرى هنا برهة حتى أعود . »
 وكان الذى فى الغرفة الاخرى صابرا . جاء يعرض على ابن عمه
 الامر .

فقال فوزى وهو يفرك جبينه « لا أدرى . ولكن ربما تفاهمتا اذا
 خاطبتها بالتليفون . »
 فسأله صابر « وماذا أقول لها ؟ »
 فقال فوزى « هذا شأنك . قل ما يخطر على بالك . انتظر هنا . »
 وعاد الى فريدة فقال « لقد خطرت لى فكرة . اطلبىه بالتليفون
 حادثيه . » فقد يشمر هذا خيرا . »
 وأمرها بالانتظار وتركها وخاطب عامل التليفون بمكتبه من
 غرفة ثالثة وقال له « اطلب كلا من الاثنين فى غرفته وصلهما »
 فقالت فريدة « هاللو . صابر ؟ »

- نعم . أنا هو . فريدة ؟
- نعم . هل أنت هنا .
- أظن ذلك .
- كيف صحتك .
- لا بأس
- ما لصوتك . هل أصابك برد ؟
- لا . ربما . لا أدرى
- وبعد هنيهة قصيرة ،
- هاللو . لقد ظننت الخط قطع .
- لا . أردت أن أخبرك أنى طلبتك بالتليفون .
- متى يا عزيزتى .
- الآن .
- الآن ؟ لم تجدنى بالطبع .
- كيف لم أجذك ؟

- ٩
- لاني لست فى البيت •
 - وكيف صحتك ؟ لقد سألت عن هذا من قبلي • أريد •••••
 - اصمعى • لقد طلبتك أنا أيضا •
 - طلبتنى ؟ • متى ••
 - الآن •
 - كيف يمكن ؟
 - اصفى الى يا فريدة • فقد تلقيت عذرك •
 - لم اكن أعنى بالطبع شيئا من هذا •
 - ألا تحضرين زواج صاحبك ؟
 - كلا كلا •
 - اذن لا تريدان أن تغيرى الفستان ؟
 - فأذنت فريدة فمها من بوق التليفون وصاحت بكل ما فيها من
 - قوة
 - « ماء . . . ماء . . . »
 - فرمى صابر السماعة وانطلق يعدو
 - لقد دعتة اليها •

الوردة البريئة

لم تكن هي تعنى ذلك ، ولا كانت تجرؤ عليه لو أن خواطرها كانت تجرى فى هذه الناحية ، ولكنه عبت الاطفال القى بها فى هذا الموقف الذى لا يدلها فيه . وللفتى العذر اذا ظن غير ذلك وراح شبابه يستحث خياله . فقد كان سائرا على مهل ولم يكن يفكر فى شيء من هذا ، واذا بوردة ارجوانية تقع على صدره ، فتوقف ، وقد ظنها أول ما أصابته شيئا أصلب وأخشن ، ولم تكده عينه تأخذ غلائلها المضطربة حتى ابتسم وتلفت ، وقد الهب شبابه خياله وأزخر خياله احساسات الشباب ، فانطلقت السماء تتدفق فى عروقه حارة متقدة ، واذا به يرى فتاة وضاء المحيا تطل من الشباك وعلى شفقتها آهة جزع ، وفى عينيها نظرة هى مزيج من الغيظ وخيبة الامل والحيرة والحجل ، وعلى خديها جمرتان كانتا من الغيظ والحركة ، فأشاعت رؤية الفتى وقدتهما الى النحر ، وانحنى الفتى هفتناول الوردة ورفع بها أصابعه الى فمه ليأكلها شاكرا ، وأرسلت عينه الى الفتاة نظرة ناطقة بمعانى الشكر والاعجاب والرغبة ، فارتدت الفتاة مضطربة منكورة من الفتى ذلك ، ولم تكده تدور على عقبيها وهى مطرقة حتى رأت الغلام الذى زج بها فى هذا الموقف فأهوت عليه تضربه وتلكمه

ولم يكن للغلام ذنب ، فقد رأى مع أخته ورده راقته فاشتبهى أن تكون له . واشتأقت أصابعه أن تعبت بها وأن تذبل رونقها وتمزق غلائلها على عادة الاطفال فقال لأخته بلغة الاطفال المحطمة

« هات . هات . »

وتعلق بشوبها فلم تفهم مراده ، ولم تدر أى شيء يطلب على وجه التعيين فقالت :

« آيه ، »

وهزت له رأسها مستفسرة

فرغ أصبعا دقيقا وأشار به الى الوردة وقال
« ده . ده . ده »

فأدنت الوردة من أنفه بأصبعين ، وربت له جانب خده الصابح
بالثلاثة الأخرى . فرد الغلام رأسه الى الورداء قليلا لما لامست الفلافل
شفتيه وأنفه وأغمض جفنيه ، ثم اطمأن فرغ كفيه لياخذ الوردة ،
ففتحها وأبته عليها ، فالح عليها وراح يكرر « ده . ده . ده » ، فرق
له قلبها واحتملته على ذراعها وراحت تلاففه وهو يابى أن ينصرف عن
غايته ، ويميل على ذراعها فى كل ناحية غير متقسطا أو ناظر الى
غير الوردة التى تضن بها عليه ، وأرادت أن تلهيه فمضت به الى النافذة
وأوقفته « على الكنبه » وجعلت تشير بأصبعها الى ما يبدو من الشبابك
وتلفتة اليه ، ولكنه أصر على الوردة وعبس ولوى وجهه عنها وأسند
خده الى المخدة المسندة الى الحائط ، فلم تطق صبورا على جفوته وقالت
لنفسها أعطيه الوردة وأراقبه حتى اذا هم باتلافها انتزعتها من كفه
وقالت له « خد . خد »

ومدت له كفها بها ، فلما سمع قولها « خد » رمى اليها نظرة عن
عرض فرأى يدها تمتد فلم يستطع أن يظل متجها لما يفرح به قلبه ،
ولمح على وجهها الابتسام فرغ محياه الصغير وجازها بضحكة عالية
ليس أحلى منها ولا أندى على القلب ، فمضته الى صدرها وبودها لو
فتحته له ووضعته فيه ، ثم خلته وناولته الوردة فما أسرع ما أولاهها
وجهه ومضى بالوردة الى آخر الكنبه حيث النافذة الشائبة فخطت
وراءه تراقبه لئلا يفسد الوردة أو تزل قلعه فيهبى الى الأرض

وكان الغلام كلما أحس أخته تدنو منه يشيح عنها بوجهه كأنما
كان يخشى على الوردة أن تستردها ، وأشفقت هى أن يكون قد أذبلها
فدارت به لتنظر ، فدار هو أيضا ليخفى . فارتدت اليه من الناحية
الأخرى فتحول عنها ثانية ولبت بها الرغبة فى النظر فمدت يدها ولم
تكذ تلمسه حتى صرخ وأطبق كفيه على الوردة فجزعته وهمت بانتزاعها
فما أسرع ما دار حول نفسه ، وهو محنى ويداه مدسوسستان فى
حجره ، وحنجرتة الجديدة تخرج أصواتا مختلفة قد تكون صراخا وقد
تكون احتجاجا . وظلت هذه المحاورة بضغ ثوان - هو متشبث بالوردة ،

وهي أحر ما تكون رغبة في انقاذها من كفيه ولكن من غير أن تتلفها ،
وإذا به في بعض لفاته ودوراته حول نفسه يلقي النافذة أمامه مفتوحة
فيقذف بالوردة منها

ولم يكن الشاب يعرف ذلك كله ، واني له أن يعرفه ؟ وهل كان
خليقا أن يصدق الفتاة لو أنها قصت عليه الحقيقة ؟ كلا انما أمامه وردة
أرجوانية هي في اصطلاح الشباب رسالة الحب المتقدم ، وفتاة من وراء
الوردة تنظر اليه وتطل عليه لترى كيف يتلقى رسالة قلبها الذي
ازدحم - في وهمه - بحبه مثل ازدحام رأسها بشعرها الذهبي
المقصود .

وتلبث الفتى هنيهة ينتظر أن تعود الى النافذة ، فلما لم تعد قال
«حسبي هذا ، وهل كنت أطمع فيه أو يجرى لي شيء من هذا في وهم؟»

ومضى

ويشاء الحظ أن يكون فتانا أحقق من الظروف التي خدعته ، فلم
يكن يمر بعد ذلك بالبيت الا وعلى صدره وردة أرجوانية . واتفق يوما
أن وجد النافذة مفتوحة والطريق خاليا فاستخار الله ولم يزل يقذف
بالوردة حتى دخلت من النافذة ، وكانت الفتاة في الحجرة مع أمها
وأخيها الذي جر عليها هذا كله ، وإذا بالوردة تقع ، فانتفضت الفتاة
وأسرعت الى الشباك فاذا صاحبها تحته لا ينقصه الا قيثاره يعزف
عليها ، فعبست ووجدت نفسها تصيح به « صحيح مجنون » - وأمها
تعجب ولا تفهم ، وتسال لا تسمع منها سوى انه «واحد مجنون ياستي»

ولكن الشاب هو الجنون ، فقد صار خوف الفتاة من عود الفتى
الى رمي الورود واشفاقها من عاقبة ذلك يغريانها بادامة التفكير في
الامر ، كانت فزعة في أول الامر ثم اطمأنت لما كف الفتى عن رشقها
بالورد وارتزأ بالتطلع والنظر وارسل القبلات في الهواء . غير أن
خوفها هذا عودها الاطلاع من النافذة ورؤيته رائحا أو غاديا ، فما
أسرع ما انقلبت الوردة سهما من قوس كوبيد .

الطالع

« أتستطيع أن تقرأ ما في الفنجانة ؟ »
وكان في يدى فنجانة أتأمل ما رسمت القهوة على مستدارها ،
وكان ذلك منى شرودا ولم أكن أقصد الى شىء فردنى سؤالها اليها
بعنفقلت وأنا ألقى نظرة أخيرة على للفنجانة وأعيدها الى طبقها
« عجيب هذا .. فهل له حقيقة يا ترى ! »

فسألتنى بلهفة وقد انصرف ذهنها الى غير ما أعنيه « ماذا ؟ »
قلت « أن يعتقد المرء أن ما يلمسه - من منديل له أو فنجانة
يرشف منها ، الى آخر ذلك - يعلق به سره ، ويصبح وفيه مفتاح
حياته ، ماضيه وحاضره ومستقبله »
فأبت أن تتابعنى وكرت الى سؤالها الاول

« ولكن هل تعرف .. ؟ اصدقنى »
ولمحت فى وجهها آية الجزع من أن أنكر العلم بأسرار الفناجين ،
واللهفة على شىء جزع من حرمانه ، ولم تكن تبتسم وكانت شفتها
الحساسستان تختلجان ، واذا اختلجت شفتا فتاة فهذا معناه أن كيانهما
كله يهتز ، فلم أشأ أن أخيب أملها وقلت لنفسى « وما أضرنى أن أقول
لها كلاما حسنا مطمئنا . ان وجهها جميل لا ينقصه الا الاشرار ،
ومن حق هذا الجمال على أن أعيد اليه وضائه » ثم نظرت اليها - فى
عينيهما - وقلت :

« ياقتاتى ليس أسهل من ذلك . ولو أنى جهلت أو ضللت لكان
حسبى أن أنظرايك فان وجهك كتاب مفتوح »

فابتسمت ولم تقل شيئا ، ورفعت فنجانتها ورشفت ما بقى فيها
ثم هزتها وقلبتها على طبقها قالت بأعذب صوت وأرخمه « من
فضلك »

قلت « هاتى قرشا »

قالت « قرش .. ولماذا ؟ »

قلت « لا تنطق الفنجانة الا بالقرش » هذا ما علمنى استمادنى
فاعطنى ما أعطاك الله »

قالت « ولكن ليس معى قروش »

قلت « آسف جدا ياسيدتى »

قالت « يكون لك عندى قرش »

قلت « لا فائدة »

وأشعلت سيجارة فكادت تبكى ، ثم كأنما ألهمت شيئا فخرجت
بلا استئذان ولما عادت مدت أصبعين بقرش بينهما ، فتناولت فنجانتهما
وأطلت النظر فيها بغير فهم ، ولم يحضرنى كلام - لا طيب ولا خبيث ،
ولا مطمئن ولا مزعج - فعجبت للدجاجة وأكبرت قدرتهم . ويظهر
أن طول تحديقى فى الفنجانة وتجهمى من جراء عجزى أفلقها فدنت
منى ووضعت كفها الرخصة على كتفى وقالت متوسلة :

« قل الحق .. لا تكتمنى شيئا »

فأدركنى العطف عليها والاحتقار لفسى ، غير أن التراجع كان
مستحيلا فالهمت أن أقول :

« أوه .. لا شىء .. الواقع أن القهوة كانت خفيفة ، ولكنى مع
ذلك أرى قليلا جدا .. هذا طائر على غصن .. واضح جدا هذا ..
والغصن قلق كثير الاضطراب ، والرياح مختلفة المهاب ، ولكن الطائر
ساكن مستقر على فتنه ، ويخيل الى أن معنى هذا ان اضطرابا
يعتورك ولكنك تنتهين الى الاستقرار ، فهل أصبت ؟ »

فوثبت الى قدميها وهى تقول « برافو .. برافو .. ما أصدق
الفناجين .. وما أبرعك أنت .. انى دائما أعترم أن أنتقل من البيت
ولكنى لا أرانى أتركه الى سواه ، صحيح .. صحيح .. ثم ماذا ؟
قل بالله » فشجعنى هذا التوفيق وقلت مستمدا من وحى الخيال :

« وهنا يبدو لي - علي قدر ما أرى ، فإن الآثار خفيفة طفيفة - شيء هو خسارة تصيبك ، خسارة مال أو حلي مثلا . لا أدري كيف تكون الخسارة . ربما حدثت سرقة ، وقد تفقدن هذا المال ، ولكن المهم أنه يضيع والسلام ، ولكن تحت الخسارة شخصا يعوضها بما يرضيك وستكونين راضية شاكرة »

ثم حدثت في الفنجانة وإدريت وجهها إلى النور ، ثم رفعت عيني إلى وجهها وقلت وأنا ابتسم

« يكفي هذا الآن . . في وقت آخر أتم لك القراءة »

فأملت فازددت أنا على الإلحاح تأبيا ، وتعمدت مع التأبي أن اتوخي في كلامي وهيئتي ما يطمئنها ولكنها ظلت تصر وتقول :

« لابد أن تكون عرفت شيئا آخر . . ومن حقي أن أعلمه فاني أولى به منك »

فقلت أسرارك في صدرك ياسيدتي لم استبح لنفسى منها شيئا ، فقالت « أهو اذن سر لي عرفته ؟ حدثني بالله »

فقلت متخابئا « لا أستطيع . . فان الذي أراه ليس مقصورا عليك وحدك ، فهناك سر لآخر »

قالت « أهو ذاك ؟ »

قلت « هو بعينه . . رأيت أول ما رأيت وكاوضح ما يكون فكتمته »

قالت « ألا تخبرني ؟ »

قلت « في وسعي إن أخبرك بما في الفنجانة ولكنني أفضل . . أن أسكت »

ولما أن أن أتركها سألتني وهي تصافحني

« أصبح ما قلت ؟ »

فضحكت وضغطت يدها وأنا أقول « لم أقل شيئاً ولكنه مع ذلك صحيح »

ففركت لى أذنى وهى تقول :

« ياخيبيث .. هل كنت تقرأ فى الفنجانة ؟ »

فقلت « كلا .. لقد كنت أقرأ ما فى عينيك .. وانت ؟ »

قالت « لقد تصنعت لاستدراجك »

قلت « يا للمرأة من مثلة »

فقالت « ويا للرجل من محتال »

قلت « أيهما الذى احتال على صاحبه - آدم أم حواء ؟ »

إبتسامة الايمان

رأيت فى الحلم أنى «حانوتى» - أغسل الموتى من الرجال والنساء والإطفال ، على السواء ، والفهم فى الأكفان وأحملهم فى النعوش الى اللحد ، وللأحلام منطقها وأن كان لا يبدو فى كثير من الأحيان . وقد عجبت لنفسى فى أول الأمر كيف صرت كذلك ، ثم صار عجبى من احتمال هذه الصناعة - أو التجارة - ورضائى بها وسكونى إليها ، ولم أكن أعلم انى أحلم وأن ما أنا فيه ليس بسوى تخیيلات ، وانى سأفتح عينى على النجاة منها، ولو قال لى أحد انى سأكون يوما ما ، حانوتيا لهجت به وعددت ذلك منه شتما وإهانة وإتهاما لى بالبلادة وكثافة الجلد ، ولو جلست أتصور ذلك لأتشعر بدنى من هول ، ولكنى مع ذلك كنته - فى الحلم - فلم استعظمه ولم استنكف منه ، ولم يخطر لى أن فى كونى «حانوتيا» شيئا من الغرابة أو التنافى والتناقض مع الشعور الانسانى الرقيق . فما أقدر الأحلام أحيانا على اظهارنا على مبلغ الاستعداد الكامل فى النفس ، وعلى ارغامنا على مواجهة الحقائق مجردة عن الاوهام والحواسى وغير ذلك مما يخفيها ويشوهها . واى بأس أو عيب أو شذوذ فى أن يكون المرء «حانوتيا» ؟؟ وماذا فى الموت مما يجعل تناوله بشعا أو فظيحا ؟؟ وهى ثانية واحدة يكون المرء قبلها حيا وبعدها ميتا ، ونحن نتولاه قبلها بالعناية ولا نشعر أن فى هذا ما ينفر أو يثقل على النفس ، أما بعدها فالامر يكون مختلفا جدا ، أدري لماذا ؟

ولم أكن - وأنا فى الحلم - أضع بيدي شيئا . انما كنت صاحب مال - وهذا أغرب - أستقله وائمه فى هذه التجارة ، فانها تجارة ، ويتولى عنى عمالى وصبيانى الفسل والتكفين وما الى ذلك مما يجى مرديفا الموت وتمهيدا للدفن ، واتسعت تجارتى - وهل كان يمكن أن تبور؟ واشتد النشاط وعظمت الحركة فى مخازنى ، وتدفقت الاموال فقصت

بها خزانتي ، فانشأت أقول لنفسي مرة وأنا مضطجع على كرسي وثني
في بيتي :

« ان هذه التجارة التي أزاؤها ، جافة ، لا فن فيها ، ولست أرى
ن انسانا يعجزه أن يكون حانوتيا . اليس كل ما في الامر أن يكون
للمرء مخزن أو مخازن للنعوش ورفوف لشتى المنسوجات الحريرية
والقطنية ؟؟ وما الفرق بيني وبين أي متجر بأي سلعة ؟؟ لقد صرت
صاحب دكان لا أكثر ولا أقل ، وما أرى أن أرضى بهذا ، والا فلست
المازني . (فما نسيت اسمي في الحلم ! ولا أذهلني الجديد المفاجيء من
أمرى عن أن صناعتي الأدب)

وشرعت أفكر فيما ينقص هذه التجارة وما هو خليق أن يفيض
عليها جمال الفن أو جلاله . فقلت لنفسي أن الموت سخييف عنييف ،
فلماذا لا نرققه ونجمله ؟ ولن يكون الترقيق والتجميل والتلطيف بدعا
فقد حاول الناس ذلك من قديم الزمان ، وهم يلفون الميت في الحرير
إذا وسعهم ذلك أو فيما هو ثوبه مما يشبهه إذا لم يسعهم الحال ،
ويكسون النعش والارن أو الثابوت بما يزينه ، فبدأ التزيين معمول
به ، ولكن الامر فيه يقتصر على الظاهر ولا يمتد الى الميت نفسه . وما
خير أن تجيء بالحرير والحز والديباج الموشى وتغطي بذلك خشبا لا
علاقة له بالميت ؟؟ اليس الميت أولى بهذه العناية ؟

وقلت لنفسي نعم هو كذلك ، وانطلقت أفكر في الحياة والموت ،
وليس أوثق منهما صلة ، ولكن مظاهر هذه الصلة في الانسان على
غير ما ينبغي أن تكون ، فالحي يكره الموت ويفزع منه وينتظره وهو
ساحط عليه مشمئز منه غير مرتاح اليه ، وقل في الناس من يتلقاه
بابتسامة العارف به المطمئن اليه الموطن نفسه على لقائه ، وما أكثر
ما تكون وجوه الموتى عابسة مقطبة مفضنة ، وأحسب أن منظر الموتى
وما يرتسم على وجوههم في الاحيان الكثيرة من الالم والفزع وما الى
ذلك مما يستولى على النفس ساعة الوفاة - هو الذي يقوى في الاحياء
شعور النفور من الموت ، ولا شك عندي في أن من تربية الامة أن
تروضها على السكون الى الموت ، ولا يتأتى ذلك الا اذا جملنا الموت

ورققناه وشجعنا العيون على النظر الى مظاهره بغير جزع أو فزع ،
ولابد فى ذلك من استيحاء الفن

واقتنعت أخيرا - فقد شاء الله أن يطول الحلم - بأن من الواجب
أن أبحث عن وسيلة لتجميل الموت وتخفيف وقعه وتلطيفه ، وهذا
شئ تقدر عليه الصناعة ولا تعجز عنه ، فأقمت فى بيتى شبه معمل
ورحت أجرب الدهانات والاصبغة حتى وفقتى الله وهدانى الاجتهاد
الى صنوف شتى منها ، رضيت عنها واكتفيت بها • وكان الذى أنا
مقدم عليه بدعة ، والبدع تصدم فى أول العهد بها وتثير على صاحبها
جمود الناس ، فلا بد من الكياسة والحذق واللباقة

وأتيت فى أول فرصة فأسرعت الى اغتنامها وقبضت على ناصيتها
كما يقولون ، ذلك أن أرملة مقطوعة مات لها فتاها فى السابعة عشرة
من عمره ، فبعث الى من يدعوني الى ما هو مألوف ، وكانت فقيرة
فأثر رسولها التخفيف اجتنابا للثغقات التى لا قبل للارملة الثكلى
بها فقلت لرسولها « لا عليك يا هذا • ان الناس للناس ، وما يضيع
العرف عند الله • فاذهب لشأنك • وسأتولى الأمر بنفسى » .

وقلت هذه فرصتى فاذا ضاعت فانها الطير أفلت من القفص
وتشجعت وحملت معى طائفة من أصباغى ، وتخيرت خير ما عندى من
الاكفان وأجودها وأنقها وأزهاها لمعة ، فلما صرت فى البيت قام عنى
أعوانى بالغسل ، ثم أخرجتهم وشرعت أعمل ، وكان الفتى نحيفا
ضاويا أصفر الوجه ، وكان الموت قد فاجأه وهو مقطب الجبين ، فرجلت
شعره وسويته وفرقته له كأحسن ما يمكن أن يفرق ، ودهنته
ليثبت على ما صنعت ، ثم أقبلت على محياه الظامى فعالجته بما صفا
لونه ، وجعلت له على خده لعطة تزيينه ، وعلى ثغره المتقبض الشفتين
مثل الابتسامة ثم ضخمته بالطيب ، ودعوت الغلمان فحملوه الى مكانه
بين النادبات

وتلكأت بعد ذلك فى فناء البيت ، فنوديت ، وكنت أتوقع ذلك ،
فصعدت الى الارملة فاقبلت على تسألنى ما هذا الذى صنعت ؟

قلت « ياسيدتى • هونى عليك • هذه ابتسامة بريئة على ثغره •

عليه ألف رحمة ، وسيراهما الملكان على فمه فيحسن وقعها في نفسيهما
فيدركهما عليه العطف ولا يشغل عليه سؤالهما .

قالت « أهو ذاك ؟ »

قلت « نعم وكان الله في عونك . ارجعي اليه وانظري ، وتملي بالنظر
وتعزي . فان في وسعك أن تنظري الآن بلا جزع ولا استهوال لما
يفعل الموت حتى بالوجوه النضيرة . ولولا أنك مسكينة . مسكينة ،
مرزوءة رزءين لما فعلت ذلك ، اذهبي . اذهبي ، وليمسح الله على
قلبك »

وما أشك في أن الاغتباط بمنظر ابنها خفف من لوعتها عليه ، على
أن المحقق انها رضيت ولم تسخط

وتلاغط النساء فيما بينهن بما صنعت ، وأكبرنه ، واستحسنه ،
فقد اشدت الطلب بعد ذلك لهذه الابتسامة ، والاقبال عليها ، وصارت
سلعة رائجة بين الموت ، واضطرت أن أدرب العاملات عندي على
استعمالها ، فما استطيع أن أتولى الامر بنفسى اذا كان الميت سيده
أو فتاة . وكثرت ابتساماتى وتنوعت . فهذه ابتسامة بريئة للصغار ،
وتلك ابتسامة الجمال للعجائز . وكان النساء يوصيننى بطبعها على
وجوههن ، وهكذا

وصنعت دهانات أخرى سميتها « ابتسامة الايمان » وقفتها على
الشيوخ والعجائز ولم أكن أتقاضى أجرا على هذه الابتسامات أو
ثمنا لصبغاتي ودهاناتى ، لاني أردت أن أخدم الفن وما أعرف فنا
يخدم الا بتضحية ، وما أقل ما تكلفت في سبيل ارسال الناس الى
قبورهم باسمين مشرقين الوجوه لا عابسين قبيحي الصور .

ولا أحتاج أن أقول ان اختراعى ذاع وشاع ، وأن الفضل في ذبوعه
لأن للنساء دون الرجال ، وهذا طبيعى فان النساء أشد تعلقا بالزينة
واتفق مرة أن توفي رجل فدعنتى امرأته ، فلما كنت عندها ووقفت
بين يديها ، قالت لى :

« لقد مات منذ ساعة ، وأنا وحلى معه ، فلم اطلق صوتا ولم

أولول عليه حتى استشيرك ، قلت « شكرا لك ياسيدتى . هاتى ما عندك واعلمى أنى خادمك الامين »

قالت « انى حائرة ، أى ابتسامتيك أليق به ؟ ابتسامة الرضى أم الايمان ؟ »

قلت « هل تسمحين أن ألقى عليه نظرة ؟ فما أستطيع أن أعرف أيهما أولى أن تنطبق على وجهه حتى أعاين »

قالت « تفصل »

ومضت أمامى الى السرير فنظرت الى وجهه المتهضم ولونه الاخضر وجبينه المخدد وعنقه المعروق ، وقلت :

« ابتسامة الايمان فى رأى أفضل وهو بها أولى »

قالت « ولكنه مات وهو لا يؤمن بشئ !؟ لقد كانت آخر كلماته بكفرا »

قلت « قد يكون ذلك من فرط تبريح الآلام فان اثرها على وجهه »

قالت « اليسبت ابتسامة الرضى أولى ؟ »

قلت « معذرة فانى أخالفك . ان ابتسامة الايمان تنطوى - ضمنا - على الرضى . ولكن الرضى ليس من المحتم أن يكون فسطيه ايمان ، وهذا هو الفرق بين الابتسامتين »

فشرذت قليلا ثم قالت « ربما ، أنت أدرى ، ولكنه مات كافرا »

قلت « هذا شئ يعلمه الله لا أنت ولا إنا . واعتقأدى أن الله أرحم من أن يؤاخذنه على كلمة أجرى الآلم والعذاب بها لسانه . ويحسن أن نرد الى وجهه الايمان كتمهيد لما نرجوه ونسأل الله من العفو عنه . ثم انه لا يليق أن يذهب الى القبر كافر الوجه أيضا حتى وإن كان كافرا القلب »

فاقتنعت وعدت أنا لاجىء بجؤنى التى أضع فيها طيوبى وأصباغى ،

وشرعت هي في الولوجة لجميع المؤسسات والمعزيات ، ولم أعرف بأى شيء مات المسكين وأى مرض قتله ، ولكن ثقة المرأة بي أغرتني بالاحتفال بفقيرتها ، والعناية باكساب وجهه كل ما يدخل في وسع الفن من معاني الرضى والايمان . وكأنما كنت أرجو بذلك أن أرى إليه ما أفقده المرض وما خسرته بكفره وجحوده نعمة ربه .

وأظن أن المرأة سرها مجهودى أو ثمرته على الاصح فقد أشرق وجهها وأضاء على الرغم من الدموع السائلة على خديها . وعلى ذكر الدموع أقول : انى لا أدرى من أين يجىء النساء بهذا الطوفان كله ! وعلى كثرة ما ييكن لا أرى ذلك يضر عيونهن !

وقد ندمت بعد ذلك على اسرافى فى تزويد هذا الميت بالابتسامات ويارب خير جر شرا ، وكم من عمل صالح فى هذه الدنيا العجيبة كان مجلبة للمتاعب . ذلك أن قريبا للميت كان طبيبا ، فجاء ليمشى فى جنازته ويشيعه الى قبره . وخطر له أن يلقي على قريبه نظرة أخيرة قبل أن يوضع فى النعش فصعد اليه فلما وقعت عليه أمسى بالنسوة المحيطات به فخرجن واستبقى هو أرملة وقال لها وهو يشير الى وجه الفقيد

« ما هذا ؟ »

« ابتسامة الايمان »

فلم يفهم على ما يظهر وصاح بها

« باى مرض مات ؟ هيه !! أنطقى ! »

قالت المسكينة « تسألنى كأنك لا تعرف ؟ مات بالسل »

فدق الطبيب يدا بيد ، وجعل يقول وهو يروح ويجىء فى الغرفة كالنمر ، ووجهه محتقن والشرر يتطاير من عينيه

« سل ؟ سل ؟؟ انظرى (وقبض على يد المسكينة وجرها الى فراش الميت) انظرى الى تقلص عضلات الوجه ! هذا سل ؟؟ . هذا فعل السم . هنا جريمة . . . »

فقالت وهى تنشج «سم؟ أعوذ بالله! يا شيخ هذه ابتسامة الايمان!»
فصاح بها « ايمان ؟ هذا سم وسأبلغ النيابة حالا . . . »

وفعلها الاضحق .

ولكنى استيقظت قبل أن تتولى النيابة التحقيق ، فلا أعلم ماذا
صنعت ، وهذا عذرى الى القراء .

(حاشية) « هذا الحلم صحيح لا خيال فيه رقد رأيته فعلا . ومن
الاعيب الذاكرة التى يحسن ذكرها انى ظلمت أياما مشغولا بهذا
الحلم لا من ناحيه تأويله فما أعرفنى اكثر ثقت قط لتأويل الاحلام، ولكن
لأنى قرأت شيئا عن معالجة وجوه الموتى بالتدليك والاصباغ ، فى
مجلة أو رواية أو كتاب - لا أذكر - رقد حاولت أن أهتدى الى هذا
الكتاب أو المجلة أو الرواية فلم يوفقنى الله ، ولكنى موثق انى قرأت
شيئا من هذا القبيل . ولا شك عندى فى أن ما قرأته انطبع فى ذاكرتى
ثم تراءى لى وأنا نائم فرأيت أن ابنه الى ذلك ،

وردة او الحبان

هذه القصة خلاصة اخرى اضخم واغوى

تعشوا .. الاب الهرم والام التي لم تذبل الكهولة رونقها ، وابنتهما - ثم مضوا الى الشرفة الوسيعة فانتحى كل منهم ناحية ، وجلس الفتى قريبا من أمه ويداه متشابكتان حول ركبته وشعره ألوحف الناعم راقدا الا فى الموضع الذى تتخلله أصابعه ، وكانت عينه الى أمه غير أنه لم يكن يراها وانما كان يرى « وردة » بنت ابن خال أبيه - يراها كما رآها فى الحديقة المقمرة ، وفى النهار المشمس بين أزهار الربوة ، وفى الاصيل المطلول على شاطئ الغدير ، وفى ثوبها البرتقالى تخطر اليه وتهامسه وتحنو عليه وتقبله بين عينيه .

ولما صعد الى غرفته جاءت اليه أمه ووقفت معتمدة على النافذة فدنا منها وقال « ألا تحدثينى عن سر العداوة التى تشطر عائلتنا . »

قالت « كلا . ان هذا من شأن أبيك اذا رأى أن يفضى اليك بالسبب »

فخفق قلبه وسألها « أهى اذن مسألة خطيرة ؟ »

فلم تزدد على أن قالت « نعم »

وكان أبوه فى خلال ذلك جالسا فى الشرفة يقول لنفسه « لماذا خولد صفارا ؟ أما لو كنا نولد كبارا ثم نصغر بعد سنة !! اذن لاستطعنا فى أيام الشباب أن نفهم كيف تجرى الامور وتقع الحوادث ولا تسعت صدورنا ورحبت آفاقنا ووسعنا أن نقدر ونعذر . يا لتهكم الاقدار . وردة يحبها ابنى . وردة ابنة الرجل الذى طلق المرأة التى أحببته فتزوجتها ! كيف يمكن ؟ كيف يمكن ؟ »

انحدر القمر فزحفت الظلمة لينة دافئة ، وشملت كل ما فى الدنيا
من أهواء وعواطف ، وأشواق ومنادم ، وسقط الطل فتفقلت كمائم
الزهر وانطلقت الابقار ترعى فى الحقول وتدفع السننتها وتمدها لتحس
بها الحشيش الذى لم تعد تراه ، ورقدت الانعام وراحت تجتر وسكنت
الاطيار فى هذا الليل الدافئ الذى لا حلم فيه وهذا كل شئ الا
الانسان

وكانت « وردة » مطلة من نافذتها تصغى الى أصوات الليل كلما هبت
الرياح وخشخشت الاشجار ، ونفسها متطلعة مشرقة ، وبودها لو
تستطيع أن تحرق أجنتها فى نار الحياة وهى ترى الفراشات تطير
حولها الى المصباح . تركت غرفتها ومضت الى الحديقة وقد لجبت بها الرغبة
فى مكاشفة أبيها بما يكن صدرها ويجد قلبها ، وكان جالسا تحت
شجرة فدلقت اليه وأفسح لها مكانا الى جانبه على المقعد ولكنها آثرت
الوقوف وسألته بغتة على عادتها « أبى . ألم تعشق قط ؟ »

ولم تنظر اليه وهى تساله ذلك فأحمر وجهه وتجهم وتدانى حاجباه
ولكنه ضبط نفسه — هل يجديه الغضب مع هذه الفتاة المدللة التى
يحيا الا لها ؟ — قال « ماذا يعنيك من هذا السؤال ؟ »

ونفض ومشى الى حوض زهر فحلقت به على أطراف أصابعها ووضعت
كفها على كتفه وقالت « حدثنى عن هذا يا أبى »
فصمت لحظة ثم قال « ماذا يعنيك أن تعرفى ؟ وفى مثل سنك
أيضا ! »

قالت ملحة متقصية « ألا تزال حية ؟ »

فهز رأسه .

« أهى متزوجه ؟ »

« نعم »

« أهى أم سمير ؟ وكانت زوجتك الاولى ؟ »

ولم تكده تقول ذلك حتى راعها أن ترى وجه أبيها الساكن يتلوى
من الألم .

« من قال لك هذا ؟ »

« ولكن يا أبى انها حادثة قديمة . »

« قديمة أو جديدة . لا . . . »

فأمسكت بذراعه وجعلت تمسحه بكفها فقال فجأة .

« انى أحاول أن أنسى ولست أحب أن يذكرنى شيء . » ثم كأنها أراد أن يرفه عن صدره المحرج فقال « ان الناس لا يفهمون فى هذه الايام . ولا يستطيعون أن يقدروا . . »

فقالت كالهامسة « أنا أفهم وأقدر »

وكان قد أولاهما ظهره فدار اليها وقال . « ماذا تقولين ؟ أنت التى لاتزالين طفلة ! »

قالت « ربما كنت قد ورثت حبك »

فقال فى فزع « كيف ؟ لمن ؟ »

فقالت « لابنها »

فبهت وامتنع لونه وأطرق ومشى . ولما صارت فى غرفتها دخل عليها وقال . « لقد فكرت فيما سمعت منك . »

قالت « نعم »

قال « ليس أوجع لنفسى من الكلام فى هذا . ولكنه لا حيلة لى . ولا أدرى أتعرفين ، أى شيء ، أنت عندى ، أم تجهلين . ولكنى أدرى انك كل شيء . . ان امك لا . . ليس لى غيرك . . لم أشته شيئا ولا عيبت بشيء بعد مولدك . »

قالت « أعرف ذلك »

قال « قد تحسبن انى أستطيع أن أصنع لك شيئا - أن اذلل الصعاب - انك مخطئة . ليس فى وسعى شيء « فلم تنبس وردة بحرف ومضى فى كلامه فقال : « ان هؤلاء الناس لا يمكن أن يتقبلوا منى شيئا . انهم يبغضوننى وان كانوا هم المسيئين الى . هكذا الدنيا . »

فقاطعته « ولكن يا أبى ما لسمير ولهذا ؟ »

قال « انه ابنتهما • من لحمها ودمها »

قالت « كلا يا أبى • كلا • »

فاضطجع فى مقعده صابرا حليما كأنما آلى على نفسه أن لا يدع شيئا من عواطفه يطفو الى وجهه وقال: اصفى الى • انك تضعين شعور شهر واحد - بضعة أسابيع - فى كفة وشعور خمس وعشرين سنة فى كفة أخرى فما هى فرصتك ؟

استمعى لصوت العقل يابنية • ان ما انت فيه جنون مطبق • »

ففركت وردة الزهرة التى كانت فى يدها وانتفضت قائمة ثم ندمت على ما قالت • « ان الجنون هو أن تدعو الماضى يفسد الحاضر • ما لنا نحن ولماضيكم • انها حياتنا نحن لا حياتكم • »

فرفع أبوها كفه الى جبينه ومسحه مرة وأخرى وثالثة ثم قال وهو أشد ما يكون سكونا وحلما •

« بنت من أنت ؟ ابنتى • ابن من هو ؟ ان الحاضر متصل بالماضى والمستقبل مرتبط بهما جميعا • ولا سبيل الى الفكاك من ذلك • »

فوقع من نفسها هذا الهدوء والحلم ولم تخف عليها مغالبتها لنفسه ولكنها على الرغم من ذلك بكّت وألقت رأسها على كتفه وقالت مستصرخة ..

« عونك يا أبى • انك تستطيع معاونتى • »

فسرت فى بدنه رعدة وهو يقول « أنا ؟ اساعدك ؟ انى أنا العقبة • ان دمي فى عروقتى • »

ونفض وقال • « وا أسفاه • لقد وقع الشحم فى النار • تعالى يابنيتى • ياوحيدتى • »

قال سمير لأمه • « لقد اطلعنى أبى على كل شيء • »

قالت « أعلم ذلك • فهل تظن أن لك أن ترجو السعادة مع هذه الفتاة • »

قال • « نعم • اذا أمكن أن تكوني أنت أيضا سعيدة • ؟ »

فابتسمت أمه وقالت « شيء آخر • • أفكرت في أنه قد يتبين لك غدا أن الحب ليس هو هذا الاعجاب بالجمال • ولا هذه الرغبة في الاستيلاء • ؟ ألا تخشى أن يتكرر معك ما وقع لي • • ؟ »

قال وهو مطرق « لماذا يا أمي ؟ ألا أنها بنت أبيها تكون مثلك • »

قالت « أخشى • »

ثم أردفت ذلك بقولها وعلى فمها ابتسامة مرة وفي عينيها سهوم اليم فزع له ابنها •

« على كل حال لا تجعل بالك الى • فكر في نفسك وفي سعادتك • أما أنا ففي وسعي أن أحتمل ما تجيء به الايام • انه الجزاء الذي استحقه • »

فصاح بها « أمي • »

قالت « لا تخف ! لن تخسرني مهما فعلت • »

وخرجت وتركته يمزق قلبه الحبان : حب أمه وحب وردة •

قالت وردة لأبيها وهو داخل عليها « ماذا يا أبي ؟ »

فهز رأسه وخانه لسانه وأحس انه سيقتلها اذا تكلم • فصاحت به ماذا ؟ ماذا ؟ عجل يا أبي ؟ »

قال « يابنيتي قد تحاملت على نفسي وذهبت • ووالله لقد بذلت جهدي ولكن • • • »

وهز رأسه • فأسرعت اليه ووضعت يديها على كتفيه وقالت « أهى أمه التي تأتي ؟ »

قال « كلا . بل هو سمير نفسه . تعالى يا بنيتي . لا يسؤك هذا منه
انهم لا يعدولون قلامة من ظفرك . »

ولكنها انتزعت نفسها من بين ذراعيه وصرخت كالمجنونة « انك
لم تسع . لم تفعل شيئا . كلا لقد خنتني . خانني أبى . »

فبهت الرجل وحز في نفسه هذا الاتهام ، وبدأ كأن سنه علت عشر
سنين فجأة . ولما نطق كان صوته خافتا ضعيفا كأنما يجيء من دنيا
غير هذه .

« هذا جزائي . قد كان حريا بى أن اتوقع الفشلين جميعا .
لا بأس »

وخرج مخنوقا ، فى حلقة شيء يوشك أن يسده ، وفى صدره
تمزيق ، وفى قلبه هبوط ، وفى ظهره انحناء .

ولما عاد كان الليل قد أظلم . ولم يكن فى البيت نور الا جيئ
بقيم الحميم ، فاضطرب ودار بالغرف يتلمس ابنته فى احدائها ، وبلغ
من اضطرابه وذعره ان لم يضىء نورا أو يدعو أحدا الى اضاءته ،
وانه ليمشى فى قاعة الجلوس التى خلفها فيها اذ اصطلم بشيء فمد
يده يتحسسها فاذا فتاته كوم متهافت على الارض . فاهوى اليها
يجسها حتى اطمأن ثم احتملها الى غرفتها لاهثا مكدودا مضعضع
النفس .

الرجل الطليق

يجيء من حيث لا أدري • ويذهب الى حيث لا أعرف • ولا علم لي به فيما بين الزورتين • ولم أره مرة في يده حقيبة أو معه فضل ثياب • فكل ما يملك ثوب على بدنه مما يخلع عليه هذا أو ذاك من معارفه • وعصى غليظة يتوكأ عليها وان كان شديد العضل قوى المفصل لا يعنى بعمل • ويقيم عندك ما شاء لا ينتظر منك دعوة أو يحفل كيف تكون معه • ثم تعود نفسه فتنزح الى الرحيل والتجوال فيصرف بغير استئذان

وكان رجلا محببا وان كان مجهول التاريخ • لا يعرف أحد عنه شيئا • ولا يحكى لك هو من ماضيه شيئا • والدنيا عنده حزمة من المسائل ينقصها الحل • حديثه خليط من الهزل والجد • وهو نفسه لغز مخبر ، فهو أنا له وجه مجرم وكلام جان ميؤوس من صلاحه • وتارة يكون الرجل المذهب • وطورا يكون العالم الفيلسوف • وعلى كل ما يظهره من الاستخفاف (بالعاطفة) والزراية عليها فقد تلمح أحيانا ومض الاخلاص واكتلاى الشعور الصادق • غير أن ذلك لا يكون الا عارضا لا يستطيل فى سماء النفس ولا يتتابع فى أفقها • ولا يلبث أن يخبو وينام ويعود الغيم الى سواده • ومن يدري ؟ لعل تلك أصداء لما كان • أو لمحات مما هو مخبوء وراء القناع الكثيف الذى لا يرفع •

وقد يتبسط أحيانا فيقص عليك بعض ما وقع له فى حياته من غير أن يعين زمانا أو مكانا • ولا يكون تبسطه معك لانك تستدرجه بل لأنه هو يطيب له أن يشجيك أو يفرعك أو يروعك • قال لي يوما ونحن على الطعام :-

أما المدينة فلا يعنك اسمها ويكفيك من العلم بها أنها رقعة من الدنيا يلهث الناس فيها من فرط العدو وراء الاصفر الرنان كما يقولون ولا تمل نساؤها تغيير ثيابهن - كالافاعي • فخطر لي يوما

خاطر أجراه فى رأسى حسن الثياب التى كانت على بدنى ، ولا أحتاج أن أقول انى لم أشتريها اذ انى كنت مفلسا كالعادة ، وعلى ذكر الافلاس أسألك ما هو اللفظ الذى يطلق على رجل لا يكاد يعرف الفلوس لانه لا يحتاج اليها ؟

فخفت أن يستطرد عن الحكاية على عادته فقلما يتم قصة أو يرويها الى آخرها ، واحسبه يعتمد ذلك حتى لا يزيدك بنفسه علما فأبدت اشارة استخفاف وضجة وجهل فى آن معا فهز رأسه واستأنف كلامه ..

« لا بأس . ولا عيب على اللغة أن تخلو من كلمة تحيط بهذه الحالة . فان الحياة لا تكاد تعرفها .. نهايته . خطر لى على ما أذكر لأن أن أكتب مقالا أوفق فيه بين المعرى وأبى نواس . لا لأن التوفيق ميسور . بل لأن مجال السخرية واسع رحيب .. مهلا مهلا . لا تضجر انما أحاول أن أبين لك حالتى النفسية يومئذ لتستطيع أن تتبعها الى آثارها وتتعقب نشوء الفكرة التى تكونت عندى بعد قليل ، والفكرة هى أن أكتب وصف متشرد . ألا ترى كيف تطورت الفكرة ؟ ربما كان مما يعينك أن أذكر لك أن الذى كان فى ذهنى هو أن أبين استحالة التوفيق بين الشرطى والمتشرد . آه فهمت الآن . حسن ؟ ضربت الارض بعصاى وقصدت الى مجلة .. »

وقلت لصبى هزيل مسلول - نظرة واحدة الى وجهه كانت حسبي للعلم بأن الداء يدب فى صدره - يا ذا الوجه الاصفر . أين قدس . الاقداس هنا . »

فنظر الى ممتعضا ونهض فى تشاقل وقال : « ايه » قلت : « المحرر . »

قال : « أيهم ؟ ومن تريد منهم »

قلت : « كبيرهم . صنمهم المعبود . هبل الأكبر . ألا هم . » فلم يفهم ولولا ثيابى النظيفة ومظهرى الفخم لما منعه الضعف

وهزال السبل أن يتلقاني بما يعتقد أنى أستحق - أو بما استحق فعلا . ولكنه مد يده وسعل ثم قال : « أمعك بطاقة ؟ »

فصحت به : « ماذا . »

قال : « بطاقة . أليس معك بطاقة . »

قلت : « ما حاجتى اليها يا مغفل ؟ »

فرماني بنظرة حقدومكر ومضى الى مكتب وجاءني من فوقه بورقة مطبوعة وقال « اكتب اسمك وصنعتك هنا »

فضحكت . اسمى حقا . وصناعتى أيضا !

وتناولت الورقة وغطيت بها وجهه واقتحمت الغرفة التى كان واقفا على بابها ، فالفيت فى ركن منها رجلا نحيلا غائر العينين مكبا على المكتب يتكلم فى التليفون ويرسم فى أثناء ذلك خطوطا ودوائر على ورقة أمامه ، فانتظرت حتى فرغ من الكلام ورفع رأسه - وكان العرق يتصبب من جبينه فقد كان الوقت صيفا - وقلت : « لماذا تشقى على هذه الصورة ؟ فى أى سبيل يتصبب عرقك هذا ؟ أنا الواقف أمامك .. أتعب ولا .. »

فصاح بى . « من أنت ؟ لماذا جئت »

وأظنه حسبني مجنونه . فقلت أسكن روعه وأطمئنه : « لا تخف .

.. لست الا انسانا مثلك على الاقل . »

فنهض وقال ووجهه مكفهر : « ماذا تريد منى ؟ أخرج من هنا »

ودق الجرس فدخل الصبى المسلول فأشار عليه أن يخرجنى . فقعدت على كرسى وضحكت وقلت : « أتكلف هذا المسلول الذى يتنفس بجهد أن يحمل ثقل جسمى هذا بكل ما فيه من عضلات ؟ »

فجلس مثلى وأشار الى الصبى يرده وعاد يسأل : « ولكن لماذا لا تخبرنى من أنت وماذا تريد ؟ »

فقلت : « لانى لو فعلت لما زدت بى علما . أريد أن أصف لك

حياة المشتد كما هى فى الواقع فقل تقبل ؟ هـل تدرك أن قراءك يموتون حسرة اذا لم أكتبها ؟ ويشقون اذا لم أصفها ؟

وخيل الى وأنا نظر الى وجهه أن الغضب سيطر بعقله ويلقيه صريعا . ولكنه بلغ ريقه وقال : « اكتب ما تشاء وارسله . ارسله وارسل عنوانك . لا حاجة الى الحضور بنفسك »

« فخرجت »

وأشعل صاحبي السجادة ومضى يدخن كأن الامر قد انتهى . والحكاية قد وافت ختامها ، فصبرت ضيعة فلما رأيت أنه لا ينوى أن يفتح فمه قلت :

« وحل كتبت المقال ؟ »

فابتسم وقال : لماذا أكتبه ؟ لماذا أتعب نفسي وأكد خاطري ؟

قلت : « ولكن لماذا اذن قصدت الى ادارة المجلة وعاملت الصبي بهذه القسوة واقتحمت غرفة المحرر وأزعجته . »

فضحك وقال : « المسألة بسيطة . خطر لى أن أفعل ذلك ففعلت . ثم خطر لى أن أعدل فعدلت . وحى الساعة . ماذا تريد منى ؟ أما الغلام فالى متى يا صاحبي أنبهك الى وجوب التحرر من العواطف التقليدية ؟ وما هذا الغلام ؟ ذبالة تحترق . كيان يذوى ويموت . قرقرة أصابع . نفخة . رهن لعبة الحياة . لا يبلغ حتى أن يكون مسألة من مسائلها . »

ونفخ الدخان ووضع رجلا على رجل ثم قال : « الذى كنت أريد أن أكتبه يومئذ لا يزال مادة صالحة . خذها وانتفع بها اذا استطعت أن تتصور حياة المشتد وتضع نفسك موضعهم وتحس بكل ما يضطرب به جنانه ، على أن هذا لا يهم اذا تعذر عليك لانه اطار الصورة ، أو ألوانها اذا شئت . انما المهم هو مسألة حسابية يسهل اثباتها بالأرقام . ذلك أن تعقب المجرمين ومطاردتهم والقبض عليهم ومحاکمتهم واسكانهم السجون يكلف الدولة أضعاف ما يمكن أن تنفقه مع التبذير لو انها أسكنتهم أفخم الفنادق بدلا من السجون

ووفرت لهم وسائل الترف وأسباب العيش الرغيد . هذه هي نظريتي . وبسطها سهل . فما عليك إلا أن تجيء بأحصاء دقيق رسمي للحقائق والأرقام . هات ما تنفقه الدولة على الشرطى والمحاكم والسجون . وضع أمامه ما عسى أن تنفقه لو عُنيت بالمتشردين وأغدقت عليهم نعم الحياة وغمرتهم بطيباتها من ثياب فاخرة وسجاير « هافانا » الخ الخ . . الأرقام مقنعة فهات واقتنع وأقنع الدولة . »

وبعد قليل عاد يقول . « نعم . وقد تسأل . ولكنك لا تسأل شيئا . لانك جامد كغيرك ، لا تستطيع أن تتحول عما الفت وشببت عليه ، ومن أجل أن الدنيا كلها تعتقل المتشردين وتسجنهم . تبدو لك نظريتي مزاحا مستظرفا على الأكثر . . »

على أن لنظريتي ذبلا . . ذلك أن الدولة هي فى الواقع التى تسلب المتشردين حقوقهم وتسرق أموالهم الموقوفة عليهم . لا تعجب ولا تعجل . هذه الاموال تخصصها الجماعة للعناية بالمتشردين . ولكن الدولة تأخذ هذه الاموال وتنفقها فى وجه آخر . تعطيتها للشرطة والقضاة والسجون . والمتشرد لا يأخذ شيئا منها وان كانت له موقوفة عليه ومخصصة للعناية به ، فهلا صرفوا الشرط والقضاة - أو على الأقل الموكلين منهم بالمتشردين - وأنفقوا المال على أصحابه - أصحابه الشرعيين ، أعنى المتشردين ؟ »

وقام وتناول العصا وهو يقول : « اكتب هذا . فانها نظرية صحيحة على أن أكبر ظنى انك لا تفعل وان كان لا ينقصك الاقتناع الذى أقرأ آفته فى وجهك . لانك مقلد »

وهكذا صاحبى ابدا . .

فى الحىاة الموت

أظنه رد فعل لما ظلمت سنوات طويلة أعالجه من رىاضة النفس على السكون الى حقيقة الموت أو فكرته أو وقعه المفزع - فما أدرى كيف أقول - فقد صرت اذا فاجأنى من تجب تعزيتة عن فقيد له ، كان يلقانى بفتة فى طريقي ، أو يدخل على ، على غير انتظار ، أرانى أغرى بالضحك ويرتج كيانى كله وتعترينى « نسبة قهقهة » اذا استقام هذا التعبير - فلا أستطيع أن أكبح نفسى وأزجر أعصابى عن هذه العريدة الا بجهد جاهد ، والمفاجأة فى مثل هذا المقام هى التى تخرج بى عما اعتلت من ضسبط النفس ، فلمست أخشى أن أضحك - أو حتى أن أبتسم - اذا خرجت قاصدا الى التعزية ، وأحسب أن الوقت فى هذه الحالة يتسع لعلاج الاعصاب اذا نرعت الى التمرد ، والزامها ما يقتضيه المقام ولكنى أسهو أحيانا عن أداء واجب التعزية أو أقصر لسبب ما ، أو لا يتصل بى خبر الوفاة الا بعد فوات الوقت الملائم ، أو أطلع على الخبر فى صحيفة ولكنى أكون قد نسيت اسم الرجل فلا أعرف أنه هو الذى فجعه الموت ، ويتفق أن اللقاء فى الطريق وأرى ثيابه السود ووجهه الكاسف فأذكر وأتنبه وأخف الى تعزيتة فتعترينى هذه النوبة السخيفة ، وغير مقبول أن تلقى بالضحك محزوناً فقد والده - ولعله عائله أيضا - أو ثكل ابنه وأمله ولف عليهما كفنا واحدا ، وهبه أعقل وأرشد من أن يجعل باله الى ابتسامتك أو يخطئ فيتموهمه استخفافا أو شماتة أو يحفل على العموم ما يتكلفه الناس ، مجاملة له ، من الوجوم وما يجرون به السنتهم من ألفاظ التعزية المألوفة التى لا تغنى ، وعبارات الاسف التى لا خير فيها على كل حال ولا قيمة لها ولا دلالة فى الاغلب والاعم ، فان أقل ما فى الامر أن الموقف لا يدعو الى الضحك ، واذا كان المرء لا ينتظر منك ان تحزن مثله ولا يطالبك بأن تشاطره حمل الهم ، فانه كذلك لا يتوقع أن تركبه فى ظاهر الامر وفيما يبدو له منك ، بالسخرية والاستخفاف ،

وعلى أن أثقل ما في الامر شعور الانسان نفسه بأنه - وهو في مقام الاكتئاب ، أو الاحتشام على الأقل - يضحك في غير فرح ويعجز عن ضبط أعصابه المضطربة والزامها ما يقتضيه الحال . والبلاء أن ادراك المرء لخروج أمر أعصابه من يده وافلات العنان من كفه يزيده عجزا عن ضبطها وكبحها ، وأحسب أن شعوره بهذا الافلات يزعزع ثقته بقدرته على جمع الاعنة بين أصابعه وشدها اليه ، ثم تعود الثقة - ومعها القدرة - شيئا فشيئا فيرجع الى حالته الطبيعية المألوفة . وليس في الموت ما يضحك ، وما أعرف شيئا هو أشد إثارة للنفس وأعظم ازعاجا لها من انقطاع الشعور بالذات ، أو أبعد على دهشة العقل من امحاء الشخصية بفضل هذا الموت . حتى حين يصيب ذاك سوانا من الناس - قرياء كانوا أو بعداء - يكون وقع الموت مرا . وخير ما يتمناه المرء لنفسه أو لغيره : طول البقاء في هذه الدنيا ، كأنما كل خير يجيء رديفا لذلك ، وإن كان الأغلب والارجح أن يكون الرديف لطول العمر صنوفا من البلى والوانا من الشقاء . والبقاء مهما طال محدود ، وإن المرء ليعلم أنه مهما امتد به الاجل ملاق حينه لا محالة . ولكنه يتشبث بالحياة ويتعلق بالامل فيها ويشق عليه أن يفارقها ، ولم أر قط في حياتي سوى رجل واحد خيل الى أنه يشتهي الموت ويروم أن يفر من الحياة ، وكانت آلامه أوجع من أن يحتملها الرجل العادي ولكنه ظل مطيقا لها قادرا على الصبر عليها كفؤا لمغالبتها وكتمان ما يعاني منها حتى خيب الله أمله في ابن له كان مرجو المخايل ، فتضعضت نفسه وتقوضت معاقل جلده ، وحملت عليه الاوجاع كأنما هي مخلوق حي فيه عنف وقسوة وحقد وله أظافر وأنياب ، فعجز عن المقاومة وتحلل المبرم من عزمه الذي كان يمسك به روحه وشاع الضعف والخور في نفسه وارتد تعلقه بالحياة زهدا فيها وكراهة لها ، وكان قوام عزمه الامل والذكرى فانتسخ الامل وصارت الذكرى من أجل ذلك لا تطاق ، وكان من قوله لي وقد رنقت فوقه المنية

« اننا في الحياة نبذر ونحصد - نزرع ونجني - فاذا فاتنا أن للحصد ما زرنا حين يربو ويهتز ، فاننا بعد ذلك نحصد ذوايا

أو مسمما ، ولسنا نعيش في الحقيقة وإنما نحن نحلم ، وقد شاء ربى أن يجعل حلمى حلما لا يمكن أن يحياه المرء • وكان ظنى أن يعوض ابنى كل خسارة ، ولم أكن أخشى الموت على شيء لما كان لى أمل فيه ، والآآن ... يجب أن أقتصد ... واسرع الى ماينتظرنى وأبغيه ... »

وكف عن الكلام وأخذ الاصفرار ينتشر من جفونه على وجهه وينسدل كالستار ، وخيل الى وأنا أنظر اليه وأراعيه وهو صامت مطبق الشفتين فى اصرار كأنما روحه جنين يريد أن يولد • وكانت عينه الى النافذة كأنما عند زجاجها العون الذى يبغيه ، وبدا لى من هيئة وجهه أنه يحاول أن يعزل نفسه عن الاوجاع التى تنتاب جسمه ، وإظن هذا قد وسعه ، فقد كأن يرخى عينه عن النافذة ويصوبها الى ساقبه ، وكأنهما لجسم غير جسمه أو كأنما كان يعتصر من آلام هذا الجسم الغريب راحة كالتى يشعر بها المحموم لامسته يد باردة •

ثم قال « لقد تغيرت - كيف ؟ لا أدرى ! ولكن أنفاس هذا التغير على وجهى كالنسيم ، وحرارته فى روحي كالشمس فى الثمرة التى لا تزال على غصنها ، وطعمه فى فمى وعلى شفتى • • ولا أحب أن أحرّم هذا الشعور الجديد • • كل ما لقيت وبلوت فى حياتى قد صار خيالا غامضا • ومتى آن أن أقضى نحبى فانى أحب أن يكون ذلك فى سلام وسكينة وأن أكون فى تلك اللحظة وحدى • لا أريد أن يرانى أحد وأنا أجود بأنفاسى • • • فذهبوا عنى واحسبونى ميتا من الآن • • • »

والايام هى التى تروض الانسان على السكون الى الموت ، ذلك ان المرء فى صدر حياته يكون فيض حيويته عظيما فلا يستطيع أن يفهم هذا الموت ولا يسعه أن يأنس اليه ، ولكن المرء يجف شيئا فشيئا وتنضب حيويته على الايام مع ارتفاع السن ، فتقرب الشقة ويتدانى ما بين الحياة والموت ويزول الشعور بالاستهوال والتنافى • ولم الاستهوال وقد جرب المرء فى نفسه موت الآمال والاهواء والرغبات ؟ والحياة وقعها تبليد ، وفكرة الموت لا تزال المرء أبداً

ولكنها فى الشباب تكون كأمنة فيما وراء الوعى ، ومع الاعياء والكلال والفتور تبرز الفكرة شيئا فشيئا وتتنسج وتنتشر ويزداد استيلاؤها على النفس والخطر ، فيألفها المرء من طول النظر إليها وان ظل بغريزته وبفضل شعوره بذاته نافرا منها ، ثم يذهب يغالط نفسه فى حقيقتها ويتصورها مجازا ومعبرا وغير ذلك ليقوى على احتمالها وليرضى شعوره بذاته وليسكن إليها .

وما أكثر ما تعابشنا الذاكرة ، ذلك اني كلما بسطت يدي لتعزية احد ، لا أزال أذكر حادثة وقعت لى وأنا فى السادسة عشرة من عمري أو حوالى ذلك ، وكنت فى ذلك الوقت تلميذا ، فتوفى بعضهم فى البيت الذى أنا ساكنه ، فلما عدت من المدرسة رأيت السرداق والمعزين والفقهاء على دكنه يتلو صورة من القرآن الكريم ، وكان الوقت شتاء والبرد شديدا فقلت أصافح جارى وأعزيه وأمضى الى مسكني بلا توقف أو تلبث ، وكان الجسار واقفا فى مدخل السرداق ، فقصدت اليه ومددت يدي مصافحا وقلت بصوت خفيض من فرط الحياء من هذا الموقف الذى لم آلفه :

« عقبال كل عام ان شاء الله (١) »

ولم أكن أقولها حتى عضضت لساني ، وارتج على فلم أدر ماذا أقول غير ذلك ، وارتبكت واضطربت وبلغ من سوء حالى أن ظللت قابضا على يد الرجل لا أدعها تفلت كأنما سمعت كفى الى كفه ، وهو ينظر الى مستغربا طول شدى على راحته ، ثم يعود فيهب يمدى ويتلفت كأنما يطلب نجدة أو يلتمس عوناً على هذا الصبى المجنون الذى تعلق بكفه كالقرد ولا يريد أن يتسخرى عنها ويتركها ، وأنا أفكر فيما قلت وأتصور فظاعته وأخشى أن يكون قد سمع ولا أجرؤ أرفع وجهي اليه مخافة أن أقرأ فيه آيات الاستبشاع والمنقمة ، ولا أعرف ماذا أصنع وبعد لاي ما خلصت يدي من يده - خلصها هو بنزعة قوية مبالغتة كادت تطرحنى على الارض ، فاتقيت الوقوع بالاتجاه الى الباب ، فلما بلغت رحت أعدو .

١ - عقبال عاميه وأصلها عقبي لك أو له الخ

وليس « عقبال كل عام ان شاء الله » بالذى يتعمناه الانسان
فى مثل هذا المقام ، ولكنها كلمة تمثل الواقع الا تكن أمنية لائقة ،
فما تدور الاعوام بغير هذه المنايا الدائبة ، واذا كان اللسان قد
غلط فقد أصاب الهام الوجدان .

وحادثة أخرى أذكرها فى هذه المواقف . فقد كانت لأمى عمة
تقيم معنا بعد وفاته ، وكان عندى « قفطان » جديد أبيت الا أن
يكون لى ، لغير علة مفهومة ، فما كانت « القفاطين » مما ألبس أو
يلبس التلاميذ ، وأحسبها نزوة صبيانية ، ولم تشأ أمى ان تخيب
رجائى فأجابتنى الى ما طلبت وحققت لى أملى ، فلما صار عندى
القفطان أهيمته ولم أرتده ، حتى ماتت عمة أبى وتوافد المعزون
على فناء البيت وكان رحيباً - أعنى الفناء - فذكرت القفطان الجديد
المحمل الذى لم أضعه مرة واحدة على بدنى الا يوم قسنته وهو
يفصل ، فأخرجته من خزانته ولبسته وجعلت أخطر فيه مزهوا به
بين الناس كأتى فى عرس لا فى مأتم

ولست أدري لماذا لا تخطر لى الا هذه الحوادث الصبيانية كلما
لقيت محزوناً ، وصحيح ان الشئ يذكر بالشئ ، ولكن لماذا لا يذكر
بغير ذلك مما لعله أكثر مواءمة لمواقف الاسى وأشبه بما يتطلبه
المقام ؟؟ أحسب جواب ذلك يحتاج الى العلم بما تجن النفس فيما
وراء الوعي . وأين من يستطيع أن يثنى عينه الى هذا الكهف ويدير
نظره فى ظلامه على ما فيه ؟؟

فى الحلم

كان هذا منذ عشر سنين ، ومع ذلك تذكره كأوضح ما كان ، وترويه كأنه ما تراهى لها الا البارحة ، ولا تصنع ما يصنع سواها من بنات حواء فلا تذهب تزيد عليه ولعلها تنقص منه ، فقد كان يعوزها الخيال المسعف ، ولم يفتّر تعجبها منه على رغم السنين والاعادة المذيلة ، فهو عندها أبدا طريف مصقول لا تكبو له لمعة ، غير أنها - وإن كانت لم تمل القص ولم تسأم التكرير - لا تتطوع لذلك ولا تأخذ فى حديثه حتى تسألها ، وربما احتاج المرء أن ينبه احساسها ويوقظ شعورها ويهز نفسها ليحييها قبل أن يجرى لسانها بكلام فى حلمها القديم ، فقد أذوتها الايام وأذبلها طول ماتأيمت وتعتت ولم يبق لها شئ رايا رفافا سوى حلمها ومخلوق خيالها الذى بدا لها فيه .

وكانت يومئذ قد شارفت الاربعين وتخطتها أخواتها الصغريات وخلفتها عند أبيها تريكة لا خاطب لها ولا طالب ، فأيسسها الفقر الى الذى لينهن ، ونضب ما كان يترقرق فى وجهها من نضرة ، وجف عودها ونشف ، وصارت ممصوفة كأن بها داء يخامرها ، ولاذت بالتستر واشتد تحجبها وآثرت العطل ، وامتنعت عن التزين والتطيب ولم تعد تتخذ الا الحناء تخضب بها قدميها . والا المكحلة والمشط ترجل به شعرها قبل النوم وفى الصباح . ولم تكن قارئة ، فوقتها تقضيه - بعد الفراغ من أعمال البيت - فى وجوم وسهوم ، حتى تنقذها منهما زائرة من صواحبه أو قريباتها

وكانت ، ليلة الرؤيا ، قد أوت الى مخدعها قبيل منتصف الليل بقليل ، فقد كانت صغرى شقيقاتها وزوجها عندها فطال الحديث ، فلما انفض السامر بدا لها - زيادة فى الحفاوة بهما - أن تعد فى الليل ما يحتاجان اليه فى الصباح ، ثم دخلت غرفتها وانحطت على كرسى أمام مرآتها لتمشط شعرها وكان مغلغلا يحتاج الى تسريع

كثير وتبذل لتخف جعودته على المشط ويسترسل بين أسنانه .
وكانت تفكر فيما أسرت به أختها إليها ، فقد دخلت عليها المطبخ
وأنبأتها بصوت خافت أن أخا زوجها الأكبر قد مل العزوبة واحتاج
إلى من تتعهد له بيته وتدبر شؤونه وتعفيه من هذه التكاليف التي
لا يصلح لها الرجال ، وأنها أوعزت إلى زوجها أن يشجعه ويلفته إلى
أختها أي إلى صاحبته فوعد وبر وأنجز يوشك أن يكون ما فيسه
الحير إن شاء الله .

فلم تجب المسكينة بحرف ، وعقل لسانها الحجل ، وألقت إلى أختها
نظرة فيها من الشكر والحزن والسرور والالام معان ، وكانت أختها
ذكية ففطنت إلى ما يضطرب به صدرها وأمسكت عن الاسترسال
وقامت عنها وخلفتها لحواطرها ، فلما صارت المسكينة وحدها في
غرفتها وأمنت أن لا يزعجها أحد ، جعلت تنظر في المرأة الصفيhle إلى
صحيفة وجهها وما شرع الزمن يخط فيها ويجرى عليها ، ثم تنهدت
ونهدت فاستلقت على سريرها .

ورأت في الحلم أنها ما زالت أمام مرآتها تصلح شعرها وتسويه ،
وقد انقلب بقدرة ربها فينانا ، كما ارتدت هي فتاة لبقة رطبة العود
حسنة الدلال ، وكانت ساعة بدت لنفسها هكذا تتلفت باحثة عن
أنشطة ارجوانية لضفرتها وإذا بعينها تقع على فتاة تراهق العشرين
وضيئة الطلعة ربا الجسم ، في منامة (بيجامة) قرمزية مخططة تبدو
فيها كاسية كعارية ، وفي يمينها - بين اصبعين - سيجارة وهي
جالسة على كرسي وقد وضعت ساقا على ساق ، وراحت تنفخ الدخان
في اطمئنان وتراعيه وهو يتلوى ويصعد ثم يشيع في جو الغرفة
ويعقد فيه مثل السحابة الرقيقة .

فانتفضت قائمة وصاحت بمن حسبته غلاما :

« كيف جئت إلى هنا ؟ »

فتنت الفتاة إليها جانب وجهها وقالت :

« ألا تعرفين من أنا ؟ ابنتك ! »

وأدنت السيجارة من شفثيها الرقيقتين وقالت وهي لا تنظر إليها:

« كيف لم تعرفنى وأنا بعضك ؟؟ ولكنك لم تجيئى بى بعد ، فلك العذر »

فقدت « الام » وقد أراحها ان الجالسة فتاة لافتي ، واستغربت انها لا تستغرب ، وان انكارها فاطر لوجود هذه الفتاة المتبرجة الطوايف بالليل فى بيوت المحصنات .

وسمعت الفتاة تقول « انك أمى - أعنى بحسب ماسيكون - وأنا ابنتك المنتظرة . ساكون هكذا (وأسالت على جسمها نظرة وإشارة يبدئها) بعد عشرين سنة من ميلادى .. كما تريننى الساعة .. ألا اعجبك يا أمى ؟ »

فصرخت « الام »

« امك يا واحة يا قليلة الحياء ؟ اتستمعنى ؟ »
فابتسمت الفتاة وقالت

« لا موجب للغضب يا حبيبتى . ويجب أن تروضى نفسك على سعة الصدر وطول الاحتمال ... ولا بأس من الايضاح فان النبأ مفاجئ . والزياره مباغتة . كل ما أعنيه يا حبيبتى انى ساكون بنتك بعد أن تتزوجى ... تتزوجيه .. حسن افندى ... هيه ؟ »

فعدت الام تصيح

« كيف تجرئين على هذا الكلام ؟ »

وراعها أن هذه الفتاة الغريبة غاصت على أخفى ما فى خاطرها واستخلصته وأبرزته لعينيها . غير أن هذا لم يسؤها وان كان قد أدهشها العلم به والكشف عنه . وشردت وهى تفكر فى هذا وتمعجت ، وتذكرت النبأ الذى همست به اختها فى أذنها فى المطبخ ، غير انها استقبحت جرأة الفتاة على كل حال ، وكأنما أدركت الاخرى هذا كله فقالت :

« لقد نسيت انك من جيل سابق عتيق الآراء ... »

فقاطعتها الام بسؤالها عما تعنى فقالت على سبيل التفسير

« ان جيلنا ياحبيبتى لايعرف هذا الحياء الكاذب ولا يخجله الكلام فى المسائل الجنسية »

فبدأ على الام انها غير فاهمة ، وهزت الفتاة رأسها وقالت :
« لاأدرى كيف أقول ؟؟ انك ياحبيبتى جاهلة جدا لاتعرفين حتى مبادئ القراءة »

ونفضت تمشى أو تخطر ، ويمناها فى خلاصرتها ، وكان الثوب محبوبك التفصيل منسجما على بدننا الرخص لاصقا به ، فبدت خطوط جسمها ومجانيه ، وبان ما أشرف من الصدر والظهر ، ولم يخف ما أطمأن ، فكأنه ملبوس للتعرية لا للستر والكسوة ، وكانت (الام) تتبعها بنظرها وهى ذاهلة ، ودنت الفتاة منها وراحت أطراف أصابعها على كتفها وصمت بكلام ، غير ان الام نحتها عنها وهى تقول:

« ألا تسترين ذراعك ؟ انى أخجل أن أنظر الى عريه ! »
فابتسمت الفتاة ابتسامة العارف المتسامح وقالت :

« ماذا يخجلك من العرى ؟؟ هل فى الجسم الانسانى عيب ؟؟ ان كل مافى الامر أن طول الستر يجعلكن تستغربين الكشف . على انك ستألفين ذلك شيئا فشيئا ٠٠٠ على الايام . . . ولا تعودين تنكرين سلوكى أو تستقبحين مظهرى ٠٠٠ وسترين أن كل بنات جيلنا وأبنائه هكذا . . . لافرق بين فتى وفتاة . . لاخجل من الطبيعة ، ولا خنق لغرائزها باسم الكاذب ولا انكار لوحياها ، ولا تشويه لسننتها ولا افساد لقوانينها بدعوى الاصلاح والكبح ، وقد تعلمين ان الاعتراف بالحقائق الطبيعية يجعلها مألوفة ويفقدنا السحر الذى تحسونه فى جيلكم ، فلا يبقى موجب لتكلف الكبح لانه لااسراف هناك ولا جماح . . . ولكنى أتكلم بما لاتفهمين ، فمعدرة . . . ستألفين مظاهر هذه المعانى كلها وان بقيت - لاتفهمينها . . . »

فقالته « الام »

« ولكن شعرك ؟؟ أعلام أنت حتى تقصيه هكذا ؟ وهذه السجاير أيضا ؟ انى لاأكاد أطيقك ! بنتى ! تقول انها بنتى ؟ لو كنت بنتى لحققتك »

فضحكت الفتاة ضحكة اهتز لها كيانها كله وقالت •

« وما الفرق بالله بين الفتى والفتاة ؟؟ انه فرق في التفاصيل لافي الجملة وفي الفروع لا الاصول ، وفي المظهر لافي الجوهر • لقد مضى الزمن الذي كانت فيه الفتاة للحمل والوضع ، والفتى للسعي والكسب • وانا لنحمل ونضع ، لكن هذا بعض ماتقتضيه الحياة المشتركة ، وليس هو بوظيفة تقتصر عليها المرأة من بنات جيلنا ، والرجل شريكهما وعونها في ذلك حين يريدان النسل ويطلبانه ، وهي شريكته وعونه فيما عدا هذا أيضا ، فلماذا يكون لكل منالباس خاص ومظهر منفرد ؟؟ أما الدخان فاني آسفة اذا كان يضايقك ، وساعلمك التدخين بعد أن أجيء الى الدنيا وأكبر ، فعليك أن تحتلمي الان ماوسعك الاحتمال »

وتلفتت كأنما تبحث عن شيء ثم قالت بلهجه الاسف :

« تمسيت لو أن عنك قليلا من النبيذ أو الشمبانيا •• ولكن جيلك لاعهد له بهذه الاشربة ، ومن يدري ؟ لعلك لاتعرفين حتى أسماءها لاباس لاباس • ولكني أتكلم وحدى كأنما أحدث نفسي • أفلا تقولين انت شيئا ؟ هيه ؟ »

فلم تدر « الام » ماذا تقول ، وأحست باشمزاز يخالطه حنان ورقة لهذه الفتاة العجيبة ، وهمت بأن تدفعها عنها ، غير أن شيئا عصر قلبها فمسحت لها رأسها وهي تستغرب من نفسها هذا الحنو، فقالت الفتاة :

« هذا أحسن • يظهر أن الامل كبير في أن تصفو لي الحياة معك • وإذا استطعت أن تجنبي الجدل السخيف وأن لاتحاولي صد تيار الحياة ، فانك خليقة أن تصبحي فخر الامهات • وعلى ذكر ذلك أرجو أن تسرعي ، فحسبك انك أبطأت على كل هذا الزمن • »

فلم تفهم « الام » وسالتها

« عن أي شيء تتكلمين ؟ »

فقالت الفتاة « كنت أرجوك أن تعجلي فقد مللت الانتظار »

فعادت الام تقول :

« انتظار أى شىء ؟ لست أرانى أفهم شيئا »

فقالت الفتاة

« انتظار ولادتى الا تفهمين ؟ انى لم أولد ولم أوجد . . . لم أخلق . . . وقد سئمت . أتحسبين أنه يروقى أن أظل سنة بعد سنة متاهبة مستعدة للانحدار الى الدنيا وملاقة ماينتظرنى فيها ، ثم تمضى السنوات واحدة بعد واحدة ، وأنا لا ادعى ؟ أتظنين أن من الهين أن أحبس عباب الحياة الزاخر فى نفسى والذي يريد أن ينطلق؟ » ونظرت الى الساعة المعلقة ثم قالت

« لقد أذهلنى الكلام عن الوقت ، فيحسن أن أنصرف ، فأوصيك بالاسراع ، فان الانتظار ثقل على نفسى »

واتجهت نحو الباب فدفعت «الام» ذراعها وراءها لتمنعها من المضى وتسبقيها ، ولكنها صادفت عمود السرير فانتبهت على ألم ، وأقبلت تتلفت وتفرك عينيها ، ولكنها لم تر شيئا . فقد ذهبت فتاة حلمها - كما جاءت - ولم تعد بعدها ، لافى الحقيقة ولا فى المنام

رجل غريب

لهذا الرجل قدرة نادرة على مايسمونه « قراءة الافكار » ، ولست أعنى أنه ممن يشتغلون بذلك ويدجلون أو يشعوذون به ، فلعنه لا يدري أن له هذه الموهبة ، ولو درى لكان الارجح فى الظن أن يبدى للناس من آيات قدرته أكثر مما يخف عليهم حمله ، وانما أعنى أنه يكون معك فيباغتتك بالرد على مايدور فى خاطرك أو الاشارة الى مايهجس فى نفسك . كنت مرة مدعوا الى حفلة استقبال ، وليس أبغض الى ولا أثقل على نفسى من أن أرانى فى حشد كبير من الناس ، ولا أعرف سببا لهذا النفور ، ولكنى أحس - اذا جالست قوما فيهم من لا أعرف كان يدا تأخذ بمخنقى وتضغط ، فلا أزال أفكر فى الهرب وأحتال للفرار حتى أجد السبيل اليه ، وفى هذه المحافل يكثر التكلف والتصنع ، ويقلب الدهان والمنق ، والتألق والترقق والتطرى والتظرف ، ولا سيما اذا كان المجلس « تزيينه » المرأة . فترى الرجل يتثنى ويتلوى ، ويلج فى الابتسام السخيف ، ويحاول أن يبدو للمرأة أصغر وأرشد وألطف ، ويتحرى أن يكون كلامه موافقا لأن يكون صحيحا أو صادقا ويزيد المرأة غرورا بنفسها بالثناء الكاذب عليها وبالضحك المتعمل كلما فتحت فمها بما تظنه فكاهة ، ويتحجب الى العجوز الحمقاء من أجل فتاتها الحسناء ، ويتملق الزوج ويظهر له الصداقة المفاجئة ليضمن أن يرى زوجته مرة أخرى ، أو أن يدعى الى بيتها ، أو أن يرافقهما وهما خارجان ، وعلى الجملة يخيل اليك فى هذه المحافل أن المرأة هى محور الوجود وقطب الرحى فى الحياة ، وأن لا عيش الا بها ، وأن الدنيا لم تخلق الا لها ، وأن الرجولة فضول ، وتنخدع المرأة بذلك وتسلس من عنانها وتواتى الرجل ، فاذا به يفتر عما كان يعالجها به من الحديعة ويحاورها ويداورها به من الكذب والملق والتلطف ، ويضمن بما كان يكيه لها ويغدقه عليها من الفاظ التحجب وعبارات الثناء والاعجاب . فلا أدري أيهما أحق بالاحتقار : سفالة الوسيلة الى المرأة أم غفلتها هى : قبح الله الاثنين .

على أنى كثيرا ما قلت لنفسى أن لا داعى للنفور من مثل هذا الحال
فإن الجمال سلاح المرأة فى الحياة ولا سلاح لها سواء ، ولا جمال فيما
يحس المرأة إذا لم يكن ثم اعتراف به وإقرار له ، فبالمرأة حاجة إلى هذه
«المظاهرة» من الرجال ، وخير الاعتراف وأوقعه فى النفس ما كان
على ملأ من الناس ، وأبلغ ما يكون وأعمقه أثرا فى نفس المرأة إذا
شهدت الاعتراف امرأة أخرى ، ولكنى مع ذلك قلما وجدت لى صبرا
على تملق المرأة ولا أعرفنى قط أنيت عليها فى وجهها

ونسيت أمر الدعوة ، واتفق مع ذلك أن ذهبت زائرا ، فإذا ضجة
عظيمة ، فتذكرت ، وعجبت للاعيب الذاكرة ، فأنسى أنى مدعو
إلى حفلة ولكنى مع ذلك أحس دافعا قويا إلى أداء الزيارة وقد دخلت
متباطئا ثم وقفت فى زاوية أنظر وأفكر فى وسيلة للخلاص ، فلم
يفتح الله على شىء ، وأقبل الخادم على وكان يعرفنى ولا يخفى عليه
كرهى لهذا الزحام ، فحيا وسألنى « هل أجيتك بالشاى حيث أنت؟
أم تفضل عصير الليمون ؟ »

قلت « لا هذا ولا ذاك . ولكن دلنى على طريقة أنجو بها »

قال « سيدتى لا تعلم أنك هنا »

قلت « أما من طريقة أخرى غير الانسحاب ؟ »

فهز رأسه وابتسم ، فصرفته وقلت إن الشجاعة نصف الظفر
وتقدمت لتحية السيدة ، وكانت جالسة وفى يدها مروحة وحولها
رجال تحدثهم وسيدات يصغين ، ولم أجد فراغا أنفذ منه إليها على
قلة ما احتاج إليه من ذلك ، فوقفت وقد عاودنى خاطر الانسحاب
فاذا بالرجل الذى أشرت إليه يضع يده على كتفى ويقول :

« انها لا تراك فأهرب إذا شئت »

ولم يكن وجهى إليه ، فلعله قرأ ما يدور فى رأسى مسطورا على
قفاى !

وحديث هذا الرجل متعب ، لأنه دائم التنقل أو التوثب من
موضوع إلى موضوع وقد تلقاه فينسى أن يحييك ، ويغفل الرد على

تحيتك ، ويخوض معك في الحديث الذى يريد ، ثم يقطع الكلام ويحيى ويصافح ، ثم يستأنف الحديث من حيث انقطع أو يطرق موضوعا جديدا .

لقيته مرة فلم يعبا بتحيتى ولا جعل باله الى يدى الممدودة لمصافحته ، فهوت - باردة - الى جنبى ، وقال :

« هل وصل الى مصر كتاب المستر ويلز الجديد «صورة ما سيكون» ؟ ان هذا الرجل جامع الخيال ، وأرى كتبه لهذا ممتعة وان كانت تدير الرأس . وعلى ذكر ذلك نهارك سعيد - كيف حالك ؟ »

ومد يده للسلام على ، ولا أعرف أى شىء فى ويلز أو كتبه اذكره بما كان ناسيا من ذاك ، ولكنه هكذا أبدا ، ولم ينتظر جوابى فمضى يقول :

« لك جار هنا لا بأس به ، فاذا شئت فلنزره معا ٠٠٠ فى وقت آخر ٠٠٠ لا تصدق يا صاحبنى ان من الممكن أن تقوم حرب جديدة ٠٠٠ ان هذا بعيد جدا فما أفاقت الامم من الحرب الكبرى ولا نسيت أهوالها وزلازلها »

واظن هذا رجوعنا منه الى موضوع ويلز الذى يتنبأ بحرب أخرى . وتلك عادة صاحبنا : يترك الموضوع ويثب الى سواء ثم يعود اليه فجأة وبلا مناسبة ظاهرة ، فانت معه فى عناء دائم لأن عليك أن تتابعه من غير أن تنسى ، وأن تكرر معه حين يكر آيبا الى ما ترك . وقد يغيب عنك أسبوعا أو شهرا أو عاما فاذا لقيك استأنف الكلام من حيث تركه آخر مرة ، وهو يتوقع منك أن تكون معنيا مثله بما يفكر فيه مسائرا له فى التفاتات ذهنه ووثبات خاطره .

كنت مرة أتمشى على جسر قصر النيل كما كان يسمى قبل أن يبنى الجسر الجديد الذى يدعى الآن كوبرى إسماعيل ، وكان معى صديق لى ، فاذا بصاحبنا يعدو إلينا من الأفريز الآخر وهو لا يبالي السيارات المتلاحقة حتى اذا صار أمامى قال بلا تمهيد أو ايضاح

« خمس سنوات ومائة ٠٠ حسبتها . »

وكرر راجعا الى الافريز الثاني حيث وقف اخوانه ينتظرونه
ولم يكن صديقى يعرفه ، فنظر الى بعد أن أطلال النظر الى ظهره
وهو يولى عنا ، فقلت له مفسرا

« ان به بعض الشذوذ ، ولا شك انه يشير الى حديث سابق لنا
ولكنى أنسيته وبقي هو يذكره فلما رأنى أحب أن يلقي الى نتيجة
هذا الحساب »

وليس له فى الثياب أى ذوق ، فهو يضع على بدنه ما يجده ،
وكثيرا ما يتفق أن يكون البنطلون من بذله والجاكته من أخرى
والصدرية من ثالثة ، فما يحفل هذا الاختلاف ، وقد ينسى ربطة
الرقبة فاذا نبهته لم يكثر ، وله أخ يشكو منه انه دائم الغلط معه
فى أمر الثياب ، فقد يجد بذله لأخيه فيلبسها له ، وكثيرا ما سطا
على أحذيته غير متعمد ، وقد رأيت مرة لابسا جوربين مختلفين ،
فابتسمت ولم أقل شيئا ، وربما لبس سترة ردنجات على بنطلون
أبيض ، أما طربوشه فليس له وضع معروف ، ولا استقرار له أبدا ،
فتارة يكون مائلا الى اليمين وتارة أخرى الى الشمال ؟ وطورا يرده
الى الورا وزره الى الامام ، فاذا حطه عن رأسه - وكثيرا ما يفعل
ولا سيما حين يجلس - فان أصابعه لا تكف عن العبث بخيوط الزر،
حتى لقل أن يبقى منها سوى خيطين أو ثلاثة .

ولم يتزوج قط لأنه قليل الصبر على المرأة شديد المقتلها ، وأين
المرأة التى تستطيع أن تعاشه ؟؟ ومع ذلك يضطرم وجهه ويلمع فى
عينيه نور البشر اذا أطرته امرأة !! وهذه النقائص التى لا أعرف لها
تعليل يستريح اليه العقل ، ومن غرائبه أنه مشغوف بالأطفال الذين
لا يتجاوزون الخامسة من العمر ، وما لقي فى طريقه طفلا الا وقف
يلاعبه ويضاحكه وقل أن يتركه من غير أن ينفحه بقرش أو يدع له
منديله بعد أن يجعله على صورة الارنب ، أو يخرج من جيبه ورقة
- أى ورقة ولو كانت لازمة - يصنع منها زورقا أو مدفعا أو غير ذلك .
وقد عرفه الاطفال فى حية وأحبوه ، فهم أصدقاؤه ، وأسعد وأصفى
أوقاته هى التى يقضيها مع هؤلاء الصغار الذين يسميهم « عصفير
الجنة » فاذا ذهب الى بيته أقبلوا عليه وتعلقوا به ودخلوا معه .

فيعطيهـم مما عنده يلاطفهم ويداعبهم • وما أظنهم يطيعون آباءهم كما
يطيعونه • وليس أبغض إليه من البكاء • ولهذا زجر أطفاله عنه •
وعودهم أن يحتكموا إليه كلما شجر بينهم خلاف أو اعتدى منهم واحد
على الآخر ، وآباؤهم يعرفون ذلك ويرضون عنه • وقد اتفق مرة
إن لقيه والد أحدهم فاستوقفه ليشكره • فلم يكذ يسمع الكلمات
الأولى حتى انصرف عنه

ضارة نافعة

«لو علم أحدكم الغيب لاختار الواقع» .

أى والله يا سيدي !

ولكننى لا أعلم الغيب ، ولم يكن لى فى الامر خيار ، ولوانى كنت مخيرا وكان لى رأى أو ارادة ، لاثرت أن أقضى ليلتى تلك أغط فى نوم عميق لا حلم فيه ، فان «كل نومة وتمطية ، أحسن من فرح طيبة» كما جاء فى أمثالنا الحكيمة ، ولا أعرف من يكون «طيبة» هذا أو هذه ، فما سبق لى أن تشرفت بمعرفته أو رؤيته ، ولم يقسم لى أن أشهد «فرحه» ولكن الذى أستخلصه مما حكوا عنه أن «فرحه» كان هائجا مائجا كليتى تلك

وكنت فى نهار ذلك اليوم المنحوس قد أغرائى الشيطان الذى أطلقه تمرده علينا ، بأن أستحم فى البحر ، وأنا كما تعلم ، أو لا تعلم ، أكره أن أكون فيه - أى فى البحر - وأن كنت أحب أن اركبه ، فما أحسن من السباحة سوى الغوص ، كقريعى المسكين ابن الرومى ، وأنا فيه - أى الغوص - أبرع وأسرع من حجر . فاشتريت ثوب استحمام أزرق ، أعنى أن الثوب هو الذى كان أزرق ، ونزلت الى الماء ممسكا بالحبال وغطست غطسات وجعلت الحبل تحت ابطى ورحت أضرب برجلي ويدى وأقلد السابحين الذين كانوا فى الماء كالسمك ، وكان فريق منهم يتقاذفون كرة فجعلونى هدفا لها ، وكأنما كان لهذه الكرة العظيمة عينان ترى بهما ، فما أخطأتنى قط ولا مرة واحدة ، وكأننى بها لم يعجبها أنفى فقد كانت بادية العناية بتسويته ورأيت قطرات من الدم النازف على وجه الماء فقلت أرجى بقية العلاج أو الاصلاح الى يوم آخر ، وارتددت الى اليابسة ، وارتقيت على الرمال البليلة وأنا ألثت حتى اذا استرحت وانتظمت أنفاسى ، قنعت بأن أستحم بعينى ، قياسا على دفع المنكر بالقلب اذا عز دفعه باليد أو العصى أو الرصاص .

وكانت قبالتى فتاة مصرية رشيقة تحدث شايبا غير رشيق ، وكنت مصروفا عنها بما أصاب أنفى من الكرة ، ولكنى سمعت الفتاة تقول كأنما فى صحراء مقفرة

«أترى هذا المخلوق . . انى لم أر فى حياتى أقبح من وجهه . . .»
فقال مقاطعا

«اسمعى . ان هذا لا يليق . . فقد يسمع . . .»
فقالت

«يسمع ؟؟ من هو الذى يسمع ؟؟ أمن أجل أن له أذنين طويلتين كأنقاب الحمير ، تظنه يسمع ؟؟ ومع ذلك أنا واثقة أنه غير مصرى . . .»
ان هذه السحنة المنكرة لا يمكن أن تكون لمصرى

ولم يكن هناك غيرى فى دائرة قطرها فرسخ ، فلاشك انى كنت المعنى بهذا الثناء الجميل ، وسمعت بأن أرفع يدي الى أذنى لارى ماذا فعلت الكرة بهما حتى بططنهما وأصارتهما كأنقاب الحمير طولا ، ولكنى ذكرت أنى فيما ترى الفتاة غير مصرى ، واشتقت أن أعرف بقية مزاياى التى خفيت عنى .

وقال الشاب محتجا

«ولكن مالنا وماله ؟ انه لا يعنيننا ، ثم انك قد تكونين مخطئة ، أعنى قد يكون مصرىا فان لونه أسمر»

فقالت « أسمر ؟؟ تقول أن لونه أسمر ؟ أعوذ باقى ! هذا لون النحاس علته من الصدى طبقات سميكة . . . وتأمل أنفه ! يا حفيظ . . . هذه ظلمة . . . أوه . . وانظر الى ساقيه . . أى حق لانسان فى أن يكون له مثل هذا الجسم الدميم ؟؟»

فقال الفتى « ولكن ياتوتو هذا عيب . . ليس لك حق . . ثم انه ليس دميما الى هذا . . . »

وأقول أنا الحق ، لقد أحببت هذا الفتى المنصف ، وأذهلنى إعجابى بادبه ومروءة نفسه وكرم روحه عن حركات الحقد التى هاجت فى

صدرى على هذه الفتاة ، وودت لو ظلا يتكلمان وأنا أسمع ، فان صوت
العدل خفيض فى هذه الدنيا ، ولسانه قطع ، ولكن الفتى جذبها وهو
يقول

«تعالى ... تعالى ...»
وعضى بها -

وما كادا يقييان حتى عدت راجعا الفندق ، فرميت ثوب البحر
وارتديت بذلتى ثم أردت أن أصلح شعرى المنفوش فتظرت فى المرأة .
لقد كانت الفتاة على حق ، وكنت أنا ظالما لها متجنيا عليها ، فما
عدت أعرف وجهى بعد ان غيرت الكرة معاله وتكرت معارفه .

ولم يمنعنى هذا أن أخرج وأن أجوب المدينة وأجالس الاخوان
واسامرهم ، الى ما بعد نصف الليل ، ثم عدت الى الفندق فلم أر أحدا فى
إبهائه فقصت الى المصعد ودخلته وانى لاهم بأن أغلق بابه واذا بفتاة
تدخل ورائى مسرعة وهى تقول

«خذنى معك ... انى فى الدور الرابع»
ولم أكن أضأت النور فى المصعد ، فلم أر وجهها ولكنى عرفت
صوتها فارتعت ، وتنحيت لها حتى دخلت وجلست ثم أوصلت اليا ب
وضغطت الزر وأنا أقول «أنا أيضا فى الدور الرابع»

وتحرك المصعد ، وأنا واقف ووجهى محول عنها ، وفى مامولى أن
تخرج من غير أن تلتفت الى ، غير أن النحس كان ملازمنى فى يومى
ذاك ، فوقف المصعد فجأة قبل أن يبلغ عتبة الدور بأكثر من متر ،
فلا هو بلغها ولا هو وقف عند دور آخر ، وكنت قد تركت المصباح
الكهربائى مطلقا ، فقالت :

«ماذا جرى ؟؟»

قلت «لا أعلم ... انه على ما يظهر ...»

قالت «على ما يظهر ؟؟ ماذا معنى ؟ هل عندك شك ؟»

قلت « كلا ... انما اعنى ... »

قالت « أين زر المصباح ... ان هذا الظلام لا يطاق »

قلت « لا أعرف مكانه ، ثم انى أعتقد انه ليس هنا مصباح ... »

قالت « لا تكن غيبيا ... أنر المكان واجلس لنفكر فيما يجب أن نصنع »

قلت « ان الواجب علينا الان أن نعمل لا أن نتكلم ، وأنا أقترح ... »

فقالت مقاطعة

« اجلس أولا فانى لا أستطيع أن أحادث ظهرك »

قلت « هو خير من ... وجهى »

قالت « من هو ؟ »

قلت « ظهرى »

قالت « ظهرك ؟ ماله ؟ »

قلت « نعم »

قالت « ماذا تقول ؟ ما خطبك ؟ »

قلت « أأ ... لا أدرى ، ولكنك على حق ... »

قالت « ايه ؟ على حق ؟ فى أى شىء ؟ »

قلت « فيما قلته عن وجهى ... »

قالت « لست فاهمة ! »

قلت « أعنى انه دميم ... مرعب ... الى آخره ... »

فنهضت وأتارت المصباح ونظرت الى ثم صاحت « أوه ! »

قلت « لقد أنذرتك ... »

قالت « لم أكن أعلم ... »

قلت « صدقت ... ولا أنا ... »
قالت « انما أعنى انى لم أكن أظن انك ... »
قلت « بالضبط ... انه ليس وجهى ... قد يكون فطيرة ...
ولكنه ليس وجهى ... لا يمكن أن يكون وجهها ... »

قالت « ألا تجلس ؟ » انى آسفة جدا ... واعتذر ... باخلاص
لم يخطر لى انك مصرى وأنت سمعت كلامى . أوه ... انى كنت
فظيعة »

قلت « بل لك العذر ، وقد وافقتك على كل حرف لما نظرت فى
المرآة الى ... الى ... هذا الذى كان الى الصباح وجهها واضح المعارف
جلى القسمات »

قالت « أوه ... مسكين ... لشدة ما قسوت عليك ، فهل تصفح
عنى ! ؟ »

فوئب قلبى وثبتت ، وداردورتين وصعد الى حلقى تم ارتد الى مكانه
بسرعة ، وقلت

« اصفح ؟ انى أنا المحتاج الى غفرانك ، فما كان يليق أن أفسزع
الناس بمثل هذا الـ ... ولكن عذرى انى لم أكن أراه ... »

فعدت تكرر الاعتذار ، وجلست وأجلستنى الى جانبها ورأيت أن
أنقل الحديث الى موضوع آخر يكون أرفق به وبها فقلت

« والآن ماذا نصنع ؟ لقد كنت أريد أن أقترح أن نقف ونصيح
— معا — صيحة واحدة قوية توقظ من فى الفندق جميعا ليدركونا
ويخرجونا فما قولك ؟ »

قالت « فكرة ... ولكن ؟ ... »
قلت « اذا لم نصنع شيئا كهذا فالارجح أن نقضى الليل فى هذه
الحزانة الضيقة »

قالت « صحيح ... ولكن الصياح ... ألا توجد طريقة
أخرى ؟؟ »

قلت « لست أرى بديلاً من اقتراحى سوى تسليم الأمر لله »
قالت « ولا أنا ... على فكرة ... وقبيل أن أنسى .. أنا
اسمى ... » وتسمت ، فقلت

« وأنا اسمى تعرفينه ... ذو الوجه المبطل »
قالت بصوت عذب « لا تقل هذا ... أرجوك ... انك تؤلمنى »
قلت « لا كما يؤلمنى هو .. ولو كان خصمى انساناً لجعلت وجهه
حذاء ولكنه كرة »

وقصصت عليها ما كان ، وصارحتها بأنى كنت حينما سمعتها
تخلع على هذه النعوت البديعة أريد أن أذبحها بأظافرى وأن أشرب
من دمها فقالت « والآن ؟ »

قلت « أخشى ! »
قالت « تخشى ؟ »
قلت « نعم ... لا أزال أطلب دمك ... »
قالت ضاحكة « ولكنك سامحتنى .. ألم تقل انك صفحت
عنى ؟ »

قلت « عما كان منك فى الصباح ... نعم ... »
قالت « وهل فعلت شيئاً آخر ؟ »
قلت « نعم ... فان دمي فى عنقك »
فضحكت وقالت « أوه ! آه ! هذا ! »
فقلت « والآن .. ألا يحسن أن نصيح ؟ »
قالت « نصيح ؟؟ أوه ! آه ! ولكن لماذا لا تريد أن تعرفنى من
أنت ؟ »

قلت « اشفاقا عليك يا فتاتي • وعلى نفسي • فاني أخاف أن أزيدك
نفورا ولكن ذنبك • فاعلمي اني أدعى • • • »
قالت « الآن قم لنصبح • • • »
وأقمنا القيامة • وأنقذونا بعد ساعة أو نحوها
وقالت « توتو » هي تصافحني
« ما صداقة الا بعد عداوة • • • أليس كذلك ؟ »

ليلة ولا كاليالى

منذ آلاف من السنين ، أو بحساب التقاويم ، منذ خمسة وعشرين عاما - فما ثم فرق بين الامس وعهد نوح - كنت أسكن فى أعلى طبقة من بناء شاهق ، وكان الوقت صيفا ، فخرجت الى احدى الليالى مع بعض الاصحاب الى قصر النيل وركبنا زورقا محقين عدة قوارير أو زجاجات من الجعة ، وكان اقتراحى أن نشتري « برميلا » صغيرا ، ليشرب كل منا كفايته ، وكان كلفى عظيما بهذا الشراب فى تلك الايام ، وكنت أسخر من الاطباء الذين يزعمون أن الجعة تورث ما يسمونه « تمدد المعدة » غير أن رفاقى استثقلوا (البرميل) وزعموا أن متظره لا يناسب معنى الشراب فى زورق على النيل ، وكنت أنا أنظر الى الكفاية لا الى المعانى . وكنت أخشى أن نحتاج فلا نجد ، غير أنهم كانوا جماعة وكنت واحدا - وأقول كنت لانى صرت بعد ذلك (أسرة) - والكثرة كما يقولون تغلب الشجاعة . والالسنسة العديدة - اذا جرت فى وقت معا بمثل هذه العبارات (بلاش كلام فارغ) - (رح يا شيخ) (طيب بس بس بس بلا جنان) - تضيق المجال على فصاحة اللسان المفرد

وانطلق بنا الزورق يفرق الماء . وفى هذا الوصف مبالغة من صنع الخيال بعد أن تقادم الزمن على الحادثة ، فما كنا نحسبه يتحرك وقد توهمت - بعد بضعة أكواب أو على الاصح (أشواب) من الجعة - أن يبطأ من الحفة ، وأنا لو أثقلناه بطائفة من الحجارة الكثيرة على الشاطئ لمرق كالسهم ، فاستضحكوا - لا أدري لماذا ؟ - وقال قائلهم « خد يا خفيف » وناولنى كوبا آخر مترعا فكرعت منه كرة روية أنستنى ما كنت فيه ، ثم صارت الحفة فى رؤوسنا والثقل فى أرجلنا ، فصرت كلما مال بنا الزورق أضع رجلى على الجانب الذى شال وأدعوهم أن يصنعوا هكذا ليتزن ويعتدل ميزانه ، ولكنهم كانوا سكارى ، ومن العبث أن تكلم من لا يفهم ، فامسكت وأطبقت فمى ، واكتفيت من

المشاركة فى الحديث بهز الرأس - أو تركه يهتز- وبإيالة الاصبع ،
فعل الذى يتشهد فى الصلاة ، وأكبر ظنى انى كنت محتاجا الى
التشهد ، على كل حال . ولو لم أكن أصلى .

ولا أعلم متى أو كيف رجعنا ، وقد نسيت - الآن - المعجزة التى
وقتنا الفرق ، ونسيت - فى ليلتى تلك - انى كنت فى زورق وانه
كان معى فيه اخوان ، وجعلت أمشى فى الشوارع المقفرة وأنا أقول
بعد كل بضعة سنوات «آمنت أن الارض كرة» فقد كنت كلما أرسلت
لحظى فيما حولى أذكر انى كنت فى هذا الشارع ، وعلى يمينى وإلى
شمالى هذه الدور بعينها - أعنى بأبوابها ونوافذها وجدرانها وشرقاتها ،
وكنت أحيانا أرتاب وأعجب وأسأل نفسى ، هل أنا فى مدينة كل
مبانيها وشوارعها متماثلة ، أو أنا أخرج من الشارع وأعود إليه ،
وأروح وأجىء فيه كما يفعل الشرطى الحارس ؟؟ وأعترف انى لم أحل
هذا اللغز - الى الآن - ولو أمكن أن تعود تلك الليلة بنيلها وزورقها
وجعتها ورفقائى فيها وشوارعها المسحورة ، لا أمكن فيما أعتقد أن
أهتدى الى الحل الذى أعيانى فى شبابى ، فان للكهولة من الحكمة
وصدق النظر ونفاذه ما ليس للشباب الطياش !

ثم وقفت بقدرة الله وحده من غير شك ، أمام بيتى ، وخالجنى
الشك أول الامر ، وقلت لنفسى أنه لا يعقل أن يكون هذا بيتى ، فقد
قطعت - على رجلى - مسافة أطول من عرض الصحراء الكبرى ، ولم
يكن بيتى يكلفنى كل هذه المشقة ، وأحسست ، وأنا أفكر فيما
تجشمت من تعب المشى ، بعتب شديد على البيت ، وهممت بمكاشفته
باللوم ، غير انى أردت أن أتبين أولا ، مخافة أن أكون مخطئا وان
لا يكون البيت بيتى فأظلمه ، فارتدت عن الباب خطوات ورميت رأسى
الى ظهري وصعدت عيني فى البناء ، ثم ثنيت رأسى على صدرى وأسندت
ذقنى الى كفى مفكرا ، فقد اختلط الامر على ، أهذا بيتى ؟ انه يشبهه !
ولكن اليس الله يخلق من «الشبه» أربعين ؟؟ أو لم أر الليلة مدنا
عديدة وأقطارا شتى من الارض كلها على طراز واحد ؟؟ وإذا لم يكن
هذا بيتى على الرغم مما يبدو لى من الشبه القوى ، فأين يكون ؟؟
وأين أنا ؟ ، وظننت هذا السؤال أسهل فقلت فى جوابه « أنا بالطبع ؟
وأين أكون الا هنا ، وهل ممكن أن يتصورها عقل العاقل .

وفى هذه اللحظة برزت لى قطعة من الليل وصارت تدنو منى حتى
وقفت أمامى ، فمددت يدى إليها أتحنسها ، فاذا لها طول وعرض
وسمك وأعجبني التماع ما يشبه العينين فيها ، وبياض ما نسميه
الاسنان فأحببت أن ألمس هذه وتلك فنأت عنى كالحائفة ، ثم مالت
فتأبطت ذراعى فلم أعد أراها وان بقيب شاعرا بها الى جنبى ، ومشنت
بى وأنا مسرور بهذه القطعة الطرية من الظلام تحت ذراعى .

وسمت صوتا من ناحيتها يقول

« خطى »

فسألت « خطى ؟ »

قال الصوت « خطى انت »

فسألت « انت ؟ »

قال « انت »

قلت « انت ؟ »

قال « انت »

فزمت وهزرت رأسى مبتسما للصدى .

ورأيتنى أصعد السلم وأحسست أن شيئا يدفعنى ، فغضبت وركلته
برجلى فاقصر ، وارتقيت وحدى ، معتمدا على الحاجز حيناً ، وعلى راحتي
أحيانا أخرى ، حتى كلت ساقاي ومللت هذه الدرجات التى لا نهاية
لها ، وخفت اذا ظللت صاعدا أن أبلغ السماء ، وكنت شابا ، وكان
أوان ذلك فى رأبى لا يزال بعيدا ، ثم وقفت أمام باب ، فأخرجت
المفتاح وحاولت أن أديره فى القفل ، ولكن الباب كان يتراجع وكان
المفتاح من أجل هذا لا يقع على موضعه ، فلم أزل بالباب يدفعنى
وآدفعه حتى أسندته الى الحائط ودسست فيه المفتاح ، ثم تركته
ودخلت وأنا أتم ما أكون رضى عن نفسى .

وانتهيت من الدهليز الضيق ، وكان ضيقه محسوسا جدا ، وكان
لفرط ضيقه يحتم على سالكه أن يسير على خط مستقيم ، بين حائطيه ،

ولكن تبين أن هذا الخط كان عسيرا جدا في الظلام الحالك ، وبعد لائى ما بلغت حجرة وسطى ، ولم يكن من عادتي أن أدخلها ، ولكن جدران التهللز دفعتنى إليها ، فملت عن طريقى المألوف والقيت أمامى مائدة لا عهد لى بها وعليها أطباق مغطاة ، وآخر مكشوف والى جانبيه ملعقة وسكين وشوكة ، سلة صغيرة فيها خبز أفرنجى ، فعجبت لهذه الادوات من أين جاءت ؟ غير انى شعرت بالجوع لما أخذتها عينى ، ولا بدع ، فجلست إليها ورفعت الفطساء عن طبق فاذا فيه لحم بارد ، فأقبلت عليه أتناول منه فاذا بصوت عال يسألنى بلهجة جافية

« مين ده ؟ »

فاستغربت أن يسألنى فى هذا سائل فى بيتى ، فلم أجبه فعاد يسأل :

« مين ده ؟ »

فغضبت وقلت بصوت عال :

« ابراهيم عبد القادر المازنى »

ويظهر انه لم يسمع فقد كرر سؤاله باللهجة عينها

« مين ده ؟ »

فقلت بأعلى من صوته وأجفى من لهجته

« ابراهيم عبد القادر المازنى »

وصار الحديث بيننا هكذا :

هو - « مين ده »

أنا « ابراهيم عبد القادر المازنى »

هو - « مين ده »

أنا - يا أصم . قلت لك ألف مرة

هو - « مين ده »

أنا - « انفلق بقى ! »

هو - « يلعن أبوك ! »

أنا - « ايه ! يا قليل الادب يا وقح يا ... »

هو - « أبوك السقامات ! »

فذهلت . وانتفضت واقفا ودفعت الكرسي بعنف ، والغضب يتطاير شرره من عيني ، أو على الأقل لابد أن يكون قد تطاير يدي الى الطبق لاقدفه به ، فقد نويت أن أخطم له رأسه أخطم عليه كل ما فى البيت وإذا بيد ناعمة بضعة تربت على كتفى فى رفق ، وتمسح عليها فى لين ، فارتد الدم الفائر هادئا ، وثابت الى نفسى ، فابتسمت ، وقد خيل الى أن ما هاجنى لم يكن سوى حلم ثقيل ، وعدت الى الكرسي فجبرته وجلست مرة أخرى لأكل :

وقال صوت حلو من خلفي

« ازاي غلظت ؟ »

فقلت أحدث نفسي « هذا أحلى ! »

قال الصوت « ايه هو ؟ »

قلت ماضيا فى مناجاة نفسى « صوت ناعم حلو ، لا كذلك الوقح القليل الحياء ، أين يا ترى ... »
الصوت - « بتقول ايه ؟ »

أنا - « ليت المرء يحلم دائما بمثل هذه الاصوات العذبة »

الصوت - « بتقول ايه ؟ مالك ؟ بتحلم ؟ »

فأغمضت عيني واضطجعت وقلت « آه ! ما الذ هذا بعد ذلك الصوت المنكر ! وليت من يدرى أيهما أجمل : الصوت أم صاحبه ؟ »

فأحسست على وجهي نفسا حارا وسطعت انفى رائحة ذكية ففتحت عيني فصافحها وجه ملائكى لم أشك أنه من الفردوس ، فشاعت فى نفسى الغبطة وانشرح صدرى لارتقائى فى الحلم ، وقلت أن الحلم اذا

انتسخ لا يرجع فيجب أن اغتتم فرصته القصيرة الزائلة ، وماذا
أخاف وهو حلم ؟؟ ودفعت ذراعى فطوقت بها الجسم المائل فصاحت:

« أوه ! إيه ده ؟ أوع ! »

قلت غير عابىء « أو يكون الدلال حتى فى الاحلام الحافظة ؟؟ خل
هذا للدنيا وخبرينى من أى الفراديس أفلت يا حورية ؟ »

وأبى سوء الحظ الا أن يصيح بى ذلك الصوت المنكر الذى لعن
أبى وزعمه سقاءا - نعم سقاءا !؟ تصور هذا ٠٠

« أنت يا ولد ؟ »

فأفقت ، وتهاوى ذراعى الى جانبى الكرسى ، فما يليق حتى فى
الاحلام أن يكون العناق أمام الناس ، وشعرت بالغضب يشيع فى
نفسى ، لقد عاد هذا الفضولى الوقح فلاؤدبته غير هذا الادب ،
ونهضت أتلقت باحثا عنه وأسأل « أين هو أين هو ؟ »

فقال حورية الحلم وكانت لا تزال باقية :

« مين هو ده ؟ »

قلت « الكلب الذى شتم أبى وزعمه سقاءا ! ونغص حلمى ! »

قالت وهى تضحك « ده البغبغان ياسيدى ! »

فدهشت ، وماذا يدعونى أن أحلم بالببغاوات ؟ ثم كأنما ارتد الى
ذاكرتى شىء من وراء الوعى فبهت وقلت

« أين أنا ؟؟ انه ليس عندنا ببغاء »

قالت الحورية « انت فى الشقة التى تحت شقتكم ! داخل كدة من
غير تكليف ! احمد ربنا بقى التى جات على كدة وقوم روح فى ستر
وسلام . ولو كان الراجل هنا كانت بقت ليلة »

ولا أحتاج أن أقول ان هذه الجعة التى شربتها طارت كلها دفعة
واحدة فى مثل خطف البرق .

فاتحة عهد

أدركننى حرفة التعليم كما أدركننى حرفة الادب ، فبلاننى عظيم ، ومصيبتى كبيرة ، وخطبى أدهى من خطب ابن المعتز الذى لم تكن فيه - منلى - لو ولاليت ، وأنا أحق منه بما قيل فيه ، وأحوج الى انصاف الشعراء من ظلم الحياة ، وكنت قبل أن أدخل مدرسة المعلمين العليا - فقد كانت هناك مدرسة أخرى « سفلى » أعنى دونها مرتبة - أتمهى أن أكون طبيباً ، لأن الطبيب ليس كمثله أحد ، يقتل الناس ويأخذ كراء يده ثم انى من مازن ، كما لا أحتاج أن أقول ، والطب كأنما هو فى طباعهم ، وكثيرون من أهلى أطباء ، فلا حاجة بى الى الغرباء حين يوافى الحين ، وقد اشتهر الموازن فى جاهليتهم باتقان الجراحه ، وكان أحب الالعب الى أطفالهم أن يخرجوا الى مخارم الجبال ويتربصوا وراء صخرها ، حتى اذا عبر الطريق عابر ، سالوا عليه وحفوا به وراحوا ينوشونه بالرماح القصيرة ويشكونه بالسيوف الصغيرة ويفمزونه فى المواضع الطرية فيتوثب ويقفز ويصيح « أوخ... آى... » وهم يقهقهون مسرورين ، ولا يزالون يداعبونه ويجمشونه حتى يفتتروا الحركة المسلية والصياح الممتع فيدعونه الى غيره ممن تقوده اليهم رجلاه

ولكن الدكتور كيتنج - ناظر مدرسة الطب فى ذلك الوقت - طردنى ورمى لى أوراقى وقذف بى وراءها لأن نتن جثة أحدث لى اغماء ، فوعده أن أسد أنفى فهز رأسه ، فتعهدت بأن أروض نفسى على حب النتن والعفن فلم يلن ، فخرجت بقلب كسير ، وقلت اذا فاتنى الطب فلن تفوتنى المحاماة ، فان فى قومي مروءة وطول لسان ، وقديما كان الموازن أهل لسن ونجدة ، ومضيت الى مدرسة الحقوق ، فأخذوا أوراقى وقالوا حيا وكرامة ، وانقلبت الى بيتى أنتظر موعد السخول ، واذا بالوزارة تزيد أجور التعليم فى هذه المدرسة من خمسة عشر جنيها فى العام الى ثلاثين ، فقلت « ياخبر

اسود ! » وأسرعت الى المدرسة فاستعدت أوراقى فما كان ذلك
يدخل فى مقدورى . وأيقنت انى ضائع وأن التعلم قد سدت فى
وجهى طريقه ، وبكيت على صدر أمى ، وقلت لها قد ذهب مع
الريح كل تعبك فى تعليمى

قالت « ادخل مدرسه الهندسة »
قلت « يا حفيظ ! » وجفت دموعى من الرعب
قالت « نم لا ؟ »

قلت « ألا تعلمين أنى حمار ؟ »

قالت « لا تكن طفلا . اذهب اليها فما بقى هناك غيرها »

قلت « انى لست طفلا . انى حمار . حمار ! ألا تفهمين ؟ »

قالت « كلا ! لست أفهم »

قلت « انى لا أستطيع أن أفهم هذه الدروس . ليس لى استعداد
لفهمها »

قالت « وكيف فهمت ما تلقيت من الدروس الى الآن ؟ »

قلت « بجهد وعناء »

قالت « اذن تفهم الباقى بجهد جديد وعناء آخر ١٠٠ قم الى هذه
المدرسة »

قلت « وحياء رأسك ان هذا مستحيل »

فاقصرت ، فقد كنت أصدقها ولا أحلف بحياة رأسها كذبا ،
وكانت هى تعرف ذلك معرفته

ثم فتحت مدرسة المعلمين العليا فدخلتها وأنا أقول ان هذا على
كرهى له أهون من هندسة مدرسة الهندسة

* * *

ومضت الايام - أعنى الاعوام - وصرت معلما ، وتسلمت من

الوزارة الشهادة لى بذلك ، ولكنى لم أفرح بها لان ذلك كان
بكرهى ، كما صار من لا اذكر اسمه فى رواية لمولير طبيباً على
الرغم من أنه ، فعينتنى الوزارة مدرسا للترجمة بالمدرسة
السعيدية الثانوية ، وكنت صغير السن ولم تكن لى لحية ولا
شارب ، فكنت أحلق وجهى بالموسى ثلاث مرات فى اليوم لعل
ذلك يعجل بانبات الشعر ، فقد اشتهيت أن يكون لى شارب مقتول
وخدان كأنما سقيا عصير البرسيم ، ولكن الموسى لم تجدنى فتبلا

وكنت أبكر فى الذهاب الى عملى بلا موجب ، وأدخل المدرسة
مع التلاميذ ، ثم اتفق أن تأخرت يوما الى ما بعد الساعة الثامنة ،
فاقفلت أبواب المدرسة كما هى العادة ، فلما بلغت أول باب قلت

« افتح يا عم محمد »

وكان نوبيا ، فنظر الى وقال

« من الباب الثانى »

قلت « هل من سبب ؟ »

قال « أيوه »

قلت « ماذا ؟ »

قال بايجاز « الاوامر »

قلت « ألا تفضل بشئ من الايضاح ؟ »

قال وهو ينظر الى ممتعضا « تأخرت »

ففهمت وقلت « تريد أن تقول ان التلاميذ الذين يتأخرون
يكون دخولهم من الباب الثانى ؟ »

قال « أيوه »

قلت « ولكنى لست تلميذا »

فلم يخف ضجره وهو يقول « روه • روه : »

فرحت - أعني انصرفت - فما بقيت فائدة من خطاب هذا
النوبي الجاهل ، وعلى أن هذا لم يكن ذنبه ، ولو كان لي ولو
شارب واحد على الأقل لما ركبته الوهم ولا خلطني بالتلاميذ

وبلغت الباب الثاني فالفيت البواب النوبي جالسا وبين يديه
كتاب عرفت بعد ذلك أنه دلائل الخيرات ، وكان يهز رأسه هزا
عنيفا وهو يقرأ ، ولم أكن أعرف اسمه فقلت « هو » فرفع رأسه
عن الكتاب ولكنه ظل يحركه الى الامام والحلف فقلت بلهجة الجدد
« افتح »

فلم يقطع التلاوة واكتفى بأن يشير بسبابته اشارة الرفض

فأعدت الكرة بصوت أعلى

« أقول لك افتح »

فاشار فى هذه المرة بذراعه كلها أن انصرف

فألححت وحملت صوتي أشد ما يحتمل من العنف

فقال « تؤ ... تؤ ... »

فصحت به وقد كدت أجن

« تؤ فى عينك ... افتح »

فنطق لانه غضب ، وقال « اسمك ايه ؟ »

قلت يا فرج الله ! وذكرت اسمى وفى ظنى انه لا يكاد يسمعه
حتى يسرع الى الباب فيفتحه على مصراعيه وينثنى على يدي يقبلها
ويعتذر ويسألنى الصفح

ولكنه لم يفتح بابا ولم يتناول راحتي ولم يطلب عفوى وانما
قال وهو يخرج من جيبه قلما ويبل سنه بلسانه

« اسمك ايه ؟ »

قلت « ايه ؟ »

قال « اسمك ايه ؟ »

قلت لعله لم يسمع ، وأعدته عليه فكتبه على ورقة وقال متوعدا
« استنى ! »

ومضى عنى الى حيث لا أعلم ، وفى هذه اللحظة لححت الاستاذ
الهرأوى - وكان موظفا معنا فى المدرسة - فصحت

« ياهرأوى افندى ! ياهرأوى افندى ! »

فالتفت على صوتى فصحت مرة أخرى :

« أدركنى يا أخى ! هذا البواب الاحمق لا يريد أن يفتح لي
الباب » وأخبرته الخبر فانطلق يضحك ويقهقه فقلت :

« هلا فتحت لي أولا ؟؟ »

فجاء بالبواب ، وعرفت انه كان قد ذهب يشكونى الى الضابط،
فلما دخلت قلت للضابط الاول

« يا صاحبى ان لى عندك رجاء » ان تجمع الخدم والبوابين
جميعا وتعرفنى بهم وتعرفهم بى ، فنتصافح ولا يحدث بعد ذلك
مثل هذا الخطأ ، فليست أضمن أن أجد الاستاذ الهرأوى كل يوم
بحيث يسمعنى اذا دعوته الى النجدة »

ولكن الخطأ لم يمتنع بعد ذلك ، فقد كنت مرة واقفا فى غرفة
المدرسين ، ولم يكن بها فى تلك اللحظة سوى ، فمسر الناظر ،
وكان انجليزيا ، فرآنى ، وكان ظهري اليه ، فظننى تلميذا بعث
به أحد المدرسين ليحيته بكتاب أو كراسية أو غير ذلك ، فغضب ،
ودعا كبير الضباط الى غرفته وأخبره ان فى حجرة الاساتذة تلميذا
وان هذا لا يجوز ، وان عليه أن يبلغ المعلمين أن الناظر يرجو منهم
أن لا يخرجوا التلاميذ من المكاتب لقضاء شئ ما لانهم يجيئون الى
المدرسة ليتعلموا لا ليقضوا حاجات المدرسين

ودخل الضابط على فسألنى

« من كان هنا يا أستاذ ؟ »

قلت « متى ؟ »

قال « الآن ؟ »

قلت « أنا »

قال « انت ؟ »

قلت « نعم .. »

قال « لا أحد غيرك ؟ »

قلت « لا أحد .. لماذا تسأل ؟ »

فقص على الحكايه وضحكنا ، وصار الناظر لايرانى الاقهيته ،
ولكن هذا لا يمنعه أن يغلط مرة أخرى غلطا أفحش ، وكنت
أتمشى ، ويدى فى جيبي البنطلون ، فما أشعر الا وكف غليظة
تقبض على عنقى وتهزنى بقوة ، وبعد لاي ما تملصت وواجهت هذا
المعتدى فاذا هو الناظر واذا به يتراجع مبهوتا ويقول
« آسف .. آسف جدا »

قلت ، ويدى على قفاى ، « ايه ؟؟ آسف ؟؟ ولكن اى مزاح هذا ؟ »

قال « أكرر لك أسفى .. على أنى لم أكن أمزح »

قلت مستغربا « لم تكن تمزح ؟؟ ولكن لماذا تريد أن تخلع
لى رأسى ؟ »

قال « لم أكن أريد أن أخلعه .. »

قلت « ايه ؟؟ ولكنك كدت تخلعه »

قال « لقد توهمتك تلميذا هاربا من الدرس .. وأحسب هذا
سيكون درسا لى .. لن تمس يدى تلميذا بعد اليوم »

وكانت لى جرأة عليه لانه كان استاذى ، وكنت أحبه واحترمه ،
فزادتنى صراحته اكبارا له ، ولم يسعنى ألا أن أعترف - فيما
بينى وبين نفسى - انه معذور

ولم يتكرر الخطأ بعد ذلك ، ولكن هذه الفاتحة لعهدى بالتعليم،
لم تكن أسعد الفواتح ، ولا كان من شأنها أن تقلب كرهى لهذه
المهنة حبا ، ونفورى منها ، اقبالا عليها . وقد ظللت أتحين الفرص
للنجاة بنفسى فلم تسنح منها واحدة الا بعد عشر سنوات

ليلة سوداء

هل للموت جلال ؟ وهل للمقابر حرمة ؟؟

لا أدري ! وإنما الذى أدريه انى كنت أفكر فى هذا وما هو منه بسبيل - أو أسأل نفسى عنه - فى ليلة سوداء - أعنى حالكة الظلمة - لا قمر فيها ولا نجم ولا شيء الا عتمة سميكة ، وكنت قد تناولت عصاى وقلت أخرج من ضيق البيت الى القضاء الطليق لعل المشى يحط عن صدرى ما يجثم عليه من شعور ضاغظ ، وكان الجو راكدا ، وكنت لهذا ومن فرط الانقباض - أحس كأن أصابع ضخمة - الا أنها معروفة - تأخذ بمخنقى ، فكنت أفهق : أفتح فمى وأدفع رأسى الى الورداء وأرفع صدرى - كالذى أشفى على الفرق ، فليس الماء وحده كل ما يخنق . وكنت أقول لنفسى وأنا أدير عيني فى كثافة الليل وأردها الى ظلمة النفس ، انها ليلة سوداء حقا ! أين ترى غابت نجوم السماء ؟؟ ويالها من لعنة حارة أسن لها الهواء وعاد أوبل من مستنقع ؟

وتذكرت قول ابن الرومى المسكين وهو معصوب العينين .

أرعى النجوم - وأنى لي برعيتها وطرف عيني فى أسر وتقييد ؟

وان من يتمنى أن يؤايبه رعى النجوم ، لمجهود المجاهد !

صدق والله ! وانه لمسكين مسكين ، وانى لمثله ، أو شر منه

ولكن « المسكنة » ثقلت على نفسى ولم أرضها لها ، فضربت الارض بالعصا وقلت بصوت عال « مسكين ؟ لماذا ؟؟ هب القمر كأوضاً ما يكون ، والنجوم الخفاقة اللمعان تتلامح وتزين هذه القبة الزرقاء ، والنسيم كأرق ما يعهد فبماذا كنت حقيقاً أن أفوز مما حرمت متعته الآن ؟ هذه السماء من فوقى بأفاقها جميعاً أهى سوى « جمجمة » - كما يصفها العقاد فى بعض أراجيزه ؟

وراقنى أن السماء « جمجمة » وحملت للعقاد هذا الوصف الذى
وامم مزاجي في هذه الليلة السوداء ، وما يدرينى ويدريه ؟ لعل
كرتنا الارضية كلها مدفونة في هذا الكون ولعلنا نحن الذين
يسمون أنفسهم « بنى آدم » لسنا سوى ديدان وحشرات ترتع في
جوف هذا القبر الهائل ونحن لا ندري ، ولعل من الالهام أن تكون
نفس العقاد قد اسودت مرة فقال أن السماء جمجمة وفتح بذلك
الطريق الى معرفة النفس - معرفتنا نفوسنا على حقيقتها الدودية!

ومال بى هذا الاسلوب من التفكير الى الطريق المفضى الى القبور
- ولم أكن أرى مواضع خطوى - واني لى برؤيتها في هذا الظلام
المتراكب ؟ - ولكن المرء يرى أحيانا بقدميه ، ويهتدى برجليه ولا
يحتاج الى عينيه وما أكثر ما رأى الانسان يغير عينيه ؟ صحيح
انهما أداة نظر ، ولكنه نظر قصير ، وبغيرهما يكون النظر البعيد
- النافذ ، والاهتداء والوقوع ... على ... على ماذا ؟ كدت أقول
الحقائق .. ولكن رجلى اصطلمت بحجارة قبر من آلاف القبور
المنتشرة في هذه الصحراء

بالحماسة الانسان أو غروره أو لأدري ماذا ؟ ماخير هذه الصوى
القائمة والحجارة المرصوفة ؟ يف ! سخافة ! وركلت - برجلي -
الحجر الذى صدمنى ، لاغيظا ، فليس ذنب الحجر أن صد رجلى ،
ولكن ركلته استسخافا للانسان ، هذا الجيل الذى يبنى القبور
فى هذا فالموضع سيذهب ويغيب فى جوف الارض ! ثم تندثر على
الايام قبوره وتخفى معالمها ، ويجيء جيل آخر ، يبنى فى هذا
الموضع بعينه قصورا ودورا ، ويشق بينها طرقا

ومىادين يخترقن بسا -

ين تمس الرؤوس بالاهلاب

ويجعل فيها الملهيات ويفتن فى ذلك

ويظلمون فى المناعم والا

لذات بين الكواعب الاتراب

لهم المسمعات ما يطرب السا

مع والطائفات بالاكواب

مالهذا الرومى يكظ اليومذهنىجدا؟

ومع ذلك ينسون انهم بنوا قبورا قديمة ، ويروحون يتخذون المدافن ويعلون صواها ويرفعون حجارتهما - فى مواضع أخرى !!
بف ! سخافة !

ورأيتنى أتمنى لو كانت رجلى التى اصطدمت بالقبر فأسا ، فأهدم هذا العيث المشيد ! فجرى ببالى خاطر موروث : اليس لهذه القبور حرمة ؟؟ فضحكت ، حرمة ؟! لشد ما يخادع الانسان نفسه! أى حرمة هناك لحجر؟؟ وما الفرق بين حجر القبر وحجر الماخور؟ كلاهما حجر، وتحت كليهما أجيال دفينه من هذا الانسان الذى يحاول أن يكرم نفسه وتأبى الحياة الا أن تهينه وتسخر منه - بل تأبى الا أن تجعله هو اداة سخرها منه وتهكمها عليه

ومن هو الذى يرى للقبور حرمة ؟؟ أنا وأنت وهذا وذاك - أربعة أو خمسة أو عشرة ممن أفسدت الكتب والادهام والخيالات عقولهم وتفكيرهم وأرثهم دنيا غير التى يعيشون فيها ثم يرحل بهم الموت عنها أما سواد الناس غيرى وغيرك يا صاحبي - فلا يعرف لهذا الموت جلاله المزعوم ولا للقبور حرمتها الزائفة . لقد رأيت - بعينى هاتين - أحب الناس الى وأكرمهم على ، ترفع من نعشها لتدرج فى لحدها ، وكانت الايدى التى تتناولها خشنه عنيفة ، ورأيت أصابع هذه الايدى الفليضة تغرس فى جسمها الفض فهممت أن أدعوهم الى الترفق بها فى هذه اللحظة على الأقل ، ولكنى سمعت أحدهم من جوف القبر - وكان واقفا مادا ذراعيه استعدادا منه لتلقف الجثة - سمعته ينادى زملاءه .

« هات الشغل يا جدد ،

نقلت لنفسى ان هذا الميت الكريم ليس عند هؤلاء الا « شغلا » ولعله ليس فى نظر الحياة أكرم من ذلك ، فامسكت ولم أقل شيئا

وانحدرت وراءهما الى القبر لاحسر عن وجهها بيدي أنا ، فذكرت قول الشريف الرضى :

صور ضمنت على العيون بلحظها أمسيت أقرها من البوغاء
ونواظر كحل التراب جفونها قد كنت أحرسها من الاقضاء

ثم ابتسمت - أى والله وصعلت الى الدنيا والحياة والنور - وأنا أحدث نفسي أن ليست الصور والنواظر الا « شغلا » ، صديق الحانوتي ! وكذب الشريف : وسأكون أنا فى يوم من الايام « شغلا » بين أيدي هؤلاء الرفاق ذوى الايدى الجافية الحسنة والتناول العنيف وسيلفوننى فيما يقسم لى الحظ من حرير أو خيش ، وسيعجلون بدفنى لأن اكرام الميت دفنه ، وسيطرحوننى على التراب فى غير ترفق بعد أن ينزعوا اللحاف من تحتى ، وسيحاول بعضهم أن يطوى هذا اللحاف ويخفيه ليعود اليه بعد ذلك فيسرقه

وإذا كان على أصابعى خاتم زهد أهلى فيه أو أكرمونى أن ينزعوه ، فسينزعه دافنى وهو يسوى التراب تحتى ولو كسر أصبعى ، ويخبئه فى شدقه أو جيبه ويخلع أسناني الذهبية اذا كانت لى سن ذهبية وإذا كان ما لففت فيه من الكفن حريرا أو ما هو أغلى من الحرير ، فسيفتح القبر ، حارسه ، ويهجم على ، ويسلبنى حريرى وديباجى ويفصل منه لبناته ثيابا أنيفة يلبسناها ويزهين بها ويخطر فيها أمام الشبان ليعجبهن وليصلن قلوبهم . نعم وسينعهد قبرى حارس ، اذا وسع أهلى ذلك وأسعفتهم الحال ، وسيكنس المكان ويرشه ولا ينى يعجى اليه بالاذاخير والرياحين - ويلج عليه البول مرة ، فيطلقه على قبرى !

ولم لا !

نعم لم لا ! وهممت أن أطلق ضحكة مجنونة من هذا الانسان الاخرق ولكن صوتا صافح أذنى فوجمت ، كأنما أذهلنى أن يسرى بين القبور مخلوق سواى ، وكان الصوت آنة خافتة فراحت الاوهام تعربد فى ذهنى أتراها جناية أم لا أكثر من زفرة باك على جدث فقيد؟ أم ميت ردت اليه الحياة ونفدت صرخته من الارض

وأرهفت أذنى ، قمر دهر طويل ثم هقا الى الصوت كرة أخرى ،
فمشيت اليه على أصابعي - محاذرا - ولم يكن هذا سهلا ، فان القبور
مبعثرة ، والليل طاخ . قبعد كل خطوة صدمه أو عثرة ، ولا نجم
هناك يهدى ، وكثرة الالتواء والانعطاف ، والدوران حول القبور ،
تضل عن القاية ، وقد يتأى المرء عنها وهو يحسب أنه يدنو منها ،
وغاب عنى مصدر الصوت فيئست وسرت والسلام ، واذا بى فجأة
المس حائطا وأسمع حوارا كهذا :

- استنى بس لما أكلمك

- وأنا مش عاوزه أكلمك

- امال عاوزه ايه ؟

- عاوزه أبص لك كدة .. عاجبنى وانت بوزك شبرين .. بوز ..
والنبي تبوز

ضحكة خشنة

- ياباى بتضحك ليه ؟

- عشان كلامك بضحك

- لكن أنا مش عاوزاك تضحك . عاوزه أشوفك ميوز وأنا إديك
بوسه

- هو التبويز بالكيف ؟ ما دام مبسوط أبوز ازاى ؟

- ياباى عليك ! امبارح كنت حلو وانت ميوز

- يابنت أنت تكونيش عبيطة ؟ حد يبوز وهو مبسوط ؟

- مبسوط من ايه والنبي ؟

- أهو مبسوط

- والنبي تقول لى

- أقولك ايه ؟ سيبك من الكلام ياه ! تعالى

- لا • قبله قول لى
 — مش بزيادة امارح طلعتى روحى
 — صحيح ؟
 — صحيح ؟ بتقولها كنه زى اللى كنت مبسوطة
 — امال ؟
 — تبقى مبسوطة وأنا منك ؟
 — آه • مش انت لعبتى ؟
 — لعبتك ؟
 — آه • لازم اخلق لك حاجات تمزيك ولازم اكيدك • ولازم اسمع
 انك بتعيط • وبسرعة امسح لك دموعك وأبوسك
 وكانما التقت الشفاه فى قبلة طويلة مستغرقة فقد ضمتا هنيهة ،
 ثم تنهدت الفتاة تنهد الرضى والاغتباط ، ثم صار صوتهما أخفت وهى
 تقول أو تهمس •
 « خذنى على سدرك • • لا مش قوى كنة • • بالراحة • • خلىنى
 كده شوية • • »

خطر لى أن أصبح بهما وأسوقهما أملى بالعصى ، ولكنى هزرت
 رأسى ومضيت عنهما وأنا أعجب أى مقبرة هذه التى اتخذها لاطفاء
 جذوة الحب ؟؟ وجعلت أسأل نفسى فى الطريق — وأنا عائدا الى بيتى —
 عن حياة هذه الطبقة من الناس ، ولست أعنى طبقة الباعة والعمال
 ومن اليهم ، وإنما أعنى طبقة الناس الذين لا يقرأون ولا يعنون أنفسهم
 بالادب والكمال والمثل العليا ، والحياة والموت والقناء والخلود ، ولا
 يخلقون لأنفسهم عوالم يشقون فيها وبها ، ثم رحت أتساءل :
 إترانى لو كنت مكانه ، أعنى مكان هذا الرجل ، أكننت أصنع ما صنع ؟

لكنت أحجم عن اغتنام هذه الفرصة من أجل أن حولي أجداثا ورموسا؟
وهبني عزني أن الأقي حبيبا لي إلا على قبر ، أيمنعني ما قرأت وما
علمت وتصدني مثل الكمال عن الشعور بفرحة المحب والسرور باللقاء
بل عما هو فوق ذلك ؟

لا أظن !

وأي مكان في الدنيا لا يطوى شيئا من إنسان أو حيوان ؟ فكل
مكان قبر ، وعلى أن رهبة الموت ليست الا مظهرا لتعلق الحي بالحياة ،
أما الموت في ذاته فليس شيئا - لا جلال له ولا روعة ولا غرابة فيه ،
ولو وثق الإنسان أن الدنيا تفنى بفنائها ومعه ، لهانت عليه الحياة
ولما شق عليه الموت ، وإنما يعز على المرء أن يفارق الدنيا لأن غيره
سيبقى على ظهرها بعد أن يرحل هو عنها ، ولو كان هذا الذي يبقى
ابنه ، والذي يقول أن يظن خلاف ذلك يكذب نفسه ويغالطها
في الحقائق .

وقلت لنفسى وأنا أدق باب البيت

« إذا كانت روعة الموت مستفادة من حب الحياة ، فما لومي هذين
اللذين سمعتهما يتلازمان على القبر ويتعانقان ؟ وكيف يكون ما فعلا
منافيا لجو الموت المحيط بهما ؟ جلال الموت مستمد من جلال الحياة ،
والأسي للموت أسي للحياة ، وحرمة من حرمتها ، فماذا إذن ؟

ومع ذلك لو رأى اللذان تعانقا على القبر غيرهما يفعل ذلك لثارا
به يلعنانه ويفضحانه ، وهكذا الناس أبدا .. في كل شيء .

فى سليل كتاب

هل أقرأ ما أحب أنا من الكتب ، أو ما يحب الناس أو يريدون أن
أقرأ ؟؟

فى هذا كنت أفكر ، وبه كنت أعنى نفسى ، وأنا سائر - بعد
المغيب - فى أزقة ضيقة فى حى قديم ، وكنت قد بعثت بكتاب «النثر
الفنى» وبطائفة أخرى من الكتب التى جاءتنى ، الى وراق يجلدها ،
حفظا لها من التلف وضنا بها على البوار ، وابطأ الرجل على ، وطال
انتظار صاحبى الدكتور زكى مبارك أن أتناول كتابه الضخم بما هو
أهله من العناية ، وأنا كلما لقيته أكرر له الوعد انى لا محالة فاعل ،
وان الكتاب عند من يجلده لتسهل قراءته ولا مستغنى عن تمزيق
ورقاته وفساد شكله ، ثم لم يبق بد من استرداد الكتاب وقراءته
والفراغ منه ، وأمرى الى الله ، كانت الشمس قد مالت للمغيب ،
فتوكلت على الحى الذى لا يموت كما فعل «كولمب» على التحقيق ،
وخرجت أبحت عن دكان هذا الرجل كما خرج سلقى العظيم ينشد
الدنيا الجديدة التى كانت تتراعى له فى أحلامه وخيالاته ، وكل ما
يبتننا من الفرق انى كنت على يقين من أن الدنيا التى أبغيتها عتيقة جدا
وأنه هو ودع زوجه وأولاده وجيرانه قبل أن يتحمل ، أو يبحر ، حينان
وانى كنت أحرق مغرورا فلم أودع أحدا ، فلولا أن الله لطف بى فى
قضائه لفارقتكم يا ابنائى الصغار المساكين دون أن تفوزوا من أياكم
الطياش بقبلة وداع ! فالحمد لله على كل حال

ولا شك أن القارئ قد أدرك أنى لم أكن أعرف أين دكان هذا
الوراق ، وانى كنت لجهلى مكانه أتخبط وأسير على غير هدى ، على
أن الحقيقة انى كنت أعلم أن الدكان فى حى (.....) وهو كما
لا يعرف سكان «جاردن سيتى» و «هليوبوليس» من الاخياء القديمة
التي تمتاز شوارعها بأنها تظل تضيق على الايام حتى تتلاصق فيها

البنى المتقابلة ، فيستغنى الناس عن الابواب ويدخلون البيوت من النوافذ والشبابيك ، وقلما يخرجون بعد أن يدخلوا ، ولكن أين في هذا الحى ؟؟ هذا ما كنت أجهل ، على انى قلت لنفسى أن الاهتداء الى موقعه لن يكون متعذرا ، ولا ضير على كل حال من ارتياد هذا الحى ، فإن لى فيه معاهد ، وفى ذهنى له صور ، وقد بهتت ألوانها فيحسن أن أجدها وأصقلها وأحييها

وكنت وأنا أدخل من زقاق وأخرج من زقاق ، أفكر ، كما قلت ، فى انى أشتري الكتاب لأقرأه ، فيصرفنى عنه أن صاحباً لى يريد - أو يتوقع منى - أن أقرأ كتابه هو ، وأن من حق الصداقة أن أقدمه على ما عده ، وكنت وأنا سائر أوافق أصدقائى أحيانا ، وأسخط عليهم ولا أكتفى بمخالفتهم ، أحيانا أخرى ، وكان رأيى فى ذلك يختلف تبعا لحالة السير ، فإذا استقام ، ولم تعترضنى الاووال والزحاليق ، قلت ان أصدقائى على حق ، وان كتبهم أولى بالتقديم وأحق بالتعظيم وإذا زلت قدمى أو غاصت فى الطين ، أو تفضل على بعض السكان فأمطرونى بما بقى فى «السلطانية» من مرق الفول النبات ، ممزوجا بالمخلل ، دعوت الله أن يفرق هؤلاء الاصدقاء فى بحر طام لا قرار له من مرق الفول النبات والمخلل تسبح فيه قرون من «الشطة» فى حجم الحيتان العظيمة ، تنحشر بين جفونهم ، وفى حلقهم وتنعصر فيها .

وسئمت زحاليق الطين ومطر المرق الكاوى ، وثقل على السير فى هذه السراذيب ، ومزق ثيابى التمسح بالجدران وان كان ذلك ألطف وأخف محملا مما يسقط على رأسى من النوافذ ويأبى الا أن يدخل فى عينى ويتسرب الى حلقى - لا أدري كيف ؟ - ويقطر على صدرى تحت ثيابى - فقلت أسأل بعض السابلة ، ولكن الطريق - أعنى السرداب - كان خاليا ، فلو أنه كان عربضا واسعا لكان أصلح ما يكون للسيارات التى يركبها شياطين الشبان ويمرقون بها كالسهام أو القذائف ، وكان هذا - أى خلوا الطريق - عجيبا ، فإن هذه الاحياء مكتظة بالناس ، وهم يعيشون فيها كالسرادين فى العلب ، وابتسمت وأنا أقول لنفسى انى كالقائد الذى غزا قوما ودخل مدينتهم ففروا من

وجهه، ولاذوا بالبيوت يختبئون فيها ويحتمون بجدرانها ، وكما يحدث في هذه الحالة أن يقذف بعض المختبئين جيش القائد الظافر بما يكون معهم من أدوات الهلاك لان نفوسهم لم تخلد الى الهزيمة ، ونار غيرتهم على وطنهم لم تخمد وقدتها . كذلك أنا في هذا الحى - بطل غاز - يهرب من ملاقاته صناديد الحى، وترشه نساؤهم بمرق القول والمخلل . فالحمد لله على الجهل - أعنى جهل أعدائى - فلو أنهم كانوا يعرفون شيئا يسميه الذين يعلمون حامض الكبريتيك ... أووف !!!

واستعذت بالله من هذا الحاطر وحشت خطاى . ومال الزقاق بفتة في هذا الظلام فعلت معه ولكن بعد أن صدنى جدار وألقانى فى أحضان جدار آخر . ورمى بى هذا على صدر رجل . أو على الاصع على شعر صدره . ودخلت شعرات أو أشواك من هذه القابة فى عيني وأنفى وفمى وانفرزت فى جبينى وخدى . وكتمت أنفاسى فأسرعت فارتدت اتقاء الاختناق . ولكنى على فرط سرعتى لم اتق الشتم واللعن والسباب المبتكر

فوقفت ألهثوا أنا ذاهل . فما سمعت شيئا أبرع من هذا فى بابه . وكان الرجل يهضب به ولا يكاد يبلغ ريقه . فاذكرنى الزامر الذى ينفخ فى مزماره ، وقد انتفخ شدقه وصار كالبطيختين على جانبى وجهه ، وهو لا يكف عن النفخ ولا ينقطع صوت المزمار ، ولا يبسو عليه أنه يتنفس ، فلولا خوفى أن يستقل لى السباب - على حسن ابتكاره فيه ووضوح استاذيته فى ابتداع معانيه - وأن يلجا الى ما هو أعنف لطربت .

ولم يخطئ ظنى فقد دنا منى الرجل . وأمامه هذه الطلائع - أعنى ما على صدره من الشوك الحديد - وقال وهو يحرك ويقلب تحت عيني كفا كالرغيف

« فإكر نفسك ايه ؟ هيه ؟؟ كرة ؟ سكران حضرتك ؟؟ انطق »

فلم تعجبني نظراته بل لم يعجبني شئ فيه . ولست أذكر انى رأيت انسانا غيره كل ما فيه بغيض . من فرعه الى قدمه . وكان حافيا وعلى رأسه « لبدة » سمراء . وعلى بدنه جلباب أزرق . أو

لعله أسود • وعلى خصره - إذا جاز أن يسمى هذا خصرًا - حزام •
خيل إلى أنه جبل غليظ فظننته حملاً • وخطر لي أن أتالفه واسترضيه
وأغريه فقلت :

« انى أبحث عن حمال »

فقال « حمال ؟ حمال يعنى ايه ؟ »

فاستدركت « يعنى شيال ••• »

قال « شيال يابن بنت اللي ماشالت على •••• »

ولم يتمها ، أو لم أسمع أنا الباقي • فقد مرقت من تحت إبطه
وذهبت أعدو ، وأدور مع الزقاق كما يدور • وأنا الآن كهل بطيء
الحركة لكنى كنت فى ذلك الوقت أفر مما هو أشنع من الموت : أى
من أن يعجننى الرجل بأوحال الزقاق فيرجع المازنى قبل الأوان طينة
كالتى خلق منها مع الأسف

ولمحت طفلاً يلعب فاتأت حتى بلفته • ووقفت أستريح وأسأله :

« هل لك يا بنى أن تدلنى على دكان مجلد اسمه •••• »

فترك الصبى لعبته وقال لى بأدب واحترام

« فى آخر الحارة الثانية على الشمال »

وابتسم ، فشكرته ثم كررت له الشكر ، وقد حسن فى نفسى وقع
هذا الأدب بعد خشونة ذلك الفحل الغليظ ، وهممت بأن أضع فى
يده قرشاً ، ولكنى لم أجِد قروشاً ، فاستكثرت ما فوق ذلك وعذت
بالحزم واستأنفت السير

ولم أكد أقطع ثلاثة أمتار حتى صك ظهري حجر ، فكدت أقع
متكباً على الأرض ، وصرخت من الألم فقد أصاب الحجر عظمة الكتف
اليمنى ، ودرت فاذا بالصبى الذى غرنى أدبه وكاد يغرينى بالجود ،
يعدو داخلاً فى الزقاق ، وأذهلنى وأطار صوابى هذا السلوك ، قبل
ثوان قليلة كان هذا الغلام مثال الرقة والظرف والأدب ، وهو الآن
شر مجسّد ، يفسد الحسنه التى أسلفها بالسيفة التى أعقبتها ،

فانطلقت أعدو وراءه وما فى رأسى عقل ، ولا فى نفسى الا انى أريد أن أذبحه وأشرب من دمه ، ولو أنى فكرت قليلا لجريت فى طريق آخر ، ولكن هكذا قدر فكان . وأدركت الغلام فقد كان حنقى يسعفنى بالمدد كلما فترت قواى . ولكمته لكميتين ، ثم حملته وضربت به الارض وأحسست انى شفيت غليلي . فرفعت عنه يدي وانكفأت راجعا . ورحت أمشى على مهل وقد رضيت عن نفسى وعن الدنيا . ولكنى لم أبلغ حيث كان الغلام يلعب حينما سألته حتى رايت شابا يتلقانى بهذا السؤال

« عمل ايه الولد حتى تضربه ؟ »

ولم يكن الشاب ممن يحق لى أن أخاف . غير انى مع هذا لم أرتج الى سؤاله . وعددته فيما بينى وبين نفسى فضولا غير لائق . فعدلت الطربوش ومسحت العرق عن وجهي بمنديل ومضيت ولم أجب . وقد سرنى انى أظهرت هذه الشجاعة ، وانى رعته بالثبات ، وقابلت فضوله بالاحتقار . غير ان سرورى لم يطل به العمر فقد شعرت أن انسانا يمشى الى جانبى فنظرت اليه بمؤخر عينى فاذا به الشاب الذى أهملته . فتنبهت الى وجوده وأدركت أنه يتكلم . وسمعت ألفاظا فهمت منها أن نيته معقودة على الشر لسبب ما ، فقلت أحدث نفسى .

« وماذا يخيفنى منه ؟؟ انه شاب صغير على كل حال . وقد يكون أقوى منى . ولكنى أستطيع أن ألجا الى حيلى القديمة أيام طفولتى فألقى فى عينيه ترابا ، مثلا ، فيعمى . ثم أضرب أنفه بجمع يدي ضربة قوية تجهز عليه ، ثم تركه وأمشى متثددا . وعلى كل حال يجب أن أحتفظ بوقارى وأكرومتى واتزان أعصابى . فان للمظهر أثرا بليغا فى نفس الخصم الذى تحدثه نفسه بالعدوان »

ورميت اليه نظرة أخرى فرأيت عضلات وجهه متصلبة ، وعينه تقدح نارا . فنسيت ما أوصيت به نفسى وذهبت أعدو كالغزال !

ووقع طربوشى على الارض ، فلم أحفله . وهل هذا وقت العناية

بالطرايبش ؟ ثم ان تقلقل الطربوش على رأسى واضطراب حركته الى الامام والخلف ، والى اليمين والشمال ، كان يعطلى ويمنع سرعته أن تبلغ الغاية . وكان الشاب قد فاجاه انطلاقى فوقف لحظة وهو مبهوت ، فيظهر أن ذكاه لم يكن كمنظرته حدة ، ثم رأى الطربوش يسقط فجرى الى حيث وقع من الارض وأقبل عليه يركله برجله اليمنى ثم باليسرى ، ثم داسه فى الوحل بكلتيهما . ولما فرغ من ذلك عاد الى مطاردتى

وكننت قد تعبت ونهجت وخذلتنى رجلاى ، وانقطعت أمداد الخوف والحق جميعا ، رأيت بابا مفتوحا فولجته بغير استئذان ، الى فناء وسيع تحيط به غرف كثيرة لبعضها نوافذ قريبة من الارض، وكانت احداها مفتوحة فقفزت اليها وسقطت على أرض الغرفة وبركت ، فلما استرحت وانتظمت أنفاسى ، عاودنى الامل ، واشتقت أن أعرف ماذا صنع الشاب بعد أن اختفيت فى هذا البيت ، فرفعت رأسى حتى صارت عينى على حافة النافذة فأبصرت الشاب اللعين فى وسط الفناء ، وشر من ذلك أنه أبصرنى أيضا ، فهممت بأن أرتد ، ولكن الخوف ألهمنى أن أغلق مصراعى النافذة ، وثابت الى نفسى بعد ذلك فأقبلت على الغرفة أجيل فيها عينى وانظر أين بابها والى أين يفضى، وكيف يكون المخرج من هذا المأوى الجديد ؟

وكان الظلام شديدا فى الغرفة فأشعلت عودا من الكبريت ، واهتديت به فى طوافى الى مصباح غاز فأوقدته ، ورأيت أن للنافذة ستارا كثيفا فأسدلته ، ووجدت سريرا فقعدت عليه أفكر ، وأدخن مسجارة لعل الله يفتح على بحيلة أنجو بها

ولم يفتح على بحيلة ولكنه فتح على الباب ودخل منه شيخ وقور أبيض اللحية وعلى رأسه عمامة كبيرة، فتفتست الصعداء وحمدت الله على أن الداخل شيخ هرم وليس بشاب مفتول الذراعين ، وقلت ان متاعب التحقيق والحبس أهون من علة ، ورأى النور ورأى فوقف ويده على الباب وقال :

« من أنت ؟ ماذا تصنع هنا ؟ انطق ! »

فتذكرت «الجمال» - أو من ظننته «حمالا» وقلت وأنا أتكلف
الابتسام ،
« أو كلمنا خاطب انسان انسانا في هذا الحى يقول له انطق ؟ »
قال - وهو لا يبرح مكانه .

« نعم انطق بسرعة . ماذا تصنع فى بيتى ؟؟ »

« لا تخف . انى هارب . هذا كل شىء »

فلم يفهم وقال « وأنا مالى ؟ مالى ماذا تصنع فى بيتى ؟ »

فسرني اصراره على أن يسمى الغرفة بيتا ، وسالته :

« هل هناك غرف غير هذه ؟ »

قال « ألا تريد أن تقول من أنت وماذا تصنع هنا ؟ حسن سأغلق
الباب وأدعو البوليس »

قلت « يا صاحبى لو كان فى هذا الحى رجل واحد من رجال
البوليس لما رأيتنى فى غرفتك »

قال « طبعاً »

قلت « لا تغلط . فلست أعنى ما فهمت »

قال « ماذا تعنى »

قلت « أعنى انى قطعت الكرة الارضية فى حيكم هذا عدوا فلم
تأخذ عيني واحدا من رجال البوليس ولا خفيرا »

قال « ولهذا دخلت مطمئنا ؟؟ هيه ؟ »

قلت « على العكس . دخلت وأنا فزع جدا »

قال « طبعاً . طبعاً ولماذا دخلت ؟ »

قلت « انى منذ ساعة أريد أن أفهمك انى هارب من وجه شقى
لعين يتعقبني طالبا دمي . ولم أسترح أو أشعر بشىء من الاطمئنان
الا عندك »

قال « وكيف دخلت ؟ ان الباب موصد - »
قلت « هذه حكاية طويلة ، .. شققت الحائط ودخلت .. »

ولمى هذه اللحظة سمعنا مثل صوت القنبلة ، وكان الستار مسدلا فلم ير الشيخ شيئا ، ولم يفهم ، أما أنا فأدركت ان صاحبي طال انتظاره ان أخرج ومثل وأراد ان يفثا غيظه فتناول حجرا وقذف به النافذة فتكسر زجاجها .

فقلت « أسمعته ؟ »

قال « ما هذا ؟ »

قلت « تحطمت نافذتك .. دخلت منها وأغلقتها ورائي ، ووقف متربصا لى راصدا فى الفناء ، فلما لم أخرج رمى الزجاج بحجر .. »
وأراد الشيخ ان يدنو من النافذة ليرى ما أصابها ، ولكن بقيسة من الحذر ردتة فسأل

« هل - يعنى ٠٠٠ أنت لست لصا ؟ »

فضحكت وقلت « كيف أكون لصا وأنا كما ترى ؟؟ »

وكانما أقنعه هذا ، وان كان لم يقنعنى أنا ، فسار الى النافذة ونحى الستار عنها ووقف يهز رأسه

فقلت « سأؤدى لك ثمن هذا الزجاج . فان الذنب لى ، التبعه على والان ماذا تقترح ؟ »

فالتفت ولم يتكلم فقلت

« ألا تفهم ؟ انى أريد ان أنجو من هذا الشرير الذى تعقبنى ، فكيف

تشير ؟ »

فخفت ان يعاوده الشك فى أمرى فعرفته بنفسى وقصصت عليه قصتى ، وشربت عنده قهوة ، وخرج معى . وأبى ان يأخذ للزجاج ثمنا

وكان أول ما فعلت بعد نجاتى أن اشتريت طربوشا . أما النشر الغنى وغيره من هذه الكتب المؤذية فبقيت عند الوراق ، وستبقى عنده اذا لم يجتنى هو بها ولم يحملها هو الى ، فانى أحوج الى سلامة عظامى من أن أعرضها للدق والتهشم فى سبيل النشر الغنى أو غير الغنى

شفته الوارمة

« تصادم ! »

« نعم • فلولا أن الله أدركنا بلطفه ، لكنت الآن ... »

فوضعت الزوجة راحتها على فمه لتقطع الكلام وقالت له ، وفي وجهها تقطيب الالم وسهوم الفزع من المصاب المتخيل « اسكت والنبى ! »

فسكت ، وأطرق هنيهة ، وجعل يتحسس شفته الوارمة بأنامله ، وطافت برأسه صورة ما كان فيه من اللهو والقصف والمجون ، وبرزت له وجوه أصحابه وصواحيبه حول المائدة ، وإيمانهم على الكوؤوس المترعة ، سواعدهم على الحصور اللينة ، فاشماز مما كان فيه ما احتاج اليه من الكذب على زوجته التى لا تستريب ولا تتردد فى التصديق ، وعرفته هزة فانتفض ، قسألته زوجته

« مالك ؟ هل تحس بشىء ؟ »

فلم يسمعه ، وقد كذب عليها الا أن يلج فى الاختلاق ، فقال

« لا ... ولكنى كلما تصورت ... أ ... الحادثة ... ! »

فقاطعته وربتت على كتفه وقالت « احمده الله ... واشكر فضله ،

ورف له قلبها الطيب ، فقالت « مسكين ! »

فاحس بالسخط على نفسه يفور فى صدره ، وخاف أن يسكت فينفجر بالحقيقة ، وحينئذ ماذا يكون مصيرها ومصيره ؟ فقال

« لقد ركبت الترام الى شارع فؤاد، ومن هناك انتقلت الى الامنيبوس، وجلست على المقعد الثالث - فى الدرجة الاولى - وكان من حسن حظي أن مجلسي مما يلي المر بين صفى المقاعد ، لا الى جانب النافذة

فى الامنيبوس ، ودار ليدخل فى شارع آخر ، واذا بسيارة تضربه
فى جنبه فترجه ، وتقلب هى فى الطريق ٠٠٠ »

وكان يجاهد ، وهو يقص ذلك ، أن يتصور المنظر ، وأن يجعل
خياله يستولى على شعوره ، وأن يهيج نفسه للاحساس به ، وكان
يشير بيديه ، وهو يتكلم ، على خلاف عادته ، ويعبس أن فى هذه
الحركات العضلية بعض الترفيه من ضغط الشعور بالحجل والالم ،
وعزت زوجته هذه الحركات التى لم تألفها منه الى اضطرابه فقالت
« ياساتر يارب ! سيارة صغيرة ؟ »

فقال « نعم - (ووجد شيئا يستطيع أن يحول اليه النعمة التى
يجيش بها صدره ، فمضى يقول) يقودها واحد من هؤلاء الشبان
المجانين الذين يظنون أنه ليس عليهم الا أن يطلقوا النفير بالانذار
والتحذير ، فيخلو لهم الطريق بسحر ساحر ، فاذا مات الناس تحت
عجلاتهم ، فليس عليهم ذنب ، والناس هم المسؤولون »

« وماذا جرى لهذا الشاب ؟ »

وكان السؤال فى موضعه ، ولو كان الامر حقيقة لحضر الجواب بلا
عناء ، ولكنه كان يتخيل ويرتجل ، ويتم الصورة شيئا فشيئا مع
سياق الحديث وتبعاً لشجونه ، فقال

« جرى ؟ لقي جزاءه - أعنى لقي حتفه ! أو على الأقل ، هذاظنى ،
فقد كانت سيارته مكشوفة ، فأطارته عنها قوة الصدمة ، وألقته على
الارض فسقط ولم يقم ، ومضى به رجال الاسعاف ، فاذا كان لم
يمت ، فلا شك انه تحطم »

« وركاب الامنيبوس ؟ هل أصابهم اذى بليخ ؟ »

« لا ٠٠ الاصابات خفيفة على العموم ٠٠ رضوض على الأكثر ٩٠
وكنت أنا - كما قلت لك - على آخر مقعد فى الدرجة الاولى مما يلى
الممر ، فانكبتت على وجهى واصطدمت شفتى بظهر المقعد الذى أمامى ،
وهو مكسو بالجلد ومحشو بالقطن أو شيء آخر يشبهه ، فكان هذا
الورم ، ثم وقعت فى الممر ، على راسى هذا ٠٠٠ وقد خفت ساعتها

أن يكون هناك اصابات أو رضوض غير ذلك ، لا أشعر بها .. ولكن
.. لأظن .. كلا .. لأظن .. فالحمد لله على كل حال »

« ألف حمدله ... أرني شفتك مرة أخرى »

وحنت عليه ، وأقبلت على شفته تجسها برفق ، وتقبلها بحنو ،
وتزوم ، وتتمتم بكلمات الحب والعطف والاشفاق ، أو بانصاف هذه
الكلمات ، وبأحرف منها على الاصح ، وهو مستسلم لها ، ويسراه
على كتفها ، ويمناه على صدرها ، وفي صدره ثورة سخط مضطرم
على نفسه . والشئ بالشئ يذكر ، فكرت به خواطره الى حيث كان
قبل ساعة واحدة ، فرأى نفسه جالسا الى مائدة مثقلة بما عليها من
أكواب الشراب واللوان الطعام ، وأدواته ، والى يمينه فتاة تميل عليه
وتريح رأسها على صدره ، ترفع له وجهها من حين الى حين ، لتتلقى
قبلاته أو لتناول بشفتيها من فمه فستقة أو بندقة ، وكان أصحابه
على مثل حاله - وقد شغل كل واحد بصاحبه - ثم يدق بعضهم
الكأس فتتحول اليه العيون وتتلقى اقتراح الشراب، فتعتدل القامات
بعد الميل والالتواء ، وتمتد الأكف الى الكاسات ، وترتد الى الافواه،
أو تتعارض السواعد ، فالرجل يسقى الفتاة من كأسه ، والفتاة
تسقى الرجل من كوبها ، وقد يتعاطيان فترشف هي رشفه يأخذها
هو مصا من فمها مع ريقها ، فتسيل على شفوف الحزير قطرات ،
تنفض بالإصابع فيطير منها رشاش الى العيون أو الحنود ، فيجزى
المسيء بالقرص في عضده أو وركه ، فإذا كانت الفتاة هي التي أطارت
القطرات ، قرصت في صدرها وخصرها وفخذها ، فتعلو الصيحات،
وتجلجل الضحكات ، وتثقل الكراسي وتضطرب المائدة ، وتهتز
الكووس كأنها هي التي سكرت ، ويكاد يهرق مافيه من الشراب
المشعشع ، وينقر الخادم على الباب ويدخل لتوهمه - من فرط الجلبة
- انه سمع تصفيقا ونداء ، أو ليرد القوم الى الاحتشام والسكينة
بدخوله ، حرصا على سمعة المكان ، واتقاء لعواقب الاسراف في
المجون ، فتقر الضجة ، وتسكن الجلبة ، وتخفت الاصوات ، ويدور
الهمس بالوعيد والانداز ، وترتسم على الوجود - على الرغم من
السكر - ابتسامات متكلفة لمداواة الحجل ، ويصرف الخادم بنكتة أو
يجديد يطلب منه ، فتعود الايدي الى الالتفاف بالحصور ، أو الامتداد

الى مواضع الدغدغة ، فتنقص الفتيات ويتلوين ويثنيان كالحبل المعوج ثم يتأرن لانفسهن بشد اذان الرجال أو شعورهم ، أو قرص خلودهم أول أنوفهم ، أو عض أكفهم ، أو دوس أحيديهم ، ثم يحل الوثام محل الحصام - أو السكينة محل الجلبة - بعد رجاء واستعطاف ، فتستدير الشفاه للقبل المختلسة ، وتمتد النحور العارية ، وترتفع الصدور ، للضم ، وتطوف الأكف الظهور ؛ وتنقطع الاصوات ؛ فلا يسمع الا صوت الرشف حين تتفلت شفه ، وتذكر احدها ان لها ثارا عند صاحبها فتغتنم الفرصة وتطلب شفته حتى اذا تمكنت ، غرزت أسنانها فيها وعضت !

« والان ماذا أصنع ؟ كيف ألقى زوجتي هذا الورم فى شفتى ؟ ، فتضحك الفتاة التى جنت ذلك عليه ، وماذا تبالى هى ؟ ماذا يعينها من ألف زوجة يكن له ؟ وتقول

« هو جزاؤك ! من قال لك اقرصنى ؟ لقد نهيتك عن هذا مرارا - ولكن يدك لاتنقطع ، وكان فى أناملك ابرا ٠٠٠ »

فيقول الرجل متبسطا وان كان ينطوى على خنق شديد

« عرفنا ان فى أناملى ابرا ٠٠٠ واقتنعت - اقتنعتنا جميعا - بأن القرص لا جائز ولا مقبول ، وان كان جسمك البض هو الذى يغرينى ، ثم ان هذه متعة الانامل ، كما أن اللثم متعة الفم ، واللمس متعة الكف ، وأنا أؤكد لك ان الانامل تحب أن تشعر برقة الجلد وطراوته بين أطرافها ، ولو كانت تنطق لوصفت لك ماتجد من هذا الشعور ولكنها خرساء لاتقول ٠٠٠ على كل حال ماذا أصنع الآن ؟ وكيف ادارى هذا الورم ؟ »

« قل لها انك عضضت نفسك ٠٠٠ من الغيظ مثلا ! »

« عضضت نفسى ؟ كيف ؟ أمجنون أنا ؟ ثم أن هذا غير صحيح ! »
« وما الفرق بين كذبة وأخرى ؟ أليس كله كذبا ؟ »

فسكت ، وبدا ينكر من نفسه هذا السلوك ، الذى ترك فى شفته دليلا ماديا على سوءه ، وانقضت السهرة ، وتفرقوا ؛ ومضى كل الى

بيته وكان صاحب الشقة الوارمة وهو في الطريق يفكر عبثا فيما يخرج من هذه الورطة ، ولم يكن يحب الكذب أو يرتاح اليه ، لانه عنده نقص في المروءة والرجولة والكرامة ، ولكن هذه الجلسة أوججته الى تلفيق شيء يسوغ به غيابه ساعات عن البيت ويعطى ما يفوح من فمه من ريح الخمر ، ولم يكن شابا فيعتذر بشبابه ، وجعل يقول لنفسه وهو عائد ان الشباب هو مطية الجهل وانه زمن الاحلام والخيال ، والتعلق بالمثل العليا ، في الحياة ، والشباب لا يفكر في الموت ولا يجعل اليه باله ، لان عياب حيويته زاهر ، ولذلك يكون سلوكه في الحياة سلوك من يعرف ويوقن ان مدتها متطاولة وان رحلتها لا تنتهي ، فلا يرى من تضییع العمر ان ينسحق الايام في الاحلام والاهام ، ثم يذهب الشباب ، وتذبل نضرتة ، وتقتصر الحيوية وتنقطع مددها ، فيبدأ المرء لايحس ان الدنيا تولى عنه ، ويشعر بانقضاء الايام ، ودنو الاجل ، وان كل يوم عاشه هو في الحقيقة يوم ماته ، ويندرك ان ما بقي له في الوجود محدود - محدود مهما طال وامتد - فتنازعه نفسه أن يقبل على الدنيا المدبرة ، كما لم يقبل عليها في صباه اذ كانت لا تزال مقبلة ، ويروح ينشد اللذة والمتعة - لذة العيش ، ومتعة الجسم - اللتين سيحرمهما لامحالة ، عاجلا أو آجلا ، ويلج في طلب ذلك لانه منه على وداع - وتختلف في نظره معاني الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، ويتغير مدلول العفة - في نفسه وفيما بينه وبينها - حتى وان لم يؤثر ذلك في سيرته أو يقضى الى تغيير في سلوكه . وبعد أن كان في شبابه ينعم بتخييل الحياة في صورها الجميلة او الرفيعة أو الكاملة ، ينقلب يطلب الحقائق والمادة والمحسوس .

ولم يكن وهو يدير هذه الحواطر في نفسه يحاول ان يعتذر بها ، أو يبرر سلوكه ، وانما كان يفكر في ذلك اشتياحه ، وهو سائر ؛ ليهرب من مواجهة ضميره ؛ وليجد ما يشغل عقله به ويصرفه عن حماقته في ليلته ؛ وكان من البديهي انه لا يستطيع ان يصارح زوجته بالحقيقة . أو ان يتكلف الاعتذار اليها ؛ فلن تقبل منه لا الحقيقة ولا معاذيره ، فلا مفر من اختلاق سبب يكون مقبولا لهذا السهر

ولما أعقبه من ورم شفته ، وأحس وهو يحدث نفسه بذلك أن حياته صارت بوجهين وإن لسانه سيجرى بخلاف ما في ضميره ، لو تيسر أن يقر بالحقيقة لرفه ذلك عنه ولحقت وطأة الشعور بأن حياته مبينة بالزور والكنب

وكتب ، وصدقته الزوجة ، ألمه أنها صدقته ، أن الشك لم يخالجها في جرف ما قص عليها . وود لو أنها جنحت إلى الاستراية وتلقت حكايته بالشك . ولكنها آمنت ، لأنها ساذجة ومحصنة . وماذا تعرف المحصنات من دنيا ما أكثر ما فيها من الباطل والفجور ؟

واستيقظت في هذه اللحظة بنته الرضيعة ، كانت وحيدته ، فحملتها أبا وجاءت بها إليه على ذراعها ، وجعلت تلاطفها وتلاعبها وتناجيه حتى ابتسمت ، ثم البستها طربوش أبيها فغطى وجهها الصغير كله ، فضحكت الام ، وتكلف الاب الضحك ، وفي قلبه مثل السكين ، ولثم خد ابنته ؛ فتحير الدمع في جفنيه ، ولحمت زوجته ذلك فسأله بلهفة

« مالك ؟ »

قالت « كادت هذه الصغيرة تفقد أباهما الليلة ؟ »

فصاحت الزوجة « ألا تكف عن هذا الكلام المؤلم ، قل الحمد لله يا شيخ ! »

فقال « إنما أعني أنها كادت تفقد الابوة المدركة لواجباتها ، العارفة بتبعاتها ، الناهضة بها على وجهها - لأباهما بالذات على كل حال الحمد لله ! »

فقالت الزوجة « هذا أحسن . . . يجب أن تحمد الله دائما »

قال « نعم ، الحمد لله »

قالها بقلبه ، فقد انتهى الصراع العنيف بين واجبه ، كما يتركه ، وشهواته كما يحسها ، في كهولته التي كاد طيشها يغلب حكمته ، وكان الفضل في ذلك لاللعقل بل لهذه الرضيعة التي لاتفهم من الدنيا إلا أنها تلى أم

سعى فى الخير

« تفضلوا ! »

ولم يكن فى غرفة الجلوس غير اثنين ، ولكن « أنيسة » على كثرة ما حفظت من الادوار للتمثيل كانت كثيرا ما تخطئ فتجمع ما حقه التثنية ، وتنطق القاف كافا ، والشاء شيئا ، وربما جعلت السين ثاءا فقلت - وكنت أحد الاثنين اللذين « جمعتهما » - « الى أين ان شاء الله ؟ »

فلم تكثر لى ، ونظرت الى صاحبها - وصاحبى ايضا - وكان خطيبها ، كأنما كان هو الذى سألها :

« الى مينما ٠٠٠ »

فسألتهما « مع من ؟ »

فردها السؤال الى ، وقالت « مع أحمد بالطبع »

فقلت لاستوثق « مع أحمد ؟ »

قالت « نعم . لقد وعدنى ٠٠٠ »

وكان موقفى حرجا ، فقلت على سبيل التمهيد لما جئت مع صاحبى له « وأنا ؟ ماذا أصنع بنفسى ؟ »

قالت « وانا مالى ؟ اذهب حيث تشاء »

قلت « يا صاحبتى ٠٠ اسمعى منى ، خير لك أن تجيئى معى ، وتدعى احمد هذا ينهب الى حيث يشاء »

قالت « ايه ؟ »

قلت « تمام . تهملينه وتضعى ذراعك فى ذراعى »

فقالت « لاتمزح من فضلك ٠٠٠ قم يا أحمد ،
فتتنحج أحمد ، فنبت أنا عنه حتى يزول ماوقف فى حلقه
« لقد تهبأ أحمد ، ولكن للعنول عن النحاب ،
فقالت « ولكنى تهبأت للخروج ،

قلت « ظاهر ،
قالت « اذن قم ، لاحمد
فتحرك فى مقعده وعاد يتنحج ، فسئمت هذه المحاوره وقلت
« اسمعى ٠ انى أريد أن أقول لك كلمة ،

قالت «ولهذا رغبت فى مرافقتى الى السينما ؟
قلت « لا ٠٠٠ انما كنت أريد أن أرافقك لالهيك ، وأسليك ،
وأزفه عنك ، وأخفف وقع الصدمة ، والطف البلاء الذى لاأستطيع
دفعه ٠٠٠ »

فصاح أحمد مقاطعا « ياأخى ماهذا الكلام ٠٠٠ ؟
فلم أعبأ به ولم أشك فى أن الحسد هو الذى دفعه الى الاعتراض ،
وهل كان يطلب معونتى لو كان يعلم أن له مثل كياستى ؟ ومضيت
فى كلامى

فقلت « نعم ، فانى مشهور بالقدرة على ذلك والبراعه فيه ٠٠٠
فقاطعتنى هى : « ولكن ما هى الحكاية ؟ »

فقلت لنفسى ، « على نفسها جنت براقش ، ومادامت قليلة الصبر
فلالقها - أعنى الحكاية - على حجر »

وقلت لها « ان أحمد لن يرافقك بعد اليوم الى السينما أو غيرها .
سيعود فى الصباح الى بلدته ، الى القطن والدودة و ٠٠٠ »
فصاحت « إيه ؟ »

قلت « بالضبط »

قالت « يعنى لاينوى أن يتزوجنى ؟ »

قلت « لقد أدركت مراده بذلك وإن كان - أعنى أحمد - لا ذكاءك - كالكرسى لا ينطق ، وأعربت عنه - أعنى عن مراده - أحمد - لا الكرسى - بالفاظ لا تنقصها الصراحة إذا نقصتها اللباقة والكماسة »

فلم يبد عليها أنها تأثرت بهذا الثناء الجم ، وقالت

« ويظن أنى سادعه ينهب ؟ »

قلت « هذا رجاؤه واسمعى . إن حياة الريف لا تلائمك ، يا أنيسة ، ليس فيها لامراقص ولا مسارح ولا سينما وليمونيا ولا جروبي ولاحتى مناسبات للتزين ولبس هذه الثياب الانيقة . . . ستشمين فى بيته المبنى من الطوب الأخضر - أعنى الامود - رائحة البقر والاغنام والدجاج والحمر أيضا بدلا من العطور والكلونيا . وستسمعين نباح الكلاب ونقيق الضفادع فى الليل الساكن بدلا من الموسيقى ، وإذا اشتقت الى الازهار فلن تجدى غير الفجل والجرجير »
فقالت وهى تحبجنى بنظرها : « يعنى أنا لا أستحق أن أعيش معه هناك ؟ »

قلت « الامر على النقيض ، ثم انه كما تعلمين مغفل لا يصلح لك أنت الفتاة الرقيقة الرشيقة . . . »

فصاح أحمد « ما هذا الكلام الفارغ ؟ »

قلت « فارغ ؟ » وغضبت

ولم تجعل هى بالها الى ما سألنى فواجهت أحمد وقالت

« مفهوم ! ومن هى التى مستحل محلى يا ترى ؟ »

فاضطرب أحمد - لغير شئ - وقال - « لا أحد . . . ليس هناك أحد . . . ثقى ! »

وكان صادقا ، ولكنها أصرت على أن امرأة أخرى استولت على

هواه وعلى مكانها ، وألحت عليه أن يخبرها باسمها ، فأعاد النفي وأقسم وأبت هي أن تصدق فقلت ، وفى ظنى أن هذا قد ينسقد الموقف ويحل الاشكال

« قل لها يا أخى ٠٠٠ خلصنا »

فدقت يدا بيد وصاحت « آه ! بالطبع ! لازم ! »

فوثب أحمد وواجهنى وقال « ما هذا المزاح البارد ؟؟ انك تعلم أنه ليس هناك أحد ٠٠٠ »

وقاطعته هي قائلة « ومن أجلها تريد أن ترمينى كالم ٠٠٠ » ولم يسعفها الخيال ، فأسرعت الى نجلتها ، كما هو الواجب ، وقلت « كالحذاء القديم »

فاخذت من فمى وقالت وهى ذاهلة « كالحذاء القديم » ثم كأنما أغضبها شىء ، لا أدرى ماذا ، فصاحت بى « اخرس انت »

ورجعت الى أحمد فقالت « ما شاء الله ! وتظن أنت وهى أن فى امكانك (كذا فى الاصل) أن تنبذنى كائن ٠٠٠ »

وخازنها الخيال والبيان مرة أخرى فتوقفت ، فبادرت الى نجلتها وقلت ملقنا

« علبة سردين فارغة »

فصرخت « اخرس ! »

قلت « خرسيت »

فقالت « مستحيل ٠٠٠ لو صعدت الى السماء لما هربت منى ٠٠ وسترى أنت وهى أيضا ٠٠٠ »

فقاطعها أحمد محتدا « ياستى قلت لك ألف مرة وحلفت أنه ليس هناك أحد ٠٠٠ »

فلم يبق بد من الخول بينهما فقلت
« ألم أقل لك انه مغفل ؟؟ ريقى مغفل لا يصلح لك ، فدعيلهاه »

فغضب أحمد وصاح « ماذا تعنى بهذا الكذب والمزاح البارد ؟ ،
فسأله « ألسنت مغفلا ؟؟ ألم تقل لى ونحن آتيان الى هنا انك
مغفل وأحمق وقليل العقل أيضا ؟ ألم ترجئى أن أصعبك لآخرجك
من هذه الورطة ؟ هيه ؟ »
فصاحت أنيسة « آه . تريد أن تتخلص منى ؟؟ أنا ورطة ؟ هيه !
طيب . ! »

وهمت بأن تهجم على أحمد ، كما هجمت ألف مرة على مدير
الجوقة وأوسعته - أعنى المدير لا أحمد - ضربا بالحداء ، فتعرضت
لها وحلت بينهما ، ولم تكن لحسن حظى قوية أو ضخمة ، فلم
يتعذر رد عاديتها فحولت نغمتها الى الاكواب والفناجين وضربت بها
الارض - أعنى السجادة - ولما نفلت هذه الذخيرة انتقلت الى
الصور والتحف والطرف الصغيرة التى تزين الغرفة ، واقبلت
الخادمة على أصوات هذه القذائف ، ولم تكده تظهر فى الباب حتى
تطرحت « أنيسة » كالسكرى فلولا أن الخادمة أدركتها وتلقتها على
صدرها - بين ذراعيها - للحقت بقذائفها

وقالت الخادمة « على بالماء ! »

وقال أحمد « أين الكولونيا ؟ »

فقلت « ضعوا فى أنفها » شطه « فانها سريعة الفعل »

وقالت الخادمة « ماذا أصنع ؟ صاعدونى ؟ »

فقلت مقترحا « أجلسى على صدرها ٠٠٠ أو على قمها »

فصاح أحمد « ماذا تصنع هنا »

فقلت : مستاء « أنا ؟ ! »

قال « نعم أنت ! اذهب وهات طبيبا ! »

قلت « فكرة ! »

وقهنت أفكر فى ذلك فأخرجت سيجارة وأشعلتها ، وبصر بى
أحمد والخادمة غارقا فى لجج الفكر ، فأخليا لى الجو واحتملا أنيسة ،

ودخلا غرفة النوم ، وطرحاها على السرير - أو لا بد أن يكونا قد فعلا - ثم خرجا واحدا - أو على الاصح واحدة - ففى اثر الآخر ، وخلفانى وحدى فى هذا المسكن مع تلك التى تصنع الاغماء .

فقلت لنفسى « لا بأس » وأرسلت دخان السيجارة ، سنرى - كل شيء فى أوانه - ثم خطر لى أن أنهض وأنظر ما تصنع هذه المرأة بعد أن أيقنت أنها وحلها وأن العيون ليست عليها ، ولكنى رددت نفسى ولزمت مكاني ، غير أن عيني انثنت الى بابها عفوا فإذا هى فيه واقفة تنظر الى ، وتبتسم . فلم يدهشنى ذلك لأننى كنت موقنا أن هذا الاغماء تصنع ، وهو على كل حال « فن » تتقنه النساء ويحذقنه جدا

فقلت « تعالى ! تعالى ! لا تخافى فقد خرجا »

فأقبلت ضاحكة وسألتنى « أين ذهبيا ؟ »

فقلت « ألا تعلمين ؟ لقد كان تمثيل الدور متقنا جدا - كالعادة - فذهبيا يجيثان بطبيب ٠٠٠ ومن يدري ؟ انى أخشى أن يجيثيا بمستشفى كامل - من أطباء وممرضات وآلات ٠٠٠ فان أحمد كما تعرفين ، مجنون »

قالت « اليس كريما ؟ »

قلت « دعى هذا ، فليست مستعدا أن أنظم فيه شعرا ، وقولى ماذا تنوين أن تفعل الآن ؟ »

فسألتنى ببلاهة « أفعل ؟ »

قلت « نعم . سيجىء المستشفى بعد قليل »

قالت « أوه ! آه ! صحيح ! ولكن وماله ؟ انى مريضة والله . احسن هنا ٠٠٠٠ »

فتناولت يدها وقاطعتها - أعنى قطعت كلامها -
« على مهلك ٠٠ العجلة من الشيطان ٠٠ وأنا لست بمستشفى ولا مدنى طبيبا »

فضحكت ، فقلت « هذا أحسن . والآث هيا بنا »

قالت « الى أين ؟ »

قلت « نهري من المستشفى ومن المجنون الذي ذهب لينقله الى دارك ».

قالت « ولكن سيجيئون فما العمل ؟ »

قلت « نكتب ورقة بالخط الكبير ونلصقها على الباب »

فسألت « ماذا تقول فيها ؟ »

فضجرت وقلت « أوه ! أى شيء .. هاتى ورقه .. بسرعة »

فجاءت بورقة صغيرة فنهضت ، وأنا أمزقها - أعنى الورقة -
وقلت :

« هنا طابع بريد - على كل حال لاداعى لكتابة شيء .. قومي بنا »

فقالت وهى تنظم الى قطع الورقة الممزقة على السجادة « يعجبك هذا ؟ »

قلت « تعالى ! سيجمعها الذى سيجمع الاكواب والفناجين المكسرة .. »

وخرجت بها ، فلما صرنا فى الطريق سألتنى

« الى أين بنا ؟ »

قلت « أوه ! الى جهنم . الدنيا واسعة ، ما هذه البلاهة ؟ »

فغام وجهها قليلا وسألت « وأحمد ؟ »

فقلت « أما انك لبلهاء ! جهنم أيضا واسعة كالدنيا »

فأقبلت على بمنل وجه الصبى الغرير وسألتنى :

« هل صحيح ما قلته »

قلت « ماذا ؟ »

قالت « الفتاة الاخرى ؟ »

قلت « أنظرى ... كم امرأة ترين فى الطريق ؟ »

قالت « كثير .. » قلت « وفي الدنيا ؟ » قالت « أكثر »
قلت « وأنت وحدك الجميلة الفاتنة ، ونساء هذه الدنيا كلهن
ميمات ثقيات بنيفضات ٩٠٠ »

قالت « بالطبع لا .. ومن آكون أنا ؟ »

قلت « انتهينا اذن .. »

قالت « انك فظ »

قلت « من بعض ما عندك ياستى »

قالت « سأعشى وحدى »

قلت « فى وديعة .. الله ! ولا تنسى أن تكتبى »

وافترقنا ، وحمدت الله على هذه النتيجة ، ومشيت على مهل أفكر
فى أحمد وأين يمكن أن أجده ، وإذا بها مقبلة تعدو ، فوقفت مبهوراً ،
فقالت

« أحمد .. أحمد أهه .. على الافريز الآخر »

قلت « اذن اهربى .. انجى بنفسك .. أدخلى أول سينما فى
الطريق .. ودعيه لى »

فسألتنى « ولكن لماذا ؟ »

قلت « انه مجنون ! ولا بد أن يكون الان كالبركان الشائر ، وله
العذر »

وتركتها وعبرت الطريق ، وأدركت أحمد وقلت له وأنا أجره
من ذراعه

« تعال ! »

فصاح « إيه ؟ انت هنا ؟ أين أنيسة ؟ »

قلت « تعال .. لتراها »

وأركبته سيارة ، الى المحطة ، وقلت « هات ثمن التذكرة فان
الطبيب لا يدفع الى المريض ثمن الدواء »

ولم يجله ما شرع يحتج به ويتعلل ، وكان لى عليه دالتان : دالة
الصداقة ، ودالة الاستاذ على تلميذه القديم ، فلما جلس فى المركبة
قال لى من النافذة

« أتذكر كيف كنت تعاملنا فى المدرسة ؟ انك لم تتغير أبدا ..
ومازلت مستبدا كما كنت

فقلت « أشكرك ... لم تكن بى حاجة الى الاستبداد لولا انك
مازلت طفلا »

ودق الجرس اينانا بالسفر فودعته وقلت له

« مع السلامة .. لا تعد .. »

وفى الصباح أرسلنا له الحقيبة

فلته ...

دنا « عيد الميلاد » وأذنت ليلته بما تؤذن به كل عام من انس ولهو ، وازينت الدكاكين وحفلت بكل مفر من الهدايا واللعب ، وأقبل الناس عليها يحملون منها ما تحتل مواردهم أن يؤدوا ثمنه ، وتزاحم الرجال والنساء على المعروض يقبلونه وينتقون منه ، وقل من هؤلاء وأولئك من بدرى ماذا يبغى ، فلا كثرون يدخلون الدكاكين لينظروا ويتأملوا ، ثم يخرجون ليترثوا ويشاوروا نفوسهم ، والشبان يضربون فى زحمة النساء عسى أن يتاح لهم أن يركبوا بشبابهم ما يركب ، فمن أخطأته فرصة الاتصال لم تخطئه متعة النظر ، والفنيات يتجمعن حيث يكون الفتيان ، وتعلو ضجتهن ويكثر ابتسامهن ، وضحكهن ، وتلفتهن ، وتنقلهن ، ولحظهن الرجال وكأنهن لا يبصرنهم ، وما من أحد الا وهو يحلم بليلة يرسل فيها نفسه على السجبة ، ويقول ويفعل ما يغرى به انس المحل وحما الكاس وحسن الرفقة

وكان « ش » يطوف كغيرة بالدكاكين وينظر ، ويفكر ، ويفرك جبينه ، وهو لا يعنيه من عيد الميلاد وصحته الا هدية يشتريها لصاحبة له ، أو لمن يطمع أن تكون صاحبة له ، ولم يكن يحبها ، ولا كان يعرف ما عندها له . ولكنها فتاة صابحة الوجه مشرقة المحيا ، وهو كهل قد مل حياته الآلية بين البيت والمكتب ، فاشتتهى أن يرقرق على وجوده الجاف قطرات من ماء الجمال ، عسى أن يلين كيانه ويطرى ، ويصد النوى الذى يحسه يشيع فى عوده . فتودد اليها حتى انس ، وسكنت هى اليه وأطمأنت ، ولكنه كان رجلا فيه احتشام ، وقد راض نفسه على كبح غرائزه وضبط أعصابه ، حتى ليكون فى جوفه مثل البركان الثائر ، وليس على وجهه ما يشى بما يخنى من التمزيق والتفطر . فلم يعد الأمر بينهما الحديث العف والنظر البرى ، وخيل اليه - من فرط سخطه على نفسه وانكاره منها العجز عن مطاوعة هواه واطلاق أعصابه مما

صفدها به والزمها اياه - نقول خيل اليه ان الفتاة تنظر اليه نظرها الى أخ اكبر بل الى أبيها ، وكان ربما شق عليه ذلك فيهم بأن يقول بقلبه أو يمد يده الى ذراعها أو صدرها فلا يكاد يصح عزمه حتى ينكص وترده عادة الكبح عن الانطلاق

ولم يكن له عهد بهذه المجاملات الاجتماعية ، ولم يكن يدرى أى هدية يختار ولا كيف يقدمها ، لأنه كان يعيش مع نفسه أكثر مما يعيش فى الدنيا بين الناس ، وكانت فكرة الاهداء تثقل عليه لالكراسة فيه فما كان للمال عنده - على قلة حظه منه - قيمة أو وزن ، ولكنه كان يرى فى التهادى معنى من المداجاة أو المصانعة والتكلف لا يرتاح اليه ولا يرضى عنه ولكنه كان قد سئم أسلوب حياته وآلى أن يغيره وينفى عنه بواعث الملالة ، فلم يبق مفر من أن يفعل ما يفعل الناس ما دام قد اعتزم أن يحيا كما يحيون

وطال اختلافه الى الدكاكين وتردده فى الاختيار ، فحدث ما يحدث عادة فى هذه الأحوال . ذلك أن طول التفكير ليس من شأنه أن يعين نى كل حال على حسن الانتقاء ، فقد يذهب الضجر أو الحيرة بصحة التمييز ، وقد كان - ضجر الرجل وضعف تمييزه ولم يعد يفرق بين شيء وشيء ، واستوى عنده الموافق وغير الموافق ، واشتاق أن يفرغ من هذا الأمر ويرتاح من عناء ما تكلف فقال لصاحب الدكان - أو العامل -

«معدرة . لقد اتعبتك . ولكنى لم يبق فى رأسى عقل ، ولا فى عيني نظر . ولست أحب بعد أن أرهقتك بنقل كل ما على الرفوف ، إن اذهب كما جئت . وأنت تريد أن تبيع وأنا أريد أن اشتري . وكلانا جاد مخلص . ولكنى فقدت الارادة وضل رأبى ، فهل لك أن تعيننى وان تتولى عنى الاختيار لى ؟؟ فما أشك فى أنك أعرف بذلك وأحلق فيه ، ولا أكتك انى أجهل الناس بهذه الامور »

فقال البائع « على عيني . وحبا وكرامة فلمن الهدية ؟ »

قال الرجل « لفتاة »

فسأله « متزوجة ؟ »

قال « كلا . »

قال « فان الامر رهن بمنزلتها عندك . فما محلها من نفسك ؟ »
فشعر الرجل كأنه على كرسى الاعتراف أمام راهب أو قسيس ،
وكره أن يتحدث الى هذا الغريب بما تنطوى عليه أضلاعه ، ولكنه لم
ير بدا من كلام يقوله بعد أن وكل اليه الامر ، فقال

« صديقة »

فألح عليه البائع « يعنى حبيبة ؟ »

قال الرجل مصرا « صديقة »

فلم يطلق الرجل هذه اللجاجة فقال « ياسيدى هى صديقة ،
لا أكثر ، نعم هى صديقة عزيزة ، ولكن الحب لا يخطر لى ، ولا محل
له بيننا فاذا كنت تنوى أن تساعدنى فافعل ، والا فدعنى اذهب ،
واعفنى من هذه الاسئلة »

فاعتذر الرجل بأنه ما أراد أن يعلم ما يعين على اختيار هدية
لائقة ، وجاءه بشملة بيضاء ، فاستخفها صاحبنا ، فعرض عليه
أخرى أنفوس وأثقل ، فردها ورجا منه أن يجيئه بثالثة غير بيضاء
فأنبأه أن هذه الشملات المفضضة لا تكون الا بيضاء أو سوداء ،
والبياض للعداوى أما السواد فللمتزوجات ومن هن فى حكمهن
وكان ينبغى أن يختار البياض ، فان صاحبتة فتاة عذراء غضة
السن ولكن روح الكهولة وطبيعة الاحتشام رجحا السواد فخرج
به

ولقى صاحبنا له يعرف قصته ، فسأله عما يمينه ، فأخبره ،
وكشف له عن اشملة ، فنظر اليها صاحبه مليا ، وأحس « ش »
أن اعتراضا يدور فى نفسه ، فسأله « ما رأيك ؟ »

قال « جميلة . ولكن لماذا اخترت السودا ؟ »

قال « لا أدري سوى انه كان أوقع فى نفسى »

قال « ولكن الهدية لها لا لك »

قال « والرأى الآن ؟ »

قال « تحملها اليها وتعرضها عليها وتسألها عن رأيها فيها
فإذا جاءت موافقة فيها ، والا فأبدلها »
قال ببلاعه « ولكن كيف أطلب رأيها في هدية لها ؟ »

قال « وأى بأس هناك ؟ ربما كان عندها شبهها فتؤثر شيئا
سواها والاستشارة في هذه المواطن مألوفة ولا عيب فيها »

فحمل « ش » الشملة ومضى بها الى صاحبتة ، وأقبل عليها
يتكلم في كل شيء الا ما جاء له ، وكانت هي تنظر من حين الى حين
الى هذا الشيء الملفف في الورق وتحديثها نفسها بأنه لها . ثم ترى
انصرافه عن هذا الشيء واغفاله كل ذكر له فيكبر في ظنها أنها مخطئة
وتجاربه في هذا ، ثم آن أن ينصرف ، فنهض وتعمد أن
يتناول اللقافة من غير أن ينظر اليها وهو يمد يده . فلما صارت
كفه عليها تحسسها بأصابعه حتى لمست طرف الورقة فجذبها من
هذا الطرف فارتفعت الورقة في يده . وهوت الشملة الى الأرض
فانحنفت الفتاة وتناولت الشملة وقالت وهي تتأملها

« ما هذا ؟ »

قال « هدية لصاحبة . أتظنينها لائحة ؟ »
قالت « انها جميلة . ولا شك انها نفيسة . ولكنى لا أستطيع
أن أعرف هي موافقة أم غير موافقة ؟ »
قال « كيف ؟ »

قالت « أهى متزوجة ؟ »

قال « كلا . فتاة في مثل سنك . »

قالت « اذا يحسن أن تختار لها غير السواد »

قال « لماذا ؟ »

قالت « وقار . . واحتشام . . غير أن السواد أقرب الى روح
الشباب »

لفف الشملة في ورقها وخرج ، وكانت الشمس قد مالت
للمغرب ، وهو سائم فرجع الى بيته ليفطر مع زوجته وأبنائه
وأقبلت عليه زوجته تساله لماذا تأخرت ؟ وتناولت منه اللقافة

لتحملها عنه . فمد لها يده بها فى صمت ، فأخذتها وفتحتها ثم رفعت اليه وجها ينضج فيه السرور وألقت اليه نظرة شكر ورضى ، فابتسم ، فقالت « لى ؟ »

قال « ولما تكون غيرك ؟ »

قالت « كيف خطر هذا ببالك ؟ ليس من عادتك أن .. »

قال « عادتى ؟ أوه ! لا تكونى بلهاء ! لقد رأيتها وأنا أتمشى ، فاستحسنتها .. ولماذا لا أشتري لك شيئا ؟ هل تعجبك ؟ »

قالت « بالطبع .. وانى لشاكره »

★ ★ ★

وفى اليوم التالى ، عاد الى الدكان فاشتري شملة بيضاء مفضضة وكانت أكبر من السوداء وأثمن وأجمل ، فسخط على نفسه وشق عليه أن تكون هديته لصاحبه أنفـس مما أعطى زوجته ، فوقف أمام الدكان - على الافريز - يحاور ضميره الذى أبى أن يكف عن الوخز ، فارتد الى الدكان فاشتري شمله أخرى بيضاء . وبعث بواحدة الى صاحبه مع التحيات والتهنئات ، ومضى بالآخرى الى زوجته فقالت

« ماهذا ؟ ماذا جرى لك ؟ »

فسألها « أو يسوؤك انى اشتريت هذه لك ؟ »

قالت « بالعكس .. ولكنى مستغربه .. ليس من عادتك أن

تشتري شيئا .. اول ما شطط ، نطح ،

قال « هى فلتة .. لاأظنها تتكرر »

قالت « لماذا ؟ لا تقل هذا .. انه يسرنى أن تشتري لى ما يعجبك »

قال « أعلم ذلك ، لكنى لا أحسن هذا .. هذا .. هذا الفن »

قالت « تعلم »

قال « بعد هذه السن ؟ لا ياستى ! هى فلتة .. وانتهى الامر »

وأمسك . وفى صدره معنى غير الذى فهمته زوجته

تنبيهان

- ١ -

بين « صور من الامس » فصل كان حقه أن يكون بين « صور من اليوم » ، ولكنني غلطت ، و تسرب هو - لا أدري كيف ؟ - الى غير موضعه . فلا بأس ! أليس كل يوم هو الامس ، غدا ؟!

- ٢ -

كان الفراغ من طبع الكتاب فى مثل اليوم الذى ولدت فيه ، اذا صدقت شهادة الميلاد - وعلى ذكرها أتبه المؤرخين والنساء الى أنها لاتزال فيما ارجو محفوظة فى وزارة المعارف منذ تركتها

فالى القراء منى تهنئة مزدوجة !

ابراهيم عبدالقادر المازنى

١٩٩٧/٤٢٩٠	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5410-X	الترقيم الدولي

١/٩٥/٤٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)